موسوعة النابلسي للعلوم الإسلامية

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي

أحاديث رمضان

أحاديث رمضان ١٤٢٨ هـ

مقاصد الشريعة

أحاديث رمضان ١٤٢٨هـ - مقاصد الشريعة - الدرس (٠١- ٢٧) : مقدمة - مقاصد الله من هذا الشرع العظيم

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٧-٠٩-١٣

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة حول مقاصد الشريعة:

١ – مبادئ العقل الثلاثة:

بادئ ذي بدء، أودع الله في الإنسان عقلاً، والعقل له مبادئ ثلاثة: مبدأ السببية، مبدأ الغائية، مبدأ عدم التناقض، فالعقل البشري لا يفهم شيئاً بلا سبب، هكذا برمج، والعقل البشري لا يفهم شيئاً بلا غاية، فمن أجل أن تفهم ما حولك يجب أن ترى السبب الكافي لحدوث الذي أمامك، ويجب أن تطلع على الحكمة، أو على الغاية، أو على مصطلح دقيق في الشريعة الإسلامية على المقصد.

٢ – العبادات في الإسلام معللة بمصالح الخَلق:

ومن نعم الله الكبرى أن ربنا عظيم حينما أمَرنا أعطانا بعض مقاصد الشريعة رحمة بنا، يقول الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: " العبادات في الإسلام معللة بمصالح الخَلق "

الأديان الوضعية التي هي من صنع البشر فيها طقوس وحركات، وسكنات وإيماءات وتمتمات لا معنى لها إطلاقاً، لكن العبادات في منهج الله عز وجل معللة بمصالح الخلق.

الأدلة على أن العبادات في الإسلام معللة بمصالح الخَلق:

١ ـ الصلاة:

قال تعالى:

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ (٤٥)﴾

[سورة العنكبوت]

مقصد الإله العظيم مِن فرض الصلاة علينا أن نتصل به، وأن نشتق من كماله، وأن يكون هذا الكمال رادعاً لنا عن كل نقيصة وعن كل عيب، إن الصلاة تنهى نهياً ذاتياً عن الفحشاء والمنكر، وأعظم ما في الدين أنه يعتمد على الوازع الداخلي، وأكبر نقيصة في النظم الوضعية أنها تعتمد على الرادع الخارجي.

سيدنا ابن عمر حينما التقى راعياً قال له: بعني هذه الشاة، وخذ ثمنها، قال له الراعي: ليست لي، يقول: قل لصاحبها: ماتت، أو أكلها الذئب، يقول الراعي: ليست لي، يقول له: خذ ثمنها، يقول له الراعي: والله إنني لفي أشد الحاجة إلى ثمنها، ولو قلت لصاحبها: ماتت، أو أكلها الذئب لصدقني، فإني عنده صادق أمين، ولكن أين الله ؟

إن منهج الله يعتمد على الوازع الداخلي، وأيّ منهج أرضي يعتمد على الرادع الخارجي، فإذا انقطعت الكهرباء في مدينة كبيرة جداً في دولة عظمى ترتكب في الليلة الواحدة أكثر من مئتي ألف سرقة بأربعة مليارات دولار، لأن الرادع الخارجي تعطل، وهو المراقبة، أما المؤمن فعنده وازع داخلي، فلذلك " الشريعة عدل كلها، مصلحة كلها، رحمة كلها حكمة كلها ".

على كلٍّ ؛ مقصد الشريعة من الصلاة أنها تنهى عن الفحشاء والمنكر نهياً ذاتياً.

٢ ـ الصيام:

قال تعالى:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣)﴾

[سورة البقرة]

مقصد الإله العظيم من أمرنا بالصيام أن نتقي، أي أن نتصل بالله، أن يملأ الله قلبنا نوراً، نرى به الحق حقاً والباطل باطلاً.

٣ ـ الزكاة:

حكمة الزكاة، قال تعالى:

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا (١٠٣)﴾

[سورة التوبة]

فالزكاة تطهر الغني من الشح، وتطهر الفقير من الحقد، وتطهر المجتمع من هذا التفاوت الطبقي الكبير، بل وتطهر المال من تعلق حق الغير به، وتنمي نفس الغني ونفس الفقير، وتنمي المال، وتنمي العلاقات الاجتماعية.

إذاً: العبادات ـ كما قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى ـ في الإسلام معللة بمصالح الخلق. بالتعبير التقريبي، هذا احترام لنا: الله عز وجل أودع فينا عقلا، لو أن مدير مؤسسة أمر موظفا أن يسافر إلى حلب، وأن يبقى في باب الفرج ساعة، ويعود إلى دمشق، يقول له: لماذا ؟ ما الهدف ؟ ما المقصد من ذلك ؟

إن الإنسان لا يقبل شيئًا بلا هدف، وفي حياتنا اليومية أحياناً ترى سلسلة مدلاة خلف الشاحنة، تقول: لماذا هذه ؟ إلى أن يقول لك أحدهم: هذه لتفريغ الصاعقة، لو جاءت صاعقة بدل أن تحرق الشاحنة وما فيها تفرغ إلى الأرض، فأنت لا تفهم شيئاً بلا سبب، ولا تفهم شيئاً بلا غاية.

مقاصد الشريعة تلبية لحاجة عقلية، أن تفهم الشيء بغايته، لذلك ربنا عز وجل لأنه خلق العقل فينا، هذه الحاجة قد لبيت في منهجنا، قال تعالى:

(إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ (٤٥))

[سورة العنكبوت]

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣))

[سورة البقرة]

٤ ـ الحج:

قال تعالى:

(لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ (٩٧))

[سورة المائدة]

والزكاة من أجل أن تطهر المؤمن، وأن تزكي نفسه.

إذاً: العبادات معللة بمصالح الخلق، ولبعض العلماء كلمة رائعة وهي: " الشريعة عدل كلها، مصلحة كلها، رحمة كلها، وأية قضية خرجت من العدل إلى الجور، ومن المصلحة إلى المفسدة، ومن الحكمة إلى خلافها فليست من الشريعة، ولو أدخلت عليها بألف تأويل وتأويل ".

من الحكمة تعليلُ الأوامر:

لذلك من دعا إلى الله بأسلوب ومضمون سطحي غير متماسك، أو دعا إلى الله بأسلوب غير علمي وغير تربوي قال بعض العلماء: هذا الداعي بهذه الطريقة، وبهذا الأسلوب لا يكون عند الله مبلغاً، ويقع عليه إثم تفلت من دعاه بهذه الطريقة من منهج الله.

ديننا دين علم، يلبي الحاجة العقلية، يعطينا الأسباب، يعطينا الغايات.

أحياناً أنت كأب لأنك قوي، ومالكٌ لأمور بيتك، يمكن أن تعطي أمرا لأولادك ؛ افعلوا كذا، ومن لم يفعل أنزل به أشد العقاب، فطبَّقوا أمْرك، لكن لما تقول لأولادك: افعلوا كذا من أجل كذا، فأنت بهذا تحترمهم، وأنت بهذا تعلي قدرهم، وأنت بهذا تقنعهم، البطولة لا أن تصدر الأوامر، البطولة أن تصدر الأمر مع التعليل، مع بيان المقصد، مع الحكمة، مع الغاية، هذه طريقة تربوية تنفعنا أيضاً في تربية أولادنا، أو في إدارة أعمالنا.

عندك مؤسسة، عندك موظفون، لك أن تصدر أمرا، إذا أغفلت الحكمة منه والمقصد منه فهذا الأمر ربما لا ينفذ، أما إذا جعلت هذا الموظف صديقاً لك، عضواً في أسرة، تقنعه بهدف هذا الأمر، الأمر يختلف فالله جل جلاله أمْرُه كن فيكون، زل فيزول، ومع ذلك حينما أمرنا أعطانا المقصد الأسمى من هذا الأمر:

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا (١٠٣))

[سورة التوبة]

الصيام لعلكم تتقون، الحج لتعلموا أن الله يعلم، هكذا ينبغي أن نفعل.

أوامرُ الدين ضمان لسلامتك وليست تقييدا لحريتك:

أيها الإخوة الكرام، دائماً وأبداً البطولة أن تفهم الدين فهماً عميقاً، فإذا فهمت أوامر الدين على أنها قيود لحريتك فهذا فهم سقيم، أما إذا فهمت أوامر الدين أنها حدود لسلامتك فالفرق كبير.

قد تمشي في فلاة، فتجد لوحة كتب عليها: حقل ألغام، ممنوع التجاوز، هل تعتقد ثانية واحدة أن هذه اللوحة من أجل أن تحد من حريتك ؟ لا، أبداً، بل هي من أجل أن تضمن سلامتك فبين أن تفهم الأوامر قيودا وتضييقا وحدًّا لحريتك، وبين تفهم الأوامر ضمانا لسلامتك فرق كبير، لذلك أعظم شيء في الدين أن تكون فقيهاً، لا بمعنى أن تعرف الحُكم، بل بمعنى أن تعرف الحكمة، فلذلك هذا الأعرابي قال: يا رسول الله، عظني ولا تطل، فتلا عليه قوله تعالى:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)

حينما تفهم أوامر الله عز وجل من أجل أن تضمن لك سلامتك وسعادتك تكون فقيهاً، أما إذا ظننت أوامر الدين قيدا لحريتك وتضييقا عليك فهذا فهمٌ سقيم.

بين العلة والحكمة:

لكن أيها الإخوة الكرام، نحن في الأحكام الشرعية نهتم بالعلة، وفي فهم مقاصد الشريعة نهتم بالحكمة، وهناك فرق بين العلة والحكمة.

الإفطار في السفر بين علّته وحكمته:

مثلاً: الإفطار في السفر علته السفر فقط، أما أنت بفهمك العميق لماذا سمح الله لنا في السفر الشاق أن نفطر ؟ الحكمة هي التيسير على الأمة والتخفيف.

النبي عليه الصلاة والسلام في بعض الغزوات وكانت في رمضان أمسك قعباً من الماء، وشرب أمام أصحابه، فلما بلغه أن بعض أصحابه لم يفطروا قال: أولئك العصاة، لأن الله عز وجل سمح لنا في المشقة أن نفطر.

والآن أيها الإخوة الكرام، مرضى السكري إذا سألوا الطبيب المسلم الحاذق الورع عن صيامهم في هذا الشهر فمنعهم، ثم صاموا، ونقصت السوائل، وأصيبوا بفشل كلوي فهم عصاة بصيامهم، لأن الإنسان ملك أسرته، ملك الأمة، فلسبب سمح الله لك أن تفطر إذا كنت مريضاً.

لذلك معي إحصاء مخيف، ففي دمشق خمسمئة ألف إنسان مريض بالسكر، وهذا المرض يسمونه مرضًا صديقًا، لأنه يمكن أن تتعايش معه طول حياتك، فلابد لك من وزن رشيق، وحمية يعمل، لك نشاط، لكن يحتاج إلى ضبط، وفي بلادنا مع الأسف الشديد اثنان وسبعون بالمئة من مرضى السكر ينقلب مرضهم إلى فشل كلوي، أو إلى بتر أحد الأعضاء، أو إلى فقد البصر، أو إلى شلل لعدم الوعي فقط، وفي ألمانية من المئة مريض بمرض السكر أربعة أشخاص يتطور مرضهم إلى فشل كلوي، أو إلى بتر عضو، أو إلى فقد البصر، نحن بحاجة إلى وعي، قال تعالى:

(فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ (١٨٤))

[سورة البقرة]

مرض السكر مرض صديق يتعايش الإنسان معه طول الحياة، وبجعلك بأعلى وضع، لكن يحتاج الإنسان إلى ضبط وقياس السكر باستمرار، ومراجعة الطبيب.

أنا أقول هذا في هذه المناسبة، لأن الله عز وجل سمح لنا لمن كان مريضاً أو على سفر أن يفطر. لذلك لئلا نقع في اضطراب فإن علة الإفطار في السفر تخفيف المشقة، وهذه القضية لا تضبط معنا، فهناك إنسان شاب لا يتأثر بالسفر، وهناك إنسان لا يحتمل سفرَ ساعةٍ، لذلك السفر علة للإفطار، أما في مقاصد الشريعة فهناك الحكمة، فنحن في المقاصد نبحث عن الحكمة، وفي تطبيق أحكام الشرع نبحث عن العلة.

هناك أوامر تعبدية لا نفهم حكمتها:

أيها الإخوة الكرام، لكن هناك أوامر قد لا نفهم حكمتها، قال بعضهم: هي أوامر تعبدية من أجل أن يمتحن الله عبوديتك له.

أمَرَ الأبُ ابنَه أن ينظف أسنانه، هذا أمرٌ واضح، وأمرَه أن يدرس، وأن ينام باكراً، أما حين جلوسه إلى الطعام يقول له: لا تأكل، الأدب العالي الذي يتمتع به الابن أمام أبيه يجعله ينصاع لهذا الأمر، هناك أوامر ربما لا نفهم حكمتها، لكن بدافع عبوديتنا لله، وثقتنا به، ومحبتنا له نلتزم، لذلك قالوا: علة أي أمرٍ أنه أمرٌ.

مِن هنا عالم من علماء دمشق جزاه الله خيراً سافر إلى بلد بعيد، والتقى مع إنسان من هذه البلاد أسلم حديثاً، ودار بينهما موضوع عن مضار لحم الخنزير، وهذا العالم الدمشقي أفاض ساعة أو أكثر في الحديث عن مضار لحم الخنزير، فما كان من هذا الذي أسلم حديثاً إلا أن قال له: كان يكفيك أن تقول لي:: إن الله حرمه "، فكلما ارتقى إيمانك لا تبحث عن العلة، علة الأمر أنه أمر. أنت مع طبيب قلب يحمل أعلى شهادة له سمعة عالية جداً، قال لك: لا تأكل هذا الطعام، هل تجرؤ على أن تسأله لماذا ؟ أو تفكر أن تناقشه في هذا من ثقتك فيه ؟

نا أقول لكم: نحن المؤمنين نفهم أن علة أيّ أمرٍ أنه أمرٌ.

ترتيبُ مقاصد الشريعة:

بالمناسبة أيها الإخوة الكرام، العلماء بحثوا في مقاصد الشريعة، فرتبوها على النحو التالي:

المقصد الأول: حفظُ الدين:

أول مقصد من مقاصد الشريعة: حفظ الدين، والصلاة لحفظ الدين.

عندك هاتف محمول، يحتاج إلى شحن، فإن لم تشحنه تنطفئ الشاشة، ويصمت الهاتف، أليس كذلك؟ فالصلاة شحنة يومية، وصلاة الجمعة أطول، ففيها خطبة هي شحنة أسبوعية، والصيام شحنة ثلاثين يوما، الخطبة ساعة مع الصلاة، أما الصيام فثلاثون يومًا، والحج فيه سفر، وفيه

تفرغ، وفيه مناسك، وفيه إنفاق مال، والحج شحنة العمر، وصلاة تشحن بها من صلاة إلى صلاة، وصلاة جمعة تشحن بها من أسبوع إلى أسبوع، وصيام شهر تشحن به من سنة إلى سنة، وفريضة الحج التي هي شحنة العمر، لذلك أول مقصد من مقاصد الشريعة حفظ الدين، والجهاد من أجل حفظ الدين، والعبادات من أجل حفظ الدين.

المقصد الثاني: حفظ النفس:

المقصد الثاني: حفظ النفس، قال تعالى:

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ (١٧٩))

[سورة البقرة]

حينما يُقتل القاتلُ فلكي نردع إنساناً آخر يفكر في القتل، والعرب في الجاهلية قالوا: القتل أنفى للقتل، لكن القرآن يقول:

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ (١٧٩))

[سورة البقرة]

مرة دخلت إلى محكمة الجنايات من باب الاطلاع، فرأيت لوحة خلف القاضي بخط كبير جداً يقرأه المذنبون في القفص:

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ (١٧٩))

[سورة البقرة]

وقرأت لوحة بخط كبير فوق رؤوس المذنبين يقرأها القاضي:

(وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ (٥٨))

[سورة النساء]

فهما آيتان: آية للقاضي وآية للمذنبين.

المقصد الثالث: حفظ العِرض:

أيها الإخوة الكرام، من مقاصد الشريعة حفظ العرض، فلذلك كان حد الزنا حفظًا للعرض، والمقاصد عليها حدود، فمن يعتدي على الدين فله عقاب أليم، ومن يعتدي على النفس بالقتل يُقتل، ومن يعتدي على العرض إن كان محصَنًا يرجم، وإن كان غير محصن يجلد.

المقصد الرابع: حفظ المال:

ثم الحفاظ على المال، لذلك كان حد السرقة، فبين الحفاظ على الدين والحياة و العرض والمال، هذه المقاصد مرتبة، لكن دائماً مرتبة ترتيبا تصاعديا، فتبدأ بالمال، والعرض، والنفس، والدين، ويمكن أن تضحي بالأدنى من أجل الأعلى، فالإنسان في الجهاد قد يضحي بحياته من أجل الدين.

الحاجات والتحسينات:

هناك حاجات وتحسينات، الحاجات للتوسعة والتيسير والتحسينات للتزيين، فدائماً نضحي بالتحسين من أجل الحاجة، وبالحاجة من أجل الضرورة، والضرورات خمس، نضحي بالأدنى من أجل الأعلى، هذه بعض ما في مقاصد الشريعة.

الخلاصة:

أيها الإخوة الكرام، نحاول في هذه السلسلة من الدروس أن نتناول عبادة عبَادة، وحكماً حكماً، ونوضح مقاصد الشريعة فيها، وهذا تلبية لحاجة عقلية أودعها الله فينا، هي الغائية في العقل، وحينما يفهم الإنسان الغاية ترتاح نفسه، فإذا كنت أباً، أو كنت معلماً، أو كنت في منصب قيادي فحاول أن تعطي الأمر مع التعليل، كما علمنا ربنا جل جلاله حينما قال:

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ (١٠٣))

[سورة التوبة]

وإذا كنت أباً أو كنت في منصب قيادي فافعل هذا أيضاً، سترى أن الذين حولك يبادرون إلى تطبيق هذا الأمر عن طيب خاطر، وعن محبة، ولكن من حيث الشيء القاطع فإن علة أيّ أمرٍ في الدين أنه أمر من الله عز وجل، وهناك كتب كثيرة أشارت إلى الحكم أو إلى المقاصد أو إلى الأسرار، فعند الإمام الغزالي أسرار الصلاة، أسرار الحج، أسرار الصيام، أسرار أو مقاصد أو حكم، تعني أن نفهم المقصد الإلهي العظيم من أداء هذا الواجب، أو أداء هذه العبادة.

أيها الإخوة الكرام، أرجو الله سبحانه وتعالى أن تكون مقاصد الشريعة عوناً لنا على أدائها أداءً وفق ما أراده الله عز وجل، وحينما نبتعد عن المقاصد نقع في متاهات كثيرة، ونقع في مرض اسمه الغرق في الجزئيات، والغرق في الجزئيات أحد سلبيات حياة المسلمين اليوم، إذْ يتقاتلون حول أشياء خلافية.

مرة في مسجد اختلف المصلون حول عدد ركعات التراويح، فهذا الخلاف انتهى إلى تصادم، فجاءت فتوى من عالم كبير بإغلاق المسجد، قال: لأن صلاة التراويح سنة، والفريضة وحدة

المسلمين، وهذا مقصد كبير، فإذا ضحينا بالفرض من أجل السنة فلا كانت هذه السنة، فحينما نعرف مقاصد الشريعة تحل مئات المشكلات في حياتنا.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٨هـ - مقاصد الشريعة - الدرس (٠٢- ٢٧) : كلمة التوحيد -لا إله إلا الله محمد رسول الله

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٧-٠٩-١٤

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة التوحيد: (لا إله إلا الله محمد رسول الله):

١ – ليس هذا هو الإيمان المطلوب:

أيها الإخوة الكرام، مع درس جديد من دروس مقاصد الشريعة، نبدأ بكلمة التوحيد: (لا إله إلا الله محمد رسول الله)

أولاً: ليس الإيمان بالله الذي يدفعك إلى طاعته هو أن تؤمن أن الله خالق السماوات والأرض، هذا الإيمان قدر مشترك بين كل الخلق، حتى إن الوثنيون يعتقدون ذلك:

(مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى (٣))

[سورة الزمر]

حتى إبليس قال:

(قَالَ فَبِعِزَّتِكَ (٨٢))

[سورة ص]

(خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (١٢))

[سورة الأعراف]

(أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤))

[سورة الأعراف]

إذاً: ليس الإيمان المطلوب الذي ورد في القرآن الكريم أن تؤمن أن الله خالق السماوات والأرض فقط.

٢ – هذا هو الإيمان المطلوب:

بل المطلوب أن تؤمن أن الله هو المسير، وهو المتصرف، قال تعالى:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ (١٢٣))

[سورة هود]

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢))

[سورة الزمر]

(لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (٦٣))

[سورة الزمر]

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا (٢٦))

[سورة الكهف]

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ (٨٤))

[سورة الزخرف]

هو وحده المتصرف، وإليه يرجع الأمر كله، هو وحده المعطي، فإذا أعطاك فلا يستطيع أحد في الأرض أن يمنعك، وإذا منعك فلا يمكن أن يعطيك أحد، وإذا أكرمك فليس على وجه الأرض مَن يجرؤ أن ينال منك، وإذا أهانك الله عز وجل فليس لك من مكرم، هو المعز المذل، هو المعطي المانع، هو النافع الضار، هو الرافع الخافض، هذا هو التوحيد، ألاّ ترَى مع الله أحداً، أن ترى أن يد الله تعمل وحدها.

هذا الكلام ملخصه (لا إله إلا الله)، فلا مسير إلا الله، لا متصرف إلا الله، لا فعال إلا الله، لا معطي إلا الله، لا مانع إلا الله، لا معز إلا الله، لا مذل إلا الله، لا مانع إلا الله، لا رافع إلا الله، لا خافض إلا الله.

التوحيد فكرًا سهل جدا، والمشكلة في حقيقته:

هذا كفكرة سهلة جداً، أما أن تعيشها فشيء آخر، والآية أن تفهمها شيء، وأن تعيشها شيء آخر. مثلاً: حينما تفتح كتاب الله عز وجل وتقرأ:

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١))

[سورة الأحزاب]

الآية واضحة، ولا تحتاج إلى تفسير، وأي إنسان يقرؤها فيفهمها، لكن حينما تكون ذا دخل محدود، وأنت مؤمن بالله، ومستقيم على أمره، وتعاني من ضائقة مادية، ولك صديق متفلت فاسد العقيدة، غارق في شهواته، ولكنه يملك الملايين، لمجرد أن تقول: يا ليتني مثل فلان، فالآية التي قرأتها، وفهمتها لا تعيشها إطلاقاً، لذلك من أوتي القرآن فظن أن أحداً أوتي خيراً منه فقد حقر ما عظّمه الله، قال تعالى:

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (١١٣))

[سورة النساء]

حينما ترى أن العلم الذي أكرمك الله به هو أعظم فضل تفضل الله به عليك فعندئذ تعيش الآية، والبطولة لا أن تقرأها، ولا أن تفهمها، ولا أن تشرحها، ولا أن تتفنن في شرحها، لكن البطولة أن تعيشها، فالتوحيد كفكرة سهل جداً، أما الحقيقة فأمامك إنسان قوي يتوعدك، قال تعالى:

(قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١))

[سورة الشعراء]

انتهى الأمر، البحر أمامنا، والعدو وراءنا بجيشه، بقوته، بحقده، بطغيانه، النجاة انعدمت، قال تعالى:

(قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢))

[سورة الشعراء]

نبي كريم التقمه الحوت، والحوت وجبته المعتدلة أربعة أطنان، فالإنسان لقمة واحدة دخل إلى بطن الحوت، قال تعالى:

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧))

[سورة الأنبياء]

في ظلمة الليل، وفي ظلمة البحر، وفي ظلمة بطن الحوت:

(أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨))

[سورة الأنبياء]

حقيقة التوحيد:

التوحيد ألاّ ترى مع الله أحدا، التوحيد أن ترى كل الأقوياء دمى يحركها الله عز وجل، لذلك أبلغ آية تؤكد هذا المعنى أن أحد أنبياء الله قال:

(فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آَخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٦))

[سورة هود]

التوحيد علاقتك مع الله وحدك، التوحيد ألا تعتمد إلا على الله، ألا تلجأ إلا إلى الله، ألا تشكو بثك وحزنك إلا إلى الله، ألاّ تثق إلا بالله، النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ، وَلَكِنْ أَخِي وَصَاحِبِي))

[البخاري]

التوحيد يملأ القلب طمأنينة يصعب وصفها، التوحيد ترى أن الله خالق كل شيء، وهو على كل شيء وكيل، وحوش مخيفة أقوياء بطاشون حاقدون، ولكنهم بيد الله، وحوش مربوطة بأزمة محكمة بيد جهة عادلة رحيمة، علاقتك ليست مع الوحوش، ولكن مع من يملك الوحوش، فإن رضي عنك أبعدها عنك، وإن أراد أن يؤدبك أرخى لأحدها الزمام فوصل إليك، هذا هو التوحيد.

التوحيد قمة السعادة، لماذا أمرك الله أن توحده ؟ من أجل ألاّ تخاف، قال تعالى:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١))

[سورة المعارج]

شديد الجزع، شديد الخوف، ينهار بأقل الأخبار، إلا المصلين، المصلي يثق بالله، حسبنا الله ونعم الوكيل.

لماذا التوحيد ؟

أيها الإخوة الكرام، لماذا التوحيد من أجل ألاّ تخاف، لأنك في خوف الفقر في فقر، ومِن خوف المرض في مرض، وتوقع المصيبة مصيبة أكبر منها، التوحيد من أجل ألا تخاف.

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢))

[سورة المعارج]

المصلي لا يخاف إلا من الله، التوحيد من أجل ألا تنافق، لماذا ينافق المنافق ؟ لأنه يخاف، لأنه يرى أن مصيره بيد هذا القوي، من ضعف توحيده ينافق له.

التوحيد من أجل ألا تتملق أحداً، التوحيد يلغى الخوف، التوحيد يلغى النفاق، التوحيد يلغى التملق.

التوحيد فحوى دعوة جميع الأنبياء:

أيها الإخوة الكرام، مرة ثانية التوحيد فحوى دعوة الأنبياء جميعاً، والرسالات السماوية بمجملها ملخصة بكلمات، قال تعالى:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥))

[سورة الأنبياء]

الملخص:

ملخص الملخص:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

١ – كلمة التوحيد عقيدة وسلوك:

لا إله إلا أنا العقيدة، (فَاعْبُدُونِ) السلوك، لا إله إلا أنا هو المنطلق النظري بالمصطلح الحديث، العبادة التطبيق العملي، لا إله إلا أنا في عقلك وفي قلبك، (فَاعْبُدُونِ) في جوارحك، هذا هو التوحيد، التوحيد أن علاقتك مع جهة واحدة، من جعل الهموم هماً واحداً كفاه الله الهموم كلها.

اعمل لوجه واحد يكفك الوجوه كلها.

٢ – الصدق من لوازم التوحيد:

سيدنا كعب حينما تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أنا أوتيت جدلاً، فهو يتمتع بقدرة خاصة اسمها القدرة على الإقناع، فتخلف عن النبي، فلما عاد النبي إلى المدينة قال: حملني بثي وحزني، تألم، ماذا يفعل ؟ أيكذب عليه ؟ قال: أنا أوتيت جدلاً، أستطيع أن أخرج من سخطه، ولكنه موحد، قال: ولكنني أخشى إن خرجت من سخطه أن يسخطه الله علي، هذا التوحيد، رأى أن الله عز وجل على كل شيء قدير، من أرضى الناس بسخط الله سخط الله عنه، وأسخط عنه الناس، ومن أسخط الناس برضى الله رضي الله عنه، وأرضى عنه الناس، قبل أن يأتي سيدنا كعب على النبي عليه الصلاة والسلام سبقه ثمانون منافقاً متخلفاً عن رسول الله، وكل منافق أدلى بحجة وباعتذار، وبالتعبير المعاصر سيناريو متقن جداً، النبي دعا لهم، وقبل أعذارهم، فلما جاء كعب قال: والله يا رسول الله ما كنت في وقت من الأوقات أنشط مني يوم تخلفت عنك، لا عذر لي، فابتسم النبي عليه الصلاة والسلام من صدقه، وقال: أما هذا فقد صدق، الثمانون رجلا كاذبون، التوحيد علاقتك مع الله، التوحيد يعني:

((ما من عثرة، ولا اختلاج عرق، ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم، وما يغفر الله أكثر))

[أخرجه ابن عساكر عن البراء]

٣ – التوحيد محط التوازن النفسي:

التوحيد من أجل ألا تحقد، هذا الذي نالك بأذى سمح الله له، وإذا كان الله قد سمح له فهناك حكمة بالغة، وهناك رحمة بالغة، وهناك عدل، وأنا أستحق ذلك، ليس معنى هذا أن تقعد، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (٣٩))

[سورة الشورى]

ولكن التوحيد لئلا تحقد، ولئلا يحملك الحقد على ارتكاب عمل كبير.

ذكر إنسانا عنده محاسب، نشب خلاف بينه وبين هذا المحاسب، فأعطى المحاسب معلومات للجهات المسؤولة عن بضائع اشتراها، وليست نظامية، والقصة من عشرين سنة، فجاءت الضابطة، وضبطت هذه المخالفة، ورتبت عليه غرامة بستمئة ألف ليرة، وهذا المبلغ قي السبعينات يساوي ستة ملايين الآن، فالحقد غَلاً في نفس صاحب المتجر، وكان معه مسدس فأطلق عليه النار فأرداه قتيلاً، فحكم بالسجن عليه ثلاثين عاما، ولا يزال في السجن، هذه القصة أنا أرويها لأنه لو كان موحدا لما حقد، لو قال: هناك إله عظيم بيده كل شيء، ولحكمة بالغة سلطه علي.

راجع نفسك، الموحد يأخذ حقه، ولا يقبل بالضيم، والموحد ينتصر، ولكن لا يحقد، لئلا تحقد، لئلا يحملك حقدك على عمل خطير فأنت موحد، قال تعالى:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ (١٢٣))

[سورة هود]

الموحد إذا قرأ الحديث القدسي:

((يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ))

[مسلم عن أبي ذر]

الموحد يتهم نفسه دائماً، لا يخاف، ولا ينافق، ولا يتملق، ولا يداهن، ويعتقد أن كلمة الحق لا تقطع رزقاً، ولا تقرب أجلاً، الموحد عزيز النفس، الموحد رقم صعب، لا يباع، ولا يشترى، ولا يساوم، وما عنده أنصاف حلول، الموحد يرى أن الله بيده كل شيء.

هناك عالم كبير من علماء العصر العباسي جاء خليفة المسلمين إلى مكة المكرمة، فطلب عالما ليلتقي به لينتفع منه، فذهبوا إليه، وقالوا: الأمير يطلبك، قال: قولوا له: يا هارون، العلم يؤتى ولا يأتي، قال: صدق، نأتيه، فقال: قولوا له: إذا أتى ينبغي أن لا يتخطى الرقاب، وأن يجلس حيث ينتهي به المجلس، قال: صدق، فلما أتى مجلسه وضعوا له كرسيا فقال: من تواضع لله رفعه، ومن تكبر وضعه، قال: خذوا عني هذا الكرسي، وجلس على الأرض، ما تضعضع.

هناك إنسان يختل توازنه إذا كانت له مكانة ودخل المسجد ولم يحترم.

٤ – التوحيد مصدر العز والكرامة:

قال الخليفة لأبي حنيفة: يا أبا حنيفة، لو تغشيتنا، تعال إلينا، قال: ولمَ أتغشاكم، وليس لي عندكم شيء أخافكم عليه ؟ وهل تغشاكم إلا من خافكم على شيء ؟ إنك إن أكرمتني فتنتني، وإنك إن أبعدتني أزريت بي.

قالوا للحسن البصري: يا إمام بمَ نلت هذا المقام ؟ قال: " باستغنائي عن دنيا الناس، وحاجتهم إلى علمي ".

الحسن البصري كان عند والي البصرة، هو موحد، وقد جاءه لتوه توجيه من الخليفة يزيد، هذا التوجيه لو نفذه لأغضب الله عز وجل، ولو لم ينفذه لأغضب الخليفة، وربما عزله من منصبه، فوقع في حيرة من أمره، قال له: " ماذا أفعل يا إمام " ؟ الذي سيقوله الإمام منهج لكل واحد منا، قال له: " إن الله يمنعك من يزيد، ولكن يزيد لا يمنعك من الله ".

الإمام الحسن البصري أدى واجب العلم فبين، وكان في عهد الحجاج، فلما بلغ الحجاج ما قاله الحسن البصري غضب غضباً شديداً، وقال: والله يا جبناء لأروينكم من دمه، الحسن البصري موحد، وأمر بقتله، وجاء بالسياف، ومد النطع، وانتهى كل شيء، وبقي التنفيذ، وقال: ائتوني به، فلما دخل على الحجاج حرك شفتيه، ولم يفهم أحد ماذا قال، فإذا بالحجاج يقف له، ويقول له: أهلاً بأبي سعيد، أنت سيد العلماء، وما زال يقربه إليه حتى أجلسه على سريره، وأكرمه، واستفتاه، وعطره، وشيعه إلى باب القصر، الذي صعق هو الحاجب والسياف، تبعه الحاجب، قال: يا أبا سعيد، لقد جيء بك لغير ما فعل بك، فماذا قلت لربك ؟ قال: قلت له: يا ملاذي عند كربتي، يا مؤنسي عند وحشتي، اجعل نقمته علي كما جعلت النار برداً وسلاماً على إبراهيم.

وما من واحد من إخوتنا الكرام إلا وقد مر بتجربة، إنه وقف موقفاً مشرفاً، وقف موقفاً منصفاً، كان صادقاً، لم يكذب، لم ينافق، والله عز وجل رفع شأنه، وأعلى قدره، الأمر بيد الله عز وجل.
أحياناً يقع المسلمون في إحباط، أو في يأس، أو في قنوط حينما يرون أعداءهم أقوياء جداً، ويتفننون في إيقاع الأذى بهم، أحياناً بظروف طارئة واستثنائية قلة قليلة تتحدى أكبر جيش في المنطقة، وينهزم الجيش، لماذا فعل الله ذلك ؟ لنستعيد الثقة بالله عز وجل، الأمر بيدي يا عبادي، كونوا معي أكن معكم.

عبدي، كن لي كما أريد أكن لك كما تريد، عبدي، كن لي كما أريد، ولا تعلمني بما يصلحك، أنت تريد، وأنا أريد، فإذا سلمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد.

ما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، التوحيد يجعلك بطلاً، يجعلك مقداماً، يجعلك جريئاً، يجعلك صادقاً، يجعلك رقماً صعباً، لا مساومة، ولا يباع، ولا يشترى، ولا يهادن، المؤمن موحد، لذلك التوحيد هو الإيمان، وما سوى التوحيد ليس إيماناً، بل هو ضعف شديد.

٥ ـ كل الذنوب قابلة للمغفرة إلا الشرك:

لماذا لا يغفر الله أن يشرك به ؟

هذا مثل أضربه كثيراً، إنسان له مبلغ ضخم بحلب، وركب قطار حلب، إذا كان موحدا الآن يتجه إلى حلب ليأخذ المبلغ الضخم، لكن وقع في أخطاء كثيرة، ركب في جهة فيها شباب ليسوا على ما ينبغي، فأزعجوه طول الطريق، هذا خطأ، هناك خطأ ثان ارتكبه، معه بطاقة للدرجة الأولى فركب في درجة ثالثة، فخسر الفرق بينهما، وهناك خطأ ثالث، يتلوى من الجوع، وفي القطار مطعم، لا يعلم ذلك، هناك خطأ رابع ارتكبه، أنه جلس بعكس اتجاه القطار فأصيب بالدوار، مع كل هذه الأخطاء القطار باتجاه حلب، وسوف يصل في الوقت المناسب، وسوف يأخذ المبلغ، هذا التوحيد، معه أخطاء، أما الشرك فأن يتجه إلى مدينة درعا، إذا اتجهت إلى ضعيف فالضعيف مثلك لا يملك لك شيئاً، الشرك أن تتجه إلى غير الله، أن تتجه إلى مخلوق، أن تتعلق بمخلوق، أن تلقي الأمل على مخلوق، أن تجعل هذا المخلوق مرجعاً لك، فلذلك التوحيد ألاّ ترى مع الله أحدا، أن تتوجه إلى الله، أن تنتفي عن الموحد آلاف الأمراض، وأهم هذه الأمراض العذاب النفسي، قال تعالى:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آَخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (٢١٣))

[سورة الشعراء]

والحمد لله رب العالمين

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٧-٠٩-٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

مقاصد الدين: الصلاة:

١ – الصلاة فرض لا يسقط بحال:

أيها الإخوة الكرام، مع درس جديد من دروس مقاصد الشريعة، وننتقل اليوم إلى الفريضة الأولى الصلاة، إلى الفرض المتكرر الذي لا يسقط بحال، الحج يسقط عن الفقير والمريض، والصيام يسقط عن المسافر والمريض، والزكاة تسقط عن الفقير، والنطق بالشهادة مرة واحدة، أما الفرض المتكرر الذي لا يسقط بحال، فهو فرض الصلاة.

٢ – الصلاة شطرُ الدين:

ويمكن أن تقول: إن الصلاة شطر الدين، أي نصف الدين، استنباطاً من قوله تعالى:

(وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ (٣١))

(سورة مريم)

الإنسان كائن متحرك، له حركة إلى الله صلاة، وله حركة إلى الخلق إحساناً، فكأن هذه الآية ضغطت الدين كله في كلمتين:

(وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١))

(سورة مريم)

الفرق بين الطقوس في الأديان الوضعية والعبادات في الإسلام:

لا بد أيها الإخوة من توضيح الفرق الكبير بين الطقوس في الأديان الوضعية والعبادات في الإسلام، الطقوس حركات وسكنات وإيماءات وتمتمات لا معنى لها إطلاقاً، بينما العبادات في الإسلام كما قال الإمام الشافعي فهي معللة بمصالح الخلق، والله عز وجل هو الخالق، هو المربي،

هو المسير، هو الذي إذا أراد شيئاً أن يقول له: كن فيكون، وكان من الممكن أن يقول لك: صل، شأن أي رتبة عسكرية في قطعة عسكرية، يعطي الأمر فقط، والآمر ليس مضطراً أن يبين الحكمة، لكن خالق السماوات والأرض حينما أمرنا أعطانا الحكمة، قال تعالى:

(إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ (٤٥))

(سورة العنكبوت)

تنهى عن الفحشاء والمنكر.

أيها الإخوة الكرام، لو أن مؤسسة عملاقة، وعلى رأسها مدير يحمل أعلى شهادة أعطى أمر للموظفين أن يقوموا بحركات وسكنات وتمتمات لا معنى لها إطلاقاً، ولا ثمرة لها، ألا نشك في عقل هذا المدير ؟ قف ودُر أربع دورات، لماذا ؟ هكذا بلا سبب، بلا حكمة، بلا غاية، بلا فهم، بلا قصد، هل ترضى من إنسان مخلوق أن يعطي أمراً شكلياً لا يقدم ولا يؤخر، ولا علاقة له بالسلوك، ولا بالإنتاج من مدير مؤسسة، ولا علاقة له بالسلوك، ولا بالخبرة، ولا بالإنتاج، ولا بتحسين العمل، ولا بتسريع العمل، أمر لا معنى له، عندئذ تشك في عقل هذا الذي يقع على رأس هذه المؤسسة، خالق السماوات والأرض يأمر المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها أن يصلوا في اليوم خمس مرات، وليس هناك أي علاقة بين الصلاة والسلوك عند المسلمين اليوم، فقد يصلي أحدُهم ويكذب ! يصلي ويغش المسلمين ! حينما فرغت الصلاة من مضمونها أصبحنا كما ترون، لذلك قال تعالى:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ (٥٩))

(سورة مريم)

معنى إضاعة الصلاة:

أجمع العلماء على أن إضاعة الصلاة لا تعني تركها أبداً، بل تعني تفريغها من مضمونها، أجمع العلماء بناء على قوله تعالى:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (٥٩))

(سورة مريم)

وقد لقي المسلمين ذلك الغي، هناك شاهد أقوى، قال تعالى:

(إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ (٥٤))

(سورة التوبة)

نتابع الآية:

(وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى)

(سورة التوبة:٥٣)

لذلك الوضع الإسلامي اليوم وضعٌ سيئ، مجتمع فيه انحراف، فيه تقصير، فيه عدوان، فيه غش، فيه ابتزاز أموال، فيه كبر، فيه خيانة، فيه كذب، فيه دجل، فيه نفاق، والصلاة قائمة، ليست هذه العبادة التي أرادها الله، قال تعالى:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (٥٩))

(سورة مريم)

وقد لقينا ذلك الغي.

لذلك أيها الإخوة، الصلاة عماد الدين، وغرة الطاعات، ومعراج المؤمن إلى رب الأرض والسماوات، وأول ما يحاسب المرء يوم القيامة عن صلاته، فإن صحت سلم ونجا، وإلا خاب وخسر.

ليست هذه هي الصلاة المطلوبة شرعًا:

يا أيها الإخوة، الصلاة إذاً لا يمكن أن تكون كهذه الصلاة التي نراها عند الناس، لا أي علاقة بين صلاته وأكله المال الحرام، بين صلاته وغش المسلمين ،

والله بلغني أن إنسانا حرفته أن يبيع أقراصا مدمجة إباحية، ويقيم الصلاة في المسجد، كيف يتوازن؟ يبيع أقراصا مدمجة يمكن أن تفسد أسرا وشبابا، يمكن أن تحملهم على أن ينحرفوا، أو على أن يرتكبوا الفواحش، وأنت تصلي ! أخطر شيء في حياتنا حينما فصلت العبادات عن المعاملات، يقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا، فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُورًا، قَالَ ثَوْبَانُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، صِفْهُمْ لَنَا، جَلِّهِمْ لَنَا أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ، وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ، قَالَ: أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ، وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ، وَيَأْخُذُونَ مِنْ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا))

[ابن ماجه]

لا قيمة لصلاتهم.

هناك حديث هو الأصل في هذا الدرس، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((أَتَدْرُونَ مَنْ الْمُفْلِسُ ؟ قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ لَا لَهُ دِرْهَمَ وَلَا دِينَارَ وَلَا مَتَاعَ، قَالَ: الْمُفْلِسُ مِنْ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ يَأْتِي بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ عِرْضَ هَذَا، وَقَذَفَ

هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُقْعَدُ فَيَقْتَصُّ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ))

[مسلم، الترمذي]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:

((قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ فُلَانَةَ يُذْكَرُ مِنْ كَثْرَةِ صَلَاتِهَا وَصِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا، غَيْرَ أَنَّهَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا، قَالَ: هِيَ فِي النَّارِ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَإِنَّ فُلَانَةَ يُذْكَرُ مِنْ قِلَّةِ صِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا وَصَلَاتِهَا، وَإِنَّهَا تَصَدَّقُ بِالْأَثْوَارِ مِنْ الْأَقِطِ، وَلَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا، قَالَ: هِيَ فِي الْجَنَّةِ))

[أحمد]

نحن أمام نصوص في الصحاح، ونصوص من كتاب الله، قال تعالى:

(إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ(٥٤))

يا أيها الإخوة، تأكدوا يقيناً أن الإنسان الذي يأكل المال الحرام، ويغش المسلمين، ويكذب، ويعتدي على حرماتهم، ويصلي، تأكدوا أن هذه الصلاة التي يؤديها ليست هي الصلاة التي أرادها الله. ليس كل مصلٍّ يصلي، مليار وخمسمئة مليون مسلم يصلون، وليست كلمتهم هي العليا، وليس أمرهم بيدهم، وللطرف الآخر عليهم ألف سبيل وسبيل، كيف يقول الله عز وجل:

(وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا (١٤١))

(سورة النساء)

لهم على المسلمين ألف سبيل وسبيل.

يا أيها الإخوة الكرام، الصلاة التي أرادها الله شيء آخر، وهي إحدى أكبر سعادتك،

((يَا بِلَالُ، أَقِمْ الصَّلَاةَ، أَرِحْنَا بِهَا))

[أبو داود عن سالم بن أبي الجعد]

من فوائد الصلاة:

الصلاة مِن أكبر أسباب رؤيتك الصحيحة، الصلاة نور، وهي من أكبر أسباب طهارة نفسك، الصلاة طهور، وهي نور، و هي حبور، والصلاة ميزان، من القلب إلى القلب.

لا سمح الله ولا قدر حينما تأكل مالاً حراماً حاسب نفسك، أتستطيع في الصلاة أن تخشع ؟ أو أن تتصل بالله ؟ أو أن تناجي ربك ؟ تؤدي صلاة شكلية لا معنى لها إطلاقاً، لأن الذنب حجبك عن الله عز وجل، فلابد أن تضع يديك على هذه الحقيقة ؛ أن الذنب يحجب عن الله، لذلك من معاني إقامة

الصلاة أنه بين الصلاتين ينبغي أن تكون مستقيماً على أمر الله، وقافاً عند حدوده، مؤدياً ما عليك، تكف نفسك عما لا يجوز.

حقيقة الصلاة أن تستقيم بين الصلاتين، حتى إذا دخل وقت الصلاة فأنت مستعد للاتصال بالله، وما مِن إنسان على وجه الأرض يرتكب غلطا أو ذنبا، أو يأكل ما ليس له، أو يفتري، أو يغش، أو يدلس، أو يحتال، أو يكذب، وبإمكانه أن يصلي، بإمكانه أن يتوضأ، بإمكانه أن يقف منتصب القامة، بإمكانه أن يكبر تكبيرة الإحرام، وأن يقرأ الدعاء، ثم الفاتحة، ثم سورة، ويركع مطمئناً، ويسجد، لكن التحدي أن تتصل بالله، يمكن أن تقوم بحركات الصلاة، وأن تقول ما ينبغي أن يقال في الصلاة، لكن لن تستطيع أن تتصل بالله، هذه أكبر حقيقة في هذا الدرس، لذلك:

(إِنَّ الصَّلَاةَ (٤٥))

(سورة العنكبوت)

(إن) حرف مشبه بالفعل يفيد التوكيد.

(إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى (٤٥))

(سورة العنكبوت)

نهي ذاتي، نهي داخلي، لأن القوانين تنهى، لكن لو انقطعت الكهرباء في مدينة في بلد تحكمه القوانين فقط لكانت الكارثة، وفي إحدى المرات قطعت الكهرباء في بلد تحكمه القوانين فقط فارتكبت في ليلة واحدة مئتا ألف سرقة بثلاثة مليارات دولار، الصلاة تنهى نهيا داخليا.

بين الوازع والرادع:

هذا يقودنا إلى موضوع دقيق، الوازع والرادع، أنظمة الأرض تقوم على الرادع الخارجي، هناك سرعات زائدة بالسيارات، فاخترعوا جهازا يوضع على الطرقات العامة، فأيّة سيارة ترفع سرعتها تضبط بمخالفة، واضع هذا القانون إنسان ذكي، واخترع جهازا يكشف السرعات الزائدة، والمواطن إنسان ذكي أيضاً، اخترع جهازا في السيارة، فإذا اقترب من الجهاز الكاشف نبهك فتنزل السرعة، وقد كنت في أمريكة بسيارة فسمعت صوتا لم يكن، سألت عن هذا الصوت، فقال لي صديقي: هناك جهاز مراقبة سرعة بعد قليل، فخفض السرعة، فواضع القانون ذكي، والمواطن أذكى، لذلك فرغت القوانين من مضامينها

ذلك الأعرابي الذي كان يرعى غنماً التقى به سيدنا ابن عمر، قال له: بعني هذه الشاة، وخذ ثمنها، يقول له الراعي: ليست لي، يقول: قل لصاحبها: ماتت، أو أكلها الذئب، يقول الراعي: ليست لي، يقول له: خذ ثمنها، يقول له الراعي: والله إنني لفي أشد الحاجة إلى ثمنها، ولو قلت لصاحبها:

ماتت، أو أكلها الذئب لصدقني، فإني عنده صادق أمين، ولكن أين الله ؟ أعظم ما في الدين أنه يقوم على الوازع الداخلي.

والله في هذه البلدة الطيبة سائق وجد في مركبته كيسا أسود فيه عشرون مليون ليرة، القصة طويلة، صاحب هذه المركبة مؤمن مستقيم، بقي أربعة أيام يبحث عن صاحب هذا المبلغ، يحوم حول مكان ركوبه في المركبة، إلى أن عثر عليه بعد أربعة أيام، وأعطاه المبلغ، هذا الإيمان، من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يقطف من ثمار الصلاة شيئًا، فلذلك الحديث القدسي: ليس كل مصلٍ يصلي، لو أن كل مصل يصلي لكنا في قمة المجتمعات الدولية، لكنا قادة الأمم، قال تعالى:

(وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا (١٤١))

(سورة النساء)

أيها الإخوة الكرام، قال تعالى:

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى (٤٥))

(سورة العنكبوت)

هنا الوازع، أعظم ما في هذا الدين أن الصلاة تنهى نهياً ذاتياً عن الفحشاء والمنكر، ولذكر الله أكبر، أي أكبر ما في الصلاة ذكر الله، والدليل:

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (١٤))

(سورة طه)

الصلاة ذكرٌ:

الصلاة ذكر، لكن بعضهم قال: إنك إذا صليت تذكر الله، لكن الله يذكرك، قال تعالى:

(فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ (١٥٢))

(سورة البقرة)

إنك إن اتصلت بالله فقد ذكرته، فإذا ذكرته ذكرك، أما إذا ذكرك منحك نعماً لا تقدر بثمن، منحك نعمة الأمن، منحك نعمة الأمان، منحك الرضى، منحك الحكمة، منحك التفاؤل، منحك قوة الشخصية، منحك التماسك.

أيها الإخوة، قال تعالى:

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ (٤٥))

(سورة العنكبوت)

الصلاة عقلٌ:

وقد ورد في بعض الآثار:

((ليس للمرء من صلاته إلا ما عقل منها))

[ورد في الأثر]

الدليل:

(لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ (٤٣))

(سورة النساء)

إذاً: من هذه الآية يستنبط أنك إذا صليت وقلت:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ(٧))

(سورة الفاتحة)

أنت سألته: اهدنا الصراط المستقيم، فيأتي الجواب:

(وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ (٥٣))

(سورة الإسراء)

حقيقة الصلاة أن تسأله أن يهديك إلى الصراط المستقيم، وتقرأ الآية التي فيها الصراط المستقيم، وتركع خضوعاً، وتسجد استعانة، ولكل صلاة حظها من الركوع والسجود، سألت الله عز وجل أن يهديك الصراط المستقيم، فتلوت آية هي كلام الله عز وجل ، وقد قيل: إذا أردت أن تناجي ربك فادعه، لأن الدعاء مناجاة، وإذا أردت أن يناجيك الله فصلِّ، حينما تقرأ صفحة من كتاب الله كأن الله يناجيك.

أيها الإخوة الكرام، قضية الصلاة هي المركز الأول، وهي الفرض الوحيد المتكرر الذي لا يسقط بحال، والصلاة عقل، والصلاة ذكر، والصلاة قرب، واسجد واقترب، والصلاة نور، والصلاة طهور، والصلاة حبور رؤية صحيحة مع تزكية نفس مع سعادة، مع عقل، مع قرب، مع ذكر.

أيها الإخوة الكرام، يقول عليه الصلاة والسلام:

((أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهَرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسًا مَا تَقُولُ ذَلِكَ يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ ؟ قَالُوا: لَا يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ شَيْئًا، قَالَ: فَذَلِكَ مِثْلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا))

[متفق عليه]

بشكل دقيق جداً الصلاة تماماً كالشحن للهاتف المحمول، إن لم تشحنه انطفأت الشاشة، وسكت، وانتهى كهاتف، وأنت كإنسان إن لم تشحن نفسك شحنات يومية بالصلاة تفقد النور، تفقد طلاقة اللسان، تفقد الحكمة، تفقد الأمن وتدخل في القلق، والخوف، والحمق أحياناً، أنت بالصلاة تكون حكيماً، وبالصلاة تكون حليماً، والقصة كلها أن مكارم الأخلاق مخزونة عند الله تعالى، فإذا أحب الله عبداً منحه خلقاً حسناً، هناك دليل قوي جداً:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ (١٥٩))

(سورة آل عمران)

هذه الباء باء السبب، أي بسبب رحمة استقرت بقلبك يا محمد عن طريق اتصالك بنا لنت لهم، فهناك اتصال ورحمة، الرحمة انعكست ليناً، فلما كنت ليناً لهم التفوا حولك، ولو كنت مقطوعاً عنا لامتلأ القلب قسوة، ولانعكست القسوة غلظة وفظاظة، فانفضوا من حولك، هذه معادلة رياضية، تتصل فيمتلأ القلب رحمة، فتنعكس الرحمة ليناً، فيلتف الناس حولك، تنقطع فيمتلأ القلب قسوة، فتنعكس القسوة غلظة وفظاظة، فينفض الناس من حولك.

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ (١٥٩))

(سورة آل عمران)

أكبر علامة لمن يصلي أن قلبه رحيم، ما عنده عنف، في قلبه رحمة، رحمة على أولاده، على زوجته، على أقربائه، على جيرانه، على مَن حوله، على إخوانه، على البشر جميعاً، على المخلوقات جميعاً.

كان أحد المغنّين يقلق ويزعج أبا حنيفة النعمان ـ رحمه الله تعالى ـ وكان طوال الليل يصدح بهذه الأغنية:

أضاعوني وأي فتى أضاعوا

ثم فقد أبو حنيفة هذا الصوت، فعلم أن به مكروهاً، فبحث عنه في السجن، فذهب إلى القائم على هذا الأمر، ورجاه أن يطلق سراحه، أطلق سراحه، فأركبه خلفه على الدابة، وقال: يا فتى، هل أضعناك ؟

صدق أيها الأخ الكريم أن علامة اتصالك بالله رحمة، المؤمن كتلة رحمة، كتلة أدب، وتواضع، ومحبة، هكذا فالصلاة، ليس هناك مصلٍّ غليظ، مصل وقح، مستحيل، مصل يأكل المال الحرام، مستحيل، مصل غشاش مستحيل، مصل متكبر مستحيل، وألف ألف مستحيل، اتصلت بالله، اشتققت منه الرحمة واللطف والعدل والإنصاف والتواضع، لذلك المؤمن المتصل بالله له أثر كبير، لذلك

قالوا: حال واحد في ألف متصل خير من قول ألف في واحد، ألف متكلم فصيح اللسان، معه النص، معه التحليل، لا يؤثرون في واحد، وإنسان واحد موصول بالله يؤثر في ألف.

أيها الإخوة الكرام، هذه من مقاصد الصلاة.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٨هـ - مقاصد الشريعة - الدرس (٠٤- ٢٧) : الصيام - حكمته وعبادته ونظامه

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٧-٠٩-٢٢

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة لحكمة الصيام:

أيها الإخوة الكرام، مع درس جديد من دروس مقاصد الشريعة، والموضوع اليوم حكمة الصيام، ولا بد من مقدمة تكون إضاءة لما سيكون في هذا اللقاء.

١ ـ علّةُ أيِّ أمرٍ أنه أمرٌ:

أولاً: قال علماء الأصول: علّةُ أيِّ أمرٍ أنه أمرٌ، فيكفيك أن تلتقي بأعلى طبيب في البلدة يحمل أعلى شهادة، مشهود له بالكفاءة وبالإخلاص وبالتوفيق، يقول لك: دع المحل، قد لا تفكر أن تسأله لماذا ؟ من شدة ثقتك به، فمن علامات الإيمان أنك ترى أن كل أمر لأنه من الله فهذا كاف، قد لا تحتاج إلى أي تعليل، ولا إلى أي تفسير، ولا إلى أي حكمة، ولكن نحن كدعاة لا بد من توضيح الحِكم، فلعل المؤمن يزداد بالحكمة اقتناعاً، على كلٍّ علة أي أمر أنه أمر، هذه الحقيقة الأولى.

٢ ـ من حكمةِ المربِّي تبيينُ العلة والحكمة:

لكن ربنا عز وجل حينما أمرنا أعطانا بعض الحكم، وهذا أسلوب رائع جداً، أنت كآمر لست محتاجاً أن تعلل، افعل وكفى، لكنك كمربٍّ تقدم الأمر، وتبين حكمته.

مقاصد الصيام:

١ ـ التقوى:

يقول الله سبحانه وتعالى:

(كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣))

(سورة البقرة)

لعلكم تتقون هي حكمة الصيام.

١ – معنى: تتقون:

تتقون من فعل وقى، والوقاية لا تكون إلا من شر.

٢ – ماذا تتقون ؟


كيف أتقي غضب الله عز و جل ؟

لعلكم تتقون عقاب الله عز وجل، لعلكم تتقون غضب الله عز وجل لعلكم تتقون سخط الله عز وجل، لعلكم تتقون ضياع الآخرة وخسارة الآخرة، لعلكم تتقون الشقاء.

تتقون من وقى، كيف أتقي سخط الله ؟ بطاعته، إذاً: لعلكم تطيعون، كيف أتقي غضب الله عز وجل ؟ بالعمل وفق مرضاته، إذاً: لعلكم تستقيمون على أمره.

٢ ـ رمضان دورة سنوية مكثفة:

الآية واضحة جداً، كأن الله عز وجل في هذا الشهر، أرادنا أو أراد البعض، أو أراد الكل، أو أراد كلاً بحسب مرتبته، أن يكون رمضان قفزة نوعية في علاقته مع الله، لعلكم تتقون: أي لعلكم تستقيمون على أمر الله استقامة تامة، كيف ؟


رمضان دورة سنوية مكثفة

هذه دورة سنوية مكثفة، هذه الدورة ثلاثون يوما صلاة في المسجد، وعشرون ركعة بعد العشاء، وفي النهار غض بصر، وضبط لسان، وإنفاق مال، وتلاوة قرآن، فأنت تدربت على الطاعات، وعلى إتقان العبادات، وعلى الاتصال برب الأرض والسماوات ثلاثين يوما، لعل هذه الدورة التدريبية

تعينك على متابعة الطريق مع الله عز وجل.

لكن الحكمة الدقيقة أن الله في رمضان منعك من المباح، منعك من الطعام والشراب فأنت غير معقول إطلاقاً أن تقترف معصية في رمضان، إنك تركت المباح تركت الطعام والشراب، أيعقل أن تكذب ؟ أيعقل أن تغش المسلمين ؟ أيعقل أن تحلف يميناً كاذباً ؟ أيعقل أن تحتال على الناس ؟ مستحيل، وإلا يكون خناك خلل في توازن الإنسان.

لذلك مِن حِكم الله عز وجل في فريضة الصيام أن يكون الصيام قفزة نوعية تحملك على طاعة الله الطاعة التامة، ولعل هذه الطاعة التي حصلتها في رمضان تنسحب على كل العام، معنى ذلك أن كل رمضان قفزة، رمضان الثاني قفزة، الثالث قفزة، القفزة تتبعها استقامة، لذلك البطولة أن الذي ألِفته في رمضان من الطاعات، وضبط الشهوات، وضبط الجوارح، وضبط الدخل والإنفاق، والتلاوة، والصلوات، هذه القفزات النوعية في العبادة، وفي التقرب إلى الله ينبغي أن تستمر على كل العام، عندئذ يحقق هذا الشهر الفضيل الغاية المرجوة منه.

لكن الشيء الذي يؤلم أشد الإيلام أن معظم الناس بعد رمضان يعودون إلى ما كانوا عليه، إذاً: عندئذ لا يعد رمضان قفزة نوعية، بل يعد موجة طارئة، وعدنا إلى ما كنا عليه، هذا الذي لا يريده الله أن يكون في رمضان.

٣ ـ الصيام عبادة الإخلاص:

شيء آخر: أحياناً تكون ثقةُ الإنسان بنفسه ضعيفة، ومن رحمة الله عز وجل، ولأنه رب العالمين أحياناً يلقي في روعك أنك يا عبدي مخلص لي، لأن الصيام عبادة الإخلاص.

والله شيء لا يصدق، العالم الغربي ما يتصور مسلما جائعا عطشا دخل بيته ولا أحد يراقبه، وما من إنسان يطلع عليه، وبإمكانه أن يضع في فمه لقمة، أو أن يضع في فمه قطرة ماء، لا يقدر، لأن الصيام عبادة الإخلاص.

إن إنسانا من غير بلاد، ومن غير ثقافة جالسا مع مسلم في رمضان قال له: كل، فقال: أنا صائم، قال: أغلق الستار وكل، لا أحد يراك، أنت في رمضان تشعر بإخلاصك لله، وتكون في أشد حالات العطش، وأشد حالات الجوع، والطعام بين يديك، والماء بين يديك، مستحيل وألف ألف مستحيل أن تأكل أو تشرب.

هذا يذكرنا بأن بعض البلاد الغربية حرمت الخمر عام ألف وتسعمئة وثلاثة وثلاثين، التفاصيل قد لا تصدق، أكثر من أربع ملايين نشرة، أكثر من خمسمئة إنسان أودعوا السجن، وأربعمئة رجل أعدموا، التفصيل الآن لا أذكره بدقائقه، أما الإجراءات التي تمت، ثم أعلن فشل هذا التحريم، وعادوا، وسمحوا به، القرآن الكريم بآية واحدة تقريباً معظم المسلمين في شتى بقاع الأرض لا يشربون الخمر.

إن الله عز وجل في هذا الشهر أرادك أن تؤمن بنفسك أنك مخلص، هذه عبادة الإخلاص.

إن الله دفعك إلى أن تقفز قفزة نوعية في رمضان، ثم دفعك إلى أن تثق بنفسك، هذه عبادة الإخلاص، وما من نظام وضعي في الأرض يمنعك أن تأكل، وما من نظام وضعي يمنعك أن تنظر إلى امرأة أجنبية، فالصيام وغض البصر هاتان عبادتان يختص بهما الدين، وأي نظام آخر لا يمنعك أن تنظر إلى الحرام، فترى طبيبا عظميا مؤمنا حافظا لكتاب الله عنده رداء أبيض، وفتحة صغيرة، يضع الرداء فوق المرأة، ثم يضع الفتحة فوق الألم، ويعالجها، لأن عنده مبادئ، وهناك حالات كثيرة جداً من الضياع، لكنك تجد المسلم وقافا عند حدود الله.

إذاً: أحياناً أنت بحاجة أن تثق بنفسك، أحياناً أنت بحاجة أن تعتقد أنك مؤمن، وأن الله يحبك، وأنت مخلص، فهذا من معاني الصيام عبادة الإخلاص.

٤ ـ الصيام عبادة الافتقار:

الشيء الآخر، قال تعالى:

(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (٦) أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى (٧))

(سورة العلق)

هناك غفلة عند بعض الناس الأغنياء والأقوياء، المال بين يدي أحدهم كثير، أوامره نافذة، له مكانة إما تجارية، أو صناعية، أو له منصب رفيع، دائماً كل ربع ساعة يأتيه فنجان قهوة، وكأس شاي، وبعد ذلك عصير، ثم صحن فاكهة، لا يشعر بالجوع إطلاقاً، ولا العطش، كل حاجاته الجسمية متوافرة بأعلى مستوى، هذا الإنسان غافل عن أنه عبدٌ لله، عن أنه مفتقر إلى الطعام والشراب، الطعام والشراب متوافر، فأحياناً هذه العبادة تشعرك أنك مفتقر على الله.

أيها الإخوة الكرام، لا شك أن كل واحد منا مفتقر إلى الله، أيّ أن الإنسان عبد لله، مؤمنا كان أو غير مؤمن، مستقيما كان أو غير مستقيم، صالحا كان أو طالح، فإنه يحتاج إلى هواء، يحتاج إلى نبض، فنبض القلب أنت مفتقر إليه، وأي خلل في النبض تنتهي الحياة.

سيولة الدم أنت مفتقر إليها، فيتجمد الدم تصاب بجلطة في الدماغ، ففي مكان تصاب بشلل، وبمكان تصاب العمى، وبمكان تصاب بفقد ذاكرة.

الخلايا تنمو، فلو أن هذا النمو اضطرب لانتهت الحياة، فأنت في قبضة الله، وكلمة (أنا) لا معنى لها إطلاقاً.

أنت مفتقر فضلاً عن أن يكون نمو الخلايا طبيعياً، وفضلاً عن أن يكون الدم سائلاً، وفضلاً عن أن تكون الأوعية واسعة، وفضلاً عن أن يكون الدماغ حياً، وأن القلب ينبض، فأنت مفتقر إلى زوجة

أيضاً، فلو أن المرأة استغنت على الزوج لغنى أبويها، أو لشدة حاجتيهما إليها لكنت أغنى الناس، ولكن النساء للرجال خلقن، ولهن خلق الرجال.

أحياناً ينشأ خلاف بين أخ وزوجته، تذهب إلى بيت أهلها، يمضي أسبوع أو أكثر، إذا التقيت به وجدتَه متوترا، لأنه مفتقر إلى زوجة، وأحياناً هي تسأل أباها ما الذي حصل ؟ لأنها مفتقرة إلى زوجها، فأنت مفتقر إلى الله، ومفتقر إلى طرف آخر من أجل أن تعرف عبوديتك لله عز وجل. قد يكون لإنسان منصب رفيع، مكانة كبيرة، في م الصيف الحارة هو وعلمه الكبير، وفهمه العظيم، ومكانته الكبيرة، وأمره النافذ كل خواطره في النهار كأس عصير، كأس ماء، طعام يحبه، الله عز وجل أشعرك بعبوديتك له،.

بالمناسبة، المؤمن إحساسه بالعبودية في كل أشهر العام، لكن رمضان دورة مكثفة، أنت برمضان تعرف قيمة الطعام والشراب، في نهارِ شهر آخر الثلاجة أمامك، تشرب ماء باردًا، ومرة فنجان قهوة، ومرة كأس شاي، ومرة كأس عصير، أما في رمضان فلا تحس أنك مفتقر إلى الطعام والشراب، لذلك قال العلماء: " هناك عبد الشكر، وهناك عبد القهر "، عبد القهر أنت في قبضة الله عز وجل، وأنت مفتقر إلى الله، أما عبد الشكر وأنت في الإفطار وأنت في الأشهر العادية تشعر أنك مفتقر إلى الله عز وجل، بطولتك أن تكون مفتقراً في السراء والضراء، لكن معظم الناس في الرخاء كما قال تعالى:

(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (٦) أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى (٧))

(سورة العلق)

ينسى الله عز وجل، لكن في الشدة يقول: لا إله إلا الله، هذه مقبولة، أنت قلت هذا الكلام مقهوراً، لكن كمؤمن كبير يجب أن تقول ذلك وأنت في أعلى درجات القوة، يجب أن تقول ذلك وأنت في أعلى درجات الصحة، يجب أن تقول ذلك وأنت في أعلى درجات الغنى، هذه هي البطولة، البطولة أن تفتقر إلى الله وأنت قوي، وأنت غني، وأنت صحيح، هذا هو الإيمان، فلذلك من عرف الله في الرخاء عرفه في الشدة.

٥ ـ الصيام جوع اختياريٌّ من المسلم:

أيها الإخوة الكرام، شيء آخر، أنتم في رمضان بالتعبير النفسي تجوعون جوعاً اختيارياً، أنت اخترت أن تصوم رمضان، لأنك مسلم، وهذه فريضة ثانية، أنت جعت جوعاً اختيارياً.

مرة عالم كبير كان أستاذ رياضيات في سان فرانسيسكو، وكان ملحدا، لأن والده عنفه تعنيفا شديدا حينما انتقد أستاذ التربية المسيحية، فلما انتقد الأستاذ طرده من البيت، هذا الطرد قلبه إلى ملحد،

وهو ذكي جداً، وصار بأعلى درجات العلم، وصار أستاذ الرياضيات، ويمنح الدكتوراه بسان فرانسيسكو، هذا الإنسان جاءته فتاة شرق أوسطية تحضر الدكتوراه في الرياضيات، أرسلها إليه أستاذه لمشكلة في أطروحتها، يقول هذا الملحد: إن هذه الفتاة المحجبة حجابا كاملا، مع أن الفتيات في أمريكا شبه عرايا، قال: لا بد من أنها تملك قناعات معينة، وقال: أنا شعرت أنها قديسة، وأنها امرأة عظيمة، مع أنها لم تقل له كلمة في الإسلام، لكن بحجابها فقط، وعكف من توه على قراءة القرآن، إلى أن وصل إلى قوله تعالى:

(فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ)

(سورة هود: من الآية ٩٢)

فعدّها من أخطاء القرآن الكريم، أين فرعون ؟ وكان له صديق اسمه موريس بوكاي، رئيس المشرحة في باريس، قال له: تقول: إن الكتاب المقدس كتاب من عند الإله، لا خطأ فيه أبداً، وهو يتحدّث عن القرآن، قال: فرعون الذي ذكره الله في القرآن رممت جثته بيدي، وجاء من مصر إلى فرنسا، وأعطاه الصورة، الآن أسلم، وصار من أكبر الدعاة في أمريكا، وألّف الكتاب الثالث، وقد وصلني قبْل فترة.

شيء رائع جداً، هذا الإنسان سبب إيمانه أن امرأة محجبة مستقيمة لفتت نظره، لذلك يقول بعض ما جاء بالأثر:

((استقيموا يستقم بكم))

[الطبراني في المعاجم الثلاثة بسند صحيح]

أحيانا موقف أخلاقي واحدٌ يحدِث صدمة عند الناس، وقد يدفعك هذا الموقف إلى أن تسلم.

٦ ـ صيام رمضان مشاركة وجدانية مع المجتمع:


صيام رمضان مشاركة مع المجتمع

هذا الرجل جيفري لنك يبدو أنه في أيام الصيف الحارة كان صائماً، وتلوى من الجوع، ما تمكن أن يتابع الدوام في الجامعة، وترك الجامعة، وجاء إلى البيت ظُهرًا يتلوى من الجوع، شاهد على الشاشة المجاعات في إفريقيا، فذاق طعم الجوع، وصاح: هنا يا رب فهمت حكمة الصيام، ووضعه المادي جيد

جداً، لما رأى الجياع الفقراء في إفريقية، وهو ذاق الآن طعم الجوع الشديد وطعم العطش شعر بالصيام، فلذلك الصيام مشاركة وجدانية بينك وبين الفقراء.

واللهِ مرةً أحد إخواننا الكرام، وهو رجل ميسور الحال، في العيد استقبل عامل التنظيفات، وأكرمه، وهذا إنسان محروم من أشياء كثيرة في الحياة، فعلامة إيمانك الرحمة في قلبك.

من دون مبالغة أقول: ويل للقاسي قلبُه، وتكاد تكون أعماله كلها لا جدوى منها، قال تعالى:

(رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ (٢٢))

(سورة الزمر)

علامة إيمانك رحمتك، ترحم زوجتك، ترحم أولادك، ترحم موظفيك، أنا بحكم اطلاعي على بعض المشكلات ترى الإنسان ينفق في اليوم مئة ألف، وبحاسب موظفا يعطيه معاشا لا يكفي عشرة أيام، والموظف مقهور، فإذا نزعت الرحمة من قلوبنا استحق هذا المجتمع سخط الله عز وجل، وفي الأثر: إن أردتم رحمتي فارحموا خلقي، والراحمون يرحمهم الله.

والله أيها الإخوة، موقف رحيم يساوي ألف ركعة نافلة، موقف رحيم، موقف فيه شهامة، فيه تعاون، فيه حل مشكلة، لذلك رمضان من حكمته أنه مشاركة وجدانية مع المجتمع.

٧ ـ صيام رمضان أحد أسباب استجابة الدعاء:

شيء آخر، الصيام أحد أسباب استجابة الدعاء، لأن آية الدعاء جاءت ضمن آيات الصيام، قال تعالى:

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ (١٨٦))

(سورة البقرة)

أنت في هذا الشهر مستجاب الدعوة، وهذه نعمة كبيرة، وأنت بالدعاء أقوى إنسان، الدعاء سلاح المؤمن.

٨ ـ رمضان إلى رمضان يكفِّر ما بينهما:

شيء آخر، رمضان إلى رمضان يكفر ما بينه من الذنوب، مكفرات، ما في كبائر الذنوب الصغائر من رمضان إلى رمضان تغفر، إذاً شهر مكفر، شهر فيه دعاء مستجاب، شهر فيه مشاركة وجدانية، شهر فيه استشعار العبودية لله عز وجل، شهر الإخلاص، شهر الاستقامة التامة على أمر الله.

٩ ـ الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة:

شيء آخر، الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة، تقرأ القرآن وأنت صائم، لذلك قال بعض العلماء: إن أعلى درجة من الثواب في قراءة القرآن أن تقرأه في صلاة واقفاً، أو أن تستمع إليه وأنت في المسجد، في مسجد، وفي صلاة، وأنت واقف، إلا من كان معذوراً، وهذا متوافر في صلاة الفجر، وصلاة التراويح، والحمد لله.

١٠ ـ لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ، فأعظِمْ بهما:

شيء آخر، للصائم فرحتان، أحد هم وكان ضعيفا في اللغة قرأها: فرختان، بالخاء، فدعاه شخص إلى الإفطار، ووضع له دجاجة، قال له: أين الثانية ؟

((لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ: فَرْحَةٌ عِنْدَ فِطْرِهِ، وَفَرْحَةٌ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ))

[البخاري، مسلم]

لذلك استنبط العلماء من بعض الأحاديث أن الموت عرس المؤمن، الموت تحفة المؤمن، والدليل أن أحد الصحابة الكرام وهو سيدنا سعد بن الربيع تفقده النبي عقب غزوة أُحُدٍ فلم يره، فبعث من يسأل عنه في ساحة المعركة، فإذا هو بين الموتى، لكن لم يمت بعد، قال له الرجل: يا سعد، لقد بعثني إليك النبي عليه الصلاة والسلام لأرى هل أنت مع الموتى أم مع الأحياء ؟ قال له: أنا مع الموتى، ولكن أبلغْ رسولَ الله مني السلام، أن جزاه الله خير ما جزى نبيا عن أمته، وبلغ أصحابه أنه لا عذر لكم إذا خُلص إلى نبيكم، وفيكم عين تطرف، فقد كان في أعلى درجات السعادة وهو يلقى الله. حدثني أخ كان في طائرة اضطربت في الجو اضطرابا شديدا، وكادت تقع، قال: وضعُ الركابِ شيء لا يوصف، هذا الذي يضرب وجهه، هذا الذي يمزق ثوبه، هذا الذي يندب حظه، فإذا لم يعرف الإنسان الله كان الموت أكبر مصيبة عنده، فهذا الصحابي كان في أعلى درجات السعادة، و والله الذي لا إله إلا هو لقد قرأت أكثر من سبعين سيرة للصحابة الكرام، كلهم كان بينهم قاسم مشترك واحد، أنهم كانوا في أسعد لحظات حياتهم عند لقاء ربهم، فالموت تحفة المؤمن،

((لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ: فَرْحَةٌ عِنْدَ فِطْرِهِ، وَفَرْحَةٌ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ))

أيها الإخوة الكرام، الصيام نظام أمة بأكملها، مليار وخمسمئة مليون يأكلون في وقت واحد، ويدَعون الطعام في وقت واحد، ويتوجهون إلى الصلاة في وقت واحد، هذا هو النظام، والصيام عبادة جماعية، والنظام حضارة.

حينما ترى أن مسلمين في الصين الشمالية صائمون مثلك تشعر بانتماء أممي، تحس أن الإسلام عالمي، الإسلام دين أهل الأرض.

أيها الإخوة، هذه بعض حِكم الصيام، ونحن إن شاء الله في درس قادم نتحدث عن عبادة، أو عن قضية في الدين كبيرة، نتحدث عن مقاصدها الشرعية، والله الموفق.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٨هـ - مقاصد الشريعة - الدرس (٠٥- ٢٧) : الزكاة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٧-٠٩-٢٣

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمات حول الزكاة:

١ – قوانين الكون ثابتة مطّردة:

أيها الإخوة، الله جل جلاله واجب الوجود، وما سواه ممكن الوجود، ممكن الوجود أي: ممكن أن يوجد، وممكن ألا يوجد، ممكن أن يوجد على ما هو عليه، وممكن أن يوجد على غير ما هو عليه، فالله سبحانه وتعالى ثبّت مليارات القوانين، قوانين دقيقة إلى درجة مذهلة وثابتة، ففي هذه الكواكب العملاقة يمكن أن تقول: الشمس تشرق في عام ألفين وسبعين، في ثلاثة عشر من شهر شباط في الساعة الخامسة ودقيقتين، دورة هذه الأفلاك بدقة متناهية، خصائص المواد، خصائص المعادن، خصائص البذور، قوانين السقوط، قوانين الكثافة، مليون قانون كله ثابت، هذا الثبات يوحي بالاستقرار، على أنك تتعامل مع الأشياء تعاملا مريحا، معك قوانين ثابتة في أي مكان، في أي زمان، قوانين مطردة وشاملة، فشاءت حكمة الله أن تثبت هذه القوانين كي تستقر الحياة.

البناء مؤلّف من مئة طابق، أساسه إسمنت وحديد، لو أن الحديد يغيّر من صفاته ينهار البناء، فالحديد يبقى حديدا إلى يوم القيامة، والذهب ذهب، والمعادن معادن، والبذور بذور، والخصائص خصائص، والقوانين قوانين.

فالشيء الأول في هذا الموضوع أن الله ثبت مليار قضية، مليار قانون.

٢ – حركةُ الرزق والصحةِ:

لكن الله حرك الرزق والصحة، فهناك فقر، وهناك غنى أحياناً، عندك في البيت طاولة في غرفة الضيوف، فإذا جاءك ضيف، وقدمت له ضيافة، توضع هذه الضيافة على هذه الطاولة، لكن الطاولة لو وقفت عليها فإنها تحتمل وزنك، لو كانت أوسع لو وقف عليها أربعة أشخاص، وهي مصممة لاستخدام مئتي غرام، أربعمئة غرام، معها احتياط كبير جداً، لذلك هذه الطاولة لا تفنى بسبب أن معها احتياطا عاليا جداً، كان من الممكن أن يكون لكل جهاز بجسمنا احتياط مئة ضعف فلا نمرض، وكان من الممكن أن يتمتع الإنسان بالصحة وبالشباب حتى سن التسعين، وحتى الموت،

كما كان الإنسان في السابعة عشر من العمر، في القلب مئتا ضعف، وفي الكليتين مئتا ضعف، بكل جهاز في الجسم فيه احتياط كبير جداً، إذاً: ليس هناك مرض، لكن الإنسان جعله بالتعبير المعاصر سريع العطب، وأحيانا خثرة في الدماغ تنهي حياته، تنهي حركته، تنهي رؤيته، تنهي ذاكرته، فالإنسان مصمم ليكون سريع العطب، إذاً: المرض بتقدير الله عز وجل، وأحد وسائل التأديب، وكذلك الرزق.

أحياناً تأتي الأمطار الغزيرة فتحل مشكلات الناس، أحياناً يكون هناك شح في المياه، فيأتي الجفاف فيسبِّب نزوحا، إذاً: الرزق والصحة ليسا ثابتين.

٣ – بين التقدير الربّاني والتقنين البشري:

لذلك ننطلق في الزكاة من أن الله سبحانه وتعالى جعل الغنى، وجعل الفقر، فهو الرزاق، يرزق بعير حساب، أو يقنن، لكن تقنين الله عز وجل لا يمكن أن يفسر بتقنين عجز، بل هو تقنين تأديب، أما نحن فنقنن الماء، لأن الكمية أقل من الاستهلاك، فنقنن الكهرباء، لأن الكمية أقل من الاستهلاك، فالتقنين الإلهي تقنين تأديب، أما التقنين البشري فهو تقنين عجز.

إذاً: لحكمة بالغة هناك إنسان دخله محدود، وإنسان دخله غير محدود، لكن بعضهم قال: المجموع ثابت، صاحب الدخل المحدود يقابل دخلّه المحدود طمأنينةٌ، أو أنه معفى من هموم لا تحتمل، والذي دخله غير محدود يقابله هموم لا تحتمل، لعل الله عز وجل وزع الحظوظ في الدنيا توزيع ابتلاء، فالوسامة حظ، والزكاة حظ، والمال حظ، والصحة حظ، هذه الحظوظ موزعة في الدنيا توزع ابتلاء، قال تعالى:

(انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ (٢١))

(سورة الإسراء)

هناك إنسان كل صفقة بمئة مليون ليرة، وإنسان آخر دخله لا يكفي خمسة أيام، يعاني الجوع ومن الديون.

بين فقر الكسل وفقر العجز وفقر الإنفاق:

بالمناسبة لا بد من توضيح الحقيقة التالية: هناك فقر الكسل، وهذا الفقر مذموم، الكسول المهمِل غير المتقن الإرجائي، الذي يسوف، الذي لا يحب عمله، هذا فقير حتماً، هذا فقر مذموم، أنا أسميه فقر الكسل.

وهناك فقر القدر، إنسان معه عاهة تمنعه من كسب المال، صاحبه معذور، فقر القدر صاحبه معذور، وفقر الكسل صاحبه مذموم.

أؤكد لكم أن البلاد المتخلفة النامية تعاني فقر الكسل، الوقت ليس له قيمة، الإتقان ليس له قيمة، فلا إتقان، ولا إدارة وقت، ولا تطوير عمل، ولا تحسين، ولا معاملة طيبة، بل المعاملة سيئة، وتقصير، وإهمال، وتسويف، فصاحب هذا المشروع لا يربح، بل يعاني الفقر، وهذا فقر مذموم.

وعندنا فقر معذور صاحبه، وفقر صاحبه محمود، اسمه فقر الإنفاق، يا أبا بكر ماذا أبقيت لنفسك ؟ قال:الله ورسوله، أنفق كل ماله، فنحن إذا قلنا: فقر، فهناك فقر صاحبه مذموم، لكن إذا قلنا: فقر آخر، فقر القدر صاحبه معذور.

٤ ـ الحكمة الربانية في توزيع حظوظ الدنيا:

إذاً: اقتضت حكمة الله عز وجل أن يوزع الحظوظ في الدنيا توزيع ابتلاء.

للتقريب: مستورد كبير حجمه المالي مئات الملايين، وبائع صحون في سوق شعبي يعمل عشر ساعات حتى يأتي بطعام يومه، قال تعالى:

(انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ (٢١))

(سورة الإسراء)

التفضيلُ بينَ إنسان مساحة بيته ألف متر، وإنسان آخر ساكن في غرفة واحدة، بين رئيس أركان ومجند غر، بين أستاذ جامعي ومعلم في قرية، بين طبيب جراح وممرض، هناك تفاوت في الحظوظ واسع جداً، قال تعالى:

(انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ (٢١))

(سورة الإسراء)

بيت ثمنه مئة وثمانون مليون ليرة، وخيمة شعر ودابة، هذا متاعه كله، هذه الخيمة وفراش ودابة، قال تعالى:

(انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا (٢١))

(سورة الإسراء)

مراتب الدنيا لا معنى لها، لأنها مؤقتة، وقد تعني العكس، لذلك المترفون المذكورون في القرآن الكريم كلهم كفار، الله عز وجل ذكر الترف في ثماني آيات، والمترف كافر، المؤمن الغني له وضع خاص، متواضع، إنفاقه معتدل، فلا بذخ، ولا إسراف، ولا إتراف، ولا تبذير، المؤمن سخي كريم، هذا موضوع ثان، المؤمن تحبه غنياً من تواضعه، ومن كرمه، ومن إنفاقه المعتدل، وتحبه فقيراً من تعففه، ومن صبره، ومن عزة نفسه، تحبه متعلماً من تألق فكره، وتحبه غير متعلم من بساطته وطيبه، فكلمة مؤمن لا تحتمل كلمة ثانية بعدها، والحقيقة أنه لا يجوز أن تضيف على كلمة (مؤمن) ولا كلمة، هذا موضوع ثانٍ، قال تعالى:

(انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ (٢١))

(سورة الإسراء)

مراتب الدنيا لا تعني شيئاً، قال تعالى:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً)

(سورة الأنعام: ٤٤)

لكن يا أيها الإخوة، بطولتنا جميعاً أن يكون لنا في الآخرة مقعد صدق عند مليك مقتدر، حظوظ الآخرة أبدية، وتعني كل شيء، وفي الدنيا لا تعني شيئاً:

((كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ، لَا يُؤْبَهُ لَهُ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ...))

[الترمذي]

أما في الآخرة فالمراتب العلية في الجنة تعني أن هذا الإنسان مؤمن، والآن يقبض الثمن، ثمن طاعته في الدنيا لله عز وجل، هذه مقدمة.

ليس في الإمكان أبدع مما كان:

إذاً: من تقدير الله عز وجل أن هناك غنيا وفقيراً، وفي الأثر: " إن من عبادي من لا يصلح له إلا الفقر، فإذا أغنيته أفسدت عليه دينه، وإن من عبادي من لا يصلح له إلا الغنى، فإذا أفقرته أفسدت عليه دينه "، فلذلك ليس في الإمكان أبدع مما كان، وحينما يكشف الله لك حكمة قضائه وقدره ينبغي أن تذوب محبة لله.

هنا نقطة دقيقة في الموضوع، وهي أن الله سبحانه وتعالى علم ما كان، وعلم ما يكون، ويعلم ما سيكون، ويعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون، إنسان له دخل محدود يلتزم المسجد، يؤدي صلواته، يحج، يعتمر، يدفع زكاته، يحب الله عز وجل ورسوله، يحب أهل العلم، يحب العمل الصالح، يا ترى هذا الإنسان لو أعطيناه ألف مليون كيف يكون ؟ لا أحد يعلم إلا الله، علم ما كان، وعلم ما يكون، ويعلم ما سيكون، ويعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون، لذلك ليس في الإمكان أبدع مما كان.

جاء أحدُهم في عصر متأخر فيه فسق فجور، وانحراف ومعاصٍ وآثام، فيكون هو متفوقا جداً باستقامته، هذا الإنسان الذي هو متفوق في آخر الزمان مع العصاة والمنحرفين إنْ علم لو كان بين الصحابة لكان منافقاً، فالإنسان يستسلم لله عز وجل حتى في الزمان، فأنت مخير، لكنك مسير في مجموعة قضايا، هل استشارك أحد في كونك ذكرا أو أنثى ؟ هل أنت مخير في جنسك ؟

أحيانا يأتي الجنين بنتا، وأحيانا يأتي ابنا، هذا الصبي هل أحد سأله: ماذا تحب أن تكون حسب رغبتك ذكرًا أم أنثى ؟ فأنت مسير في جنسك، مسير في والدك ووالدتك، من اختار أباه أو أمه ؟ مرة شكا لي أحدهم من والدته كثيرا، قلت له: طلقها، قال: كيف أطلقها ؟ قلت له: هذه قدرك، الأم والأب قدر، فتعامل معهما كقدر.

مَن استشار الإنسانَ بقدراته العامة ؟ هناك إنسان متألق الذكاء، وإنسان أقلّ، وإنسان محدود جداً، من استشارك في شكلك ؟ فلا شكلك بيدك، ولا طولك بيدك، ولا لونك بيدك، ولا ذكاءك بيدك، ولا طلاقتك بيدك، فأنت مسير في أشياء، فيجب أن تعلم علم اليقين أن هذا الذي سيرت به محض كمال، ومحض خير لك، وليس في الإمكان أبدع مما كان.

آيةٌ أصلٌ في الزكاة:

الآن وصلنا إلى درس مقاصد الشريعة في الزكاة، الآية الأصل في هذا الموضوع:

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً (١٠٣))

(سورة التوبة)

١ ـ الحكمةُ مِن ورودِ كلمة (أموال) جمعًا:

كلمة (أموال) جاءت جمعا، فالزكاة واجبة في جميع الأموال، عندك إنتاج زراعي فيه زكاة. قال لي أحدهم: هل على العسل زكاة ؟ قلت: نعم، قال: إذا ما دفعت ؟ قلت: قراد النحل جاهز، هذه حشرة تصيب الخلايا فتدمرها، وما تلف مال في بر أو بحر إلا بحبس الزكاة، العسل عليه زكاة، والإنتاج الزراعي عليه زكاة، وقطيع غنم في عليه زكاة، قطيع بقر في عليه زكاة، قطيع إبل في عليه زكاة، معه مال في عليه زكاة ورقي في عليه زكاة، ذهب عليه زكاة، عنده بضاعة عروض تجارة عليها زكاة .

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ (١٠٣))

(سورة التوبة)

ثروات باطنية كالبترول، هذا البترول ملك المسلمين، يجب أن يدفع عشرين بالمئة من قيمته لفقراء المسلمين، هذا الحكم الشرعي، أنت مسلم عندك حقل نفط، وهناك بلاد تموت من الجوع، وبلاد تموت من التخمة، وهناك دخول فلكية من البترول لا يتصورها العقل، وهناك دول فقيرة جداً، البلاد النفطية عليها زكاة على مستوى دول للدول الفقيرة، هذه ليست مساعدة، بل حق.

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ (١٠٣))

(سورة التوبة)

٢ ـ الحكمةُ مِن ورودِ ضمير (هُم) جمعًا:

من جميع أموالهم جاءت كلمة (أموال) جمعا، وضمير (هم) ضمير جمع، فما مِن مسلم معفى من الزكاة.

أحيانا يقول لك: تطوى الضريبة عن فلان، وفي الإسلام ليس هناك طي للزكاة، والإسلام ما فيه ضريبة، بل فيه زكاة، والضريبة جاءت من الضرب، أما الزكاة فجاءت من التزكية، لذلك كلمة (أموالهم) هي جمع، وضمير الغائب جمع، إذاً: لا يعفى منها أحد، وتجب في جميع الأموال.

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً (١٠٣))

(سورة التوبة)

أيْ: تؤكد صدقهم.

أحيانا يكون عمل الإنسان كلاما في كلام، أما الدفع في المال فغير ذلك، لأنها أموال تحبها، تحبها حباً جما، تحبها أن تكون لك، وأن تنفقها على نفسك، فيأتي الشرع أنفقها أطعم الفقراء والمساكين.

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً (١٠٣))

(سورة التوبة)

٣ ـ الحكمةُ مِن ورودِ كلمة (صدقة) في الآية:

الصدقة هنا معناها الزكاة، لماذا جاءت كلمة صدقة مكان الزكاة ؟ من أجل أنها تؤكد صدقك في محبتك لله عز وجل لأنه:

(لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ (٩٢))

(سورة آل عمران)

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً (١٠٣))

(سورة التوبة)

مقاصد الشريعة الربانية الزكاة:

١ – الزكاة تطهير لنفس الغني من الشُح:

ما حكمتها ؟ قال: تطهرهم، الغني معرض لمرض خطير، كيف أن الجسم معرض لمرض السرطان، وأخطر مرض قاتل مميت للغني هو مرضُ الشح، قال تعالى:

(وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩))

(سورة الحشر)

٢ – الزكاة تطهير لنفس الفقير من الحقد:

الفقير معرّض لمرض الحقد، لأنه يرى قصور الأغنياء ومركباتهم ونساءهم كاسيات عاريات، وحفلاتهم وبذخهم فيقول: عرس كلّف خمسة وثمانين مليونًا، جيء بالورود من هولندا، والثياب من فرنسا، والعطور من بلد كذا، الفقير شاهد هذا الغنى والترف والبذخ فحقد، فالزكاة تطهر الفقير من الحقد والغني من الشح.

٣ – الزكاة تطهير للمال من تعلُّق حقِّ الفقير به:

والزكاة تطهر المال من تعلق حق الفقير به.

إذا كان في المال حق الفقير، ولم يدفع الغني ترى مصادرات، وحريقا بمعمل بمئتي مليون في ساعات، فإذا لم تدفع الزكاة يحترق المعمل، لأنه ما تلف مال في بر أو بحر إلا بحبس الزكاة، فحصِّنوا أموالكم بالزكاة.

الفقير يطهر من الحقد، فصار حارسا للغني، والغني يطهَّر من الشح، والمال يطهَّر من تعلق حق الغير به.

٤ – الزكاة تطهير للمجتمع من التفاوت الطبقي:

والمجتمع يطهر من تفاوت طبقي لا يحتمل.

والله أحياناً تجد إنسانا ينقب في الحاوية، تراه بعينك في بلاد فيها تفاوت طبقي كبير جداً.

حدثني أخ في بلد من بلاد المسلمين لا أسميه يقدم الإنسان لضيوفه قعودا، يعني جملا فتيًّا، لحمه طري جداً، مع الأرز، وهو طعام نفيس، والمدعوون خمسة أشخاص يأكلون طعام مئتي رجلٍ، والباقي إلى الحاوية، لا يأكل أحد من بعدنا، فهذا بذخ وترف تخرج فيه من جلدك، وأنت ترى فقرا مدقعا، وإنسانا يأكل من الحاوية، فلذلك المجتمع الذي تؤدى فيه الزكاة لا تجد فيه تفاوتا طبقيا كبيرا، هذا المعنى الأول تطهرهم.

٥ ــ الزكاة تزكية لنفس الغني:

الآن

(وَتُزَكِّيهِم)

تصور أنك وزعت زكاة مالك على من حولك ثلاثين شخصا فرضاً، فأنت في قلب ثلاثين شخصا، فكلما التقيت معهم رحبوا بك، ودعَوا لك، ولما تنعش الفقير بطعام وبشراب وبكساء يحل مشكلة بشراء بيت، أو بتأمين عمل، فالغني يعيش بين أحباء، بين أشخاص محبين، يثنون عليه، فتنمو نفس الغني.

أحيانا يزوج الأب أولاده، كل ولد في بيت، يكون ميسورا، فيزور أولاده، فترى احتراما منقطع النظير، لأن الله هيئ له عن طريق والده بيتا وزوجة وعملا فيعيش ميسور الحال، ووالده سعى له بهذا الشيء.

حينما تحسن للآخرين تملك قلوبهم، فتنمو نفسُك.

٦ ــ الزكاة تزكية لنفس الفقير:

ونفس الفقير تنمو، هو محروم، لكن لما جاءته أموال الزكاة، وانتعش بها شعر بمكانته في مجتمعه، لأن أناسا اهتموا به، اهتموا بفقره، اهتموا بحاجته.

قد يكون الإنسان مريضا، وعليه مبلغ لعملية لا يملكه، فيأتي غني يقول له: تفضل، فيدعو له: أعزك الله، متعك الله بالصحة، فالفقير نمت نفسه، والغني نمت نفسه.

٧ ــ الزكاة تزكية لنفس الغني:

والمال ينمو، وفي الحديث:

((أنفق بلال، ولا تخشَ من ذي العرش إقلالا))

[الطبراني في المعجم الكبير والأوسط بسند حسن عن أبي هريرة]

عبدي:

((أَنْفِقْ أَنْفِقْ عَلَيْكَ))

[ابن ماجه عن أبي هريرة]

والله هناك قصص ي هذا المجال لا تعد ولا تحصى، وفي هذا الجامع أحد إخوتنا الكرام له قريب أستاذ جامعة توفي بمرض عضال، فقال هذا الأخ لأولاده: الديون علي إن شاء الله، مع أنه توقع أنها عشرة آلاف إلى عشرين أو ثلاثين ألفَ ليرة يدفعها، فلما سألهم بعد يومين قالوا: الديون ثلاثمئة وثمانون ألفا، فدفعها، حدثني في الصحن، ودمعت عينه، قال: عندي بضاعة كاسدة منذ عشر سنوات، جاء من اشتراها، ونصيبي من الربح ثلاثمئة وثمانون ألفا،

((أَنْفِقْ أَنْفِقْ عَلَيْكَ))

وكل إنسان محسن يعرف مئة قصة أو مئتي قصة في هذا الموضوع، لذلك المال الذي أوديت زكاته يزكو، والمال يحصَّن، والمال يبارك فيه، لذلك لا يجوز لك أن تصف إنسانا بالشح إذا أدى زكاة ماله أبداً.

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ (١٠٣))

(سورة التوبة)

٨ ـ الزكاة تُذهِب شرَّ المال:

ومن أدى زكاة ماله أذهب الله عنه شرَّ ماله، المال له شر، أحياناً المال سبب الدمار، والمال قد ينتهي بقتل، قد ينتهي بتدمير أسرة، قد ينتهي بطلاق، ومن أدى زكاة ماله أذهب عنه شرَّ ماله.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٨هـ - مقاصد الشريعة - الدرس (٠٦- ٢٧) : الحج

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٧-٠٩-٢٤

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة حول مقاصد الشرع من فريضة الحج:

١ – الشريعة عدالة وحكمة ورحمة ومصلحة مطلقة:

قال بعض العلماء: " الشريعة عدل كلها، رحمة كلها، حكمة كلها، مصلحة كلها، فأيّة قضية خرجت من الرحمة إلى القسوة، ومن العدل إلى الجور، ومن المصلحة إلى المفسدة، ومن الحكمة إلى خلافها، فليست من الشريعة، ولو أدخلت عليها بألف تأويل وتأويل "، لماذا ؟ لأن هذه الشريعة من عند الله، والله سبحانه وتعالى كامل كمالاً مطلقاً، قال تعالى:

(وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا (١٨٠))

(سورة الأعراف)

فهو كامل كمالاً مطلقاً، وشريعته كاملة كمالاً مطلقاً، لذلك:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا (٣))

(سورة المائدة)

٢ – كمالُ الشريعة وتمامُها نوعيٌّ وعددي:

النقطة الأولى: أن الإكمال نوعي، وأن الإتمام عددي، أي أن عدد القضايا التي عالجها تام تماماً كاملاً، وأن طريقة المعالجة كاملة كمالاً مطلقاً، فالموضوعات التي عالجها الدين تامة، والموضوعات التي لم يعالجها الدين هناك حكمة من عدم معالجتها لا تقلّ أهمية عن التي عالجها.
هناك أشياء متغيرة تُركت لكل زمان ومكان، وهناك أشياء أساسية عولجت.

مقاصد الشرع من فريضة الحج:

هذا ينقلنا إلى عبادة هي عبادة الحج، قال تعالى:

جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ (٩٧)

[سورة المائدة]

تقوم مصالحهم الأخروية والدنيوية على معرفة الله عز وجل.

١ ـ الحجُّ عبادة العُمر:

الحج عبادة من أرقى العبادات، لماذا ؟

إذا صح أن الصلاة عبادة يومية، وهي شحنة يومية، وإذا صح أن صلاة الجمعة عبادة أسبوعية، وهي شحنة أسبوعية، وإذا صح أن رمضان عبادة سنوية، وهي شحنة سنوية، فإنه يصح أيضاً أن الحج عبادة العمر، الصلاة كل يوم خمس مرات، صلاة الجمعة مرة في الأسبوع، الصيام شهرٌ في السنة، أما الحج فهو عبادة العمر.

لكن ما الحكمة الكبرى من الحج ؟

أحياناً تكون الدنيا حجاباً بين العبد وربه، الحالة الحادة الخطيرة المهلكة هي المذكورةُ في قوله تعالى:

(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (٦) أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى (٧))

(سورة العلق)

٢ ـ الحجُّ انتقال بالبدن والروح:

لا تبتعد كثيراً، فإن البلاد التي فيها رخاء يفوق حد الخيال فيها بعدٌ عن الله يفوق حد الخيال، فيها تصحر، فيها قلب قاسٍ، لا يجتمع في المسجد إلا بضعة أشخاص، وفي بلاد أخرى فيها ضغوط، هذه الضغوط أكبر باعث إلى الله عز وجل، فلذلك يستنبط أن الحج فرض على الأغنياء، والمال حجاب، والمكانة حجاب، والثراء حجاب، والمنصب حجاب، والدنيا العريضة حجاب، لذلك الله عز وجل كتب على الناس حج البيت لمن استطاع إليه سبيلا، لكن العبادات الأخرى تؤدى، وأنت في وطنك، وأنت في مدينتك، وأنت في قريتك، وأنت في بيتك، وأنت في عملك، إلا أن هذه العبادة متميزة فلا تؤدَّى إلا في مكان مخصوص، وفي وقت مخصوص، وهي عبادة تجمع بين أن تكون بدنية، وأن تكون مالية، فيها إنفاق، وبين أن تكون متحركة فيها انتقال من مكان إلى مكان.

حكمة الله اقتضت أن يضع لنفسه بيتًا:

أيها الإخوة، الإنسان له طبيعة مادية لا شك في ذلك، فحكمة الله اقتضت أن يتخذ لنفسه بيتاً، قال تعالى:

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ (٩٦))

(سورة آل عمران)

الله عز وجل اتخذ لنفسه بيتاً، مع أنه في كل مكان، وفي كل زمان، وهو معكم أينما كنتم، لكن لماذا اتخذ لنفسه بيتاً ؟ من أجل أن تكون زيارته مكلفة.

للتقريب: هناك أب أستاذ رياضيات، والابن طالب في الشهادة الثانوية، أبوه يدرِّسه من غير مقابل مادي، فترى الابن قلّما يطلب من والده أن يعطيه درساً، وإذا سأله والده يجيب الابن بأن دراسته حسنة، لكن لو أن طالبا ضعيفا في الرياضيات، واشتغل في الصيف بمبلغ معين، والدرس بألف ليرة، ودفع من تعبه، وعرق جبينه قيمة هذه الدروس تجده في أثناء الدرس كتلة من الإصغاء، كتلة من الاهتمام، وإذا أنهى الدرس المدرس قبل خمس دقائق ينزعج، لأنه دفع له ثمن الوقت كاملا. لما تكون هذه العبادة مكلِفة، فيها سفر، فيها إنفاق مال، فيها ازدحام، فيها حر، دفعت ثمن هذا اللقاء، ومن دون ثمن لا يكون اللقاء حاراً، اللقاء فاتر، أما بالثمن فاللقاء حار.

٣ – الحجُّ عقدُ صلةٍ بالله عزوجل:

هناك نقطة دقيقة، لمَ لا يكون الحج في مكان جميل ؟
والله هناك أماكن في الأرض جميلة جداً، فيها جبال خضراء، فيها بحيرات، فلمَ كان الحج في وادٍ غير ذي زرع ؟
لأن الله عز وجل أراد أن يلغي المتع الحسية، بل هناك ازدحام لا يحتمل، وحر لا يحتمل، ومناظر قاسية لا تحتمل، وفي جهة أخرى من العالَم جبال خضراء رائعة، و سواحل، و أجواء لطيفة، ونسيم عليل، وفي مكة لا النسيم عليل، ولا الجبال خضراء، ولا بحيرات، ليس هناك إلا ازدحام وحر، الله عز وجل ألغى المتع الحسية في الحج لحكمة بالغة، قال تعالى:

(بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ (٣٧))

(سورة إبراهيم)

الحج فيه هدف واحد ؛ أن تنعقد لك صلة مع الله متينة من نوع آخر، والسبب أنه مدفوع الثمن الباهظ، لذلك هناك حكمة بالغة ؛ أن الإنسان حينما يتفرغ لأداء هذه العبادة يكافئه الله عز وجل بتفريغ نفسه من هموم الدنيا، واسألوا أي حاج صادق في حجه عنده مشكلات لا تنتهي في بلده، فإذا توجه إلى بيت الله الحرام فرغ الله نفسه من كل هموم بلده.

مرة حاولت أن أمتحن هذه المقولة، فكنتُ كلّ فترة أستدعي قضية تقلقني في بلدي فما تبقى ثانية في ذهني حتى تتلاشى رأساً.

حينما فرغت نفسك لأداء هذه العبادة فرغ الله لك قلبك من هموم الدنيا، وكل حاج صادق يعرف هذه الحقيقة، وما دمت في مناسك الحج فأنت مندمج منغمس في سعادة لا توصف.

٤ – الحجّ مكان اليسر والسعادة:

شيء آخر، أنت في بلدك تصلي، وكأنك تسبح بعكس التيار، هناك جهد كبير حتى يجتمع قلبك على الله، لكن هناك في الحج كأنك تسبح مع التيار بيسر، فتشعر باتصال بيسرٍ، تشعر بإقبال بيسر، تشعر بتألق بيسر، تشعر بخشوع، أرادك الله أن تذوق طعم قربه.

ما معنى: لبيك اللهم لبيك ؟ تقول: لبيك اللهم لبيك، طبعاً معناها دعوة، تعال يا عبدي، تعال إلى بيتي الحرام لتذوق طعم القرب، لبيك اللهم لبيك، تعال يا عبدي إلى بيتي الحرام لتزاح عن كاهلك هموم كالجبال، لبيك اللهم لبيك، تعال يا عبدي، وذق طعم القرب مني، فكلمة: (لبيك اللهم لبيك) تعني أن هناك دعوة، الله عز وجل يدعوك، لذلك عَن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((مَنْ حَجَّ لِلَّهِ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ))

[متفق عليه]

مرة ثانية: تمشياً مع الكيان المادي للإنسان اتخذ الله له بيتاً هو بيت الله الحرام، قال تعالى:

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ (٩٦))

(سورة آل عمران)

٥ – الحجّ تذكير برحلة الموت والحشر:

الآن ماذا تعني تلبية هذه الدعوة ؟ هي دعوة من الله تعني أن الله أحبُّ إليك من بيتك، ومن زوجتك، ومن أولادك، ومن مكان عملك، ومن أناقتك، لا يعرف فضل الثياب المخيطة إلا من حج بيت الله الحرام.

في بلدك ثياب محيطة ومخيطة ومريحة، أما في الحج فثيابك قطعتان من القماش، الأولى تلف بها جسمك من ناحية الأسفل، وقطعة ثانية تضعها على كتفيك، ولا يعرف قيمة الثياب إلا من ارتدى ثياب الإحرام، لماذا ؟

أنا أقول هذه الكلمة: هناك رحلة أخيرة هي الموت، وسيشيع الإنسان إلى مثواه، وقد يكون الإنسان غنيا يرتدي أجمل الثياب، فيلفّ عند موته بكفن من أرخص أنواع الأقمشة، فكأن الحج رحلة قبل الأخيرة، فالله عز وجل منعك في الحج أن تتعطر، منعك في الحج أن تحلق شعر رأسك، منعك في الحج أن تتطيب، وألبسك قطعتين من القماش، ليكون أغنى إنسان في الحج كأفقر إنسان، الثياب كلها ثياب رخيصة يلف بها الحاج جسمه.

إذاً: أراك الله ساعة الحشر يوم يقوم الناس لرب العالمين.

٦ ـ الحجّ عبادة المساواة:

ملايين تقف في عرفات، كلهم بثياب الإحرام، وهكذا يوم الحشر، ليس هناك تفاوت طبقي في، ولا مراتب عسكرية، ولا مراتب مدنية، ولا دكتور، ولا نائب ملك، ولا ملك، ولا رئيس جمهورية، ولا وزير، كل المناصب والرتب العسكرية والمدنية والمكانة العلمية والرتب الاقتصادية والحجم المالي يتلاشى في الحج، لأنها عبادة المساواة، على الحدود معبر للهيئة الدبلوماسية، ومعبر لركاب الدرجة الأولى، لكن في الحج لا مكان لطواف علية القوم، الطواف طواف، والسعي سعي، والوقوف بعرفات وقوف بعرفات، فلذلك من عظمة هذه العبادة أن الناس متساوون، قال تعالى:

(يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦))

(سورة المطففين)

(وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ (٩٤))

(سورة الأنعام)

أيها الإخوة، اللباس من الدنيا، بل إن مكانتك الدنيوية يعبر عنها بلباسك، فهناك إنسان يعتز بأوسمته، أوسمة، أو رتب، أو ثياب أنيقة جداً، غالية جداً، فمكانتك في الدنيا يعبر عنها بثيابك، أما حينما ترتدي قطعتين من القماش فقط غير مخيطة، وغير محيطة، وبلا ثياب داخلية فهذا شيء صعب جداً، وأكبر إنسان، أغنى إنسان، وأفقر إنسان سواء، كأنها رحلة قبل الأخيرة.

أيها المؤمن تدرب، هناك حشر من دون مراتب يأتي الإنسان ربه فرداً.

٧ ـ الحجّ عبادة الحبّ:

أيها الإخوة، مقاصد الحج كثيرة جداً، ففي الطواف يعبر به عن الحب، أحيانا إنسان من فرحه بشيء يطوف حوله دون أن يشعر، فالطواف طواف المحب حول محبوبه، لذلك ترى الإنسان وهو يطوف حول الكعبة يعدّ الأشواط شوطا شوطًا، وهناك مَن يمسك مسبحة، كلما طاف شوطا يسحب حبة، وهناك مَن يمسك بعدّاد، وإنسان يعدُّ الأشواط بساعته، وإنسان آخر بآلة حاسبة، لكن حينما ينشغل بعدد الأشواط ينشغل عن الله عز وجل، فأنت في هذا المكان مكلف أن تقبل على الله، هذا البيت بيت الله، فلذلك إذا طاف الإنسان طواف المحب حول محبوبه فكله مناجاة، والذي يؤلم أشد الألم أنك تلتقي بحاج يحدثك عن كل شيء في الحج إلا عن الحج، إلا عن مناسك الحج، إلا عن مشاعر المؤمن وهو يطوف حول بيت الله الحرام، إلا عن مشاعر المؤمن وهو يسعى بين الصفا والمروة، إلا عن مشاعر المؤمن إذا وقف في عرفات، لذلك من خطأ الناس الكبير أن تصبح الرحلة عبادة شكلية، جلس في عرفات، والحديث فيها عن الطعام والشراب والسياسة، وفلان قال كذا، وفلان قال كذا، أنت في عرفات في أعظم أيام حياتك، أنت في لقاء مع خالق السماوات والأرض،

فلذلك المؤمن الصادق إذا وقف في عرفات يبتعد عن الناس قليلاً، ويتوجه إلى شجرة يجلس في ظلها، ويناجي ربه، هذا أعظم يوم في حياة الإنسان على الإطلاق، جئت من أطراف الدنيا، إنسان يأتي من الصين، من أمريكا، قطع الآلاف من الأميال حتى يقف في عرفات، أيعقل أن يكون أمر الله أن تقف في هذا المكان فقط، أو أن تستمع إلى نشيد ؟ لذلك خطأ كبير لما يغفل الإنسان عن خطورة هذا اليوم.

إذا أصبح الحج حركات وسكنات وسلوكا معينا فقد فَقَدَ الحج قيمته، أنت في لقاء مع الله مستمر ومتنوع، الطواف له معنى، السعي له معنى، الوقوف بعرفة له معنى، ونحر الأضاحي له معنى، والحلق له معنى، والتحلل له معنى، تفقهوا قبل أن تحجوا، هذه عبادة العمر، وعبادة ينتظر أن تكون شحنتها كافية إلى نهاية العمر مع أن النبي عليه الصلاة والسلام فيما روي عنه أنه قال: قال الله تعالى:

((إن عبدا أصححت له جسمه، ووسعت عليه في المعيشة تمضي عليه خمسة أعوام لا يفد إلي لمحروم))

[الجامع الصغير بسند صحيح عن أبي سعيد الخدري]

٨ – الحجُّ عبادة الصدق ومعاداة الشيطان:

إذاً: الحج شحنة العمر، وينتظر أن تعود من الحج بنفسية جديدة، وبمعرفة جديدة، وباستقامة تامة، لأنك تقف أمام الحجر الأسود، وتشير إليه، وتقول: بسم الله، والله أكبر، اللهم إيمانا بك، وتصديقاً لكتابك، واتباعاً لسنة نبيك، وعهداً على طاعتك، وحينما تقف لرمي الجمرات فإنك تقف موقف صدق، لأنك إذا عدت من الحج، وعدت إلى ما كنت عليه من التقصير والمخالفات فمن الذي رجم الآخر، الذي رجم هو إبليس، مَن المرجوم ؟ هذا الذي نقض عهد الله بعد الحج، فلا يصح الرجم إلا إذا كان هناك عهد موثق، يا رب، أنا أعادي إبليس، قال تعالى:

(إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦))

(سورة فاطر)

لذلك رجم الشيطان له معنى، وتعبير رمزي، أحياناً هناك من ينتقد بعض مناسك الحج ممن هو بعيد عن هذا الدين العظيم، إنسان يحتل منصبا رفيعا في دولة إسلامية أدى مناسك الحج، أعجبه النظام، أعجبه عناية المسؤولين هناك بمناسك الحج، وبالأماكن المقدسة، قال: والله الحج رائع، لكن لو نظّموه ي خمس دورات، كل شهرين موسم حج يكون أخف على الناس، وقال لي أحدهم: الذي يريد أن يحج يحُج في المملكة، كأن الحج يمكن أن يكون في مكان آخر، هناك جهل كبير جداً بمناسك الحج، فحينما ترجم إبليس هذا الرجم له معنى، هذا عهد على معاداة الشيطان، قال تعالى:

(إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا (٦))

(سورة فاطر)

إذا وقف الإنسان في عرفات، دققوا في هذا الكلام، ولم يغلب على ظنه أن الله غفر له فلا حج له، من وقف في عرفات، ولم يغلب على ظنه أن الله غفر له فلا حج له، فالحج عبادة، عبادة تعدّ تاج العبادات، عبادة العمر، فيها شحنة مديدة، فيها أيام معدودة، يوم لطواف القدوم، ويوم للسعي بين الصفا والمروة، ويوم التوجه إلى منى، والمبيت في منى، ويوم للوقوف في عرفات، ويوم للمبيت في مزدلفة، ويوم لرمي الجمرات، ويوم لمناسك الحج الأخرى، ويوم للزيارة، إنها عبادة مديدة مكلفة، فهي عبادة الأبدان وعبادة المال، وعبادة الانتقال من مكان إلى مكان، لذلك، قال تعالى:

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ (٩٦))

(سورة آل عمران)

جعل الله عز وجل:

(جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ (٩٧))

(سورة المائسد)

ملخّص مقاصد الصلاة والصيام والزكاة والحج:

ففي الصلاة قال تعالى:

(إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ (٤٥))

(سورة العنكبوت)

وفي الصيام:

(كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣))

(سورة البقرة)

وفي الزكاة:

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ (١٠٣)

(سورة التوبة)

وفي الحج قال تعالى:

(ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ (٩٧))

(سورة المائدة)

حينما تعلم أن الله يعلم حلّت كل مشكلاتك، والدليل، قال تعالى:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا (١٢))

(سورة الطلاق)

فعلة خلق السماوات والأرض أن تعلموا:

(ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ (٩٧))

[سورة المائدة]

علة خلق السماوات والأرض أن تعلم أن الله على كل شيء قدير وأنه أحاط بكل شيء علماً.

احذروا من تفريغ الحج من مضمونه الحقيقي وتكثير الحشود بقلوب فارغة:

فلذلك الإنسان قبل أن يحج عليه أن يفقه حكمة مناسك الحج، فلعل الله عز وجل يمنحه من فضله ؛ أن يقف في هذه المناسك، وفي تلك المشاعر الموقف المناسب، وإذا عاد إلى بلده ينبغي أن يحدث الناس بهذه المشاعر، أما الحديث عن الطرقات وعن الماء البارد الذي يوزع مجاناً، وعن الخدمات، فهذا حديث لا علاقة له بالحج إطلاقاً.

إذا ضعفت هذه العبادة اكتفى الناس بأداء المناسك أداء شكلياً، وعندئذ يحج أربعة ملايين،

((... وَلَنْ يُغْلَبَ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا مِنْ قِلَّةٍ))

[أبو داود عن ابن عباس]

أربعة ملايين الكتف بالكتف، والصدر بالبطن، والأماكن مزدحمة، ومع ذلك المحصلة: لا يوجد نصر، هذا كلام مؤلم، يقول أربع ملايين، يا الله، و المحصلة ليست كلمة المسلمين هي العليا، و ليس أمرهم بيدهم، و للطرف الآخر عليهم ألف سبيل و سبيل، معنى هذا يوجد خلل في حياتنا في خلل في عباداتنا في خلل باستقامتنا في خلل بفهمنا لهذا الدين.

((... وَلَنْ يُغْلَبَ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا مِنْ قِلَّةٍ))

[أبو داود عن ابن عباس]

الآن المسلمون مليار وخمسمئة مليون يتربعون على أخطر مكان في العالم، وعلى ثروات لا يعلمها إلا الله، وهم أفقر شعوب الأرض، وعندهم ثروات لا يعلمها إلا الله، فلذلك حينما يبتعد الناس عن دين الله عز وجل تؤدى العبادات أداء شكليا، فيحج الناس للسمعة أحياناً، ولمنافع يبتغونها من الحج.

أيها الإخوة الكرام، لا بد من فهم مقاصد الشريعة، وحينما تفهم مقاصد الشريعة ربما انتفعت من هذه العبادة، وربما تألقت من هذه العبادة.

والحمد لله رب العالمين

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٧-٠٩-٢٥

بسم الله الرحمن الرحيم

الإيمان بالله أول المقاصد البعيدة لأركان الإسلام:

أيها الأخوة الكرام، لازلنا في سلسلة دروس عن مقاصد الشريعة الإسلامية، وقد تحدثنا في الدروس السابقة عن المقاصد البعيدة لأركان الإسلام، النطق بالشهادة والصلاة والصيام والزكاة والحج، وها نحن ننتقل إلى المقاصد البعيدة من أركان الإيمان، أول شيء الإيمان بالله.

حقائق الإيمان عديدة منها:

١ - الإيمان من أجل ذواتنا و سعادتنا و سلامتنا:

أيها الأخوة، الحقيقة الأولى في هذا الموضوع أن الله عز وجل حينما قال:

(إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ (٧))

(سورة الزمر)

لكن:

(وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ (٧))

(سورة الزمر)

(وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ (٧))

(سورة الزمر)

لذلك الإيمان من أجل أنفسنا، الله عز وجل كما ورد في الحديث القدسي الصحيح:

((يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ))

[مسلم عن أبي ذر]

فلذلك الحقيقة الأولى في الإيمان أن الإيمان من أجلنا، من أجل سلامتنا، من أجل سعادتنا، من أجل أن يحقق الهدف من وجودنا وهو إسعادنا في الدنيا والآخرة، قال تعالى:

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ (١١٩))

(سورة هود)

خلقهم ليسعدهم فالإيمان ليس من أجل شيء آخر إنما هو من أجل ذواتنا وسلامتنا وسعادتنا هذه الحقيقة الأولى.

٢ ـ من يرفض الإيمان يحتقر نفسه لأنه غاب عنه أنه المخلوق الأول:

الحقيقة الثانية، الإنسان أحياناً يرفض أشياء كثيرة يرفضها احتقاراً لها، يعرض عليه بيت سعره مرتفع ومساحته صغيرة يرفضه، تعرض عليه فتاة ليتزوج منها في دينها رقة يرفضها لأنه ما أعجبه دينها، فأي شيء ترفضه في حياتك أحد أسباب رفضه احتقارك له، تعرض عليه تجارة متعبة والأرباح قليلة فيها أخطار يرفضها، أي شيء ترفضه الأصل أنك لم تقبله، وما كان شيئاً ثميناً في تصورك، وما كان شيئاً كبيراً في مقاييسك فرفضته، إلا أنك إذا رفضت الدين تحتقر نفسك الدليل:

(وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ (١٣٠))

(سورة البقرة)

قد ترفض شيئاً احتقاراً له إلا أن الدين وحده إذا رفضته تحتقر نفسك، ما عرفت قدرها، ما عرفت أنك المخلوق الأول، ما عرفت أنك المخلوق المكرم، ما عرفت أنك المخلوق الوحيد الذي خلق لجنة عرضها السماوات والأرض، هذه حقائق كبرى ما عرفتها.

أتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

***

لأنك من بني البشر أنت المخلوق الأول، قال تعالى:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ (٧٢))

(سورة الأحزاب)

الحقيقة الثانية الذي يرفض الإيمان أو حقائق الإيمان أو منهج الرحمن يحتقر نفسه لأنه غاب عنه أنه المخلوق الأول، وغاب عنه أن الكون بأكمله مسخر له، وغاب عنه أنه خلق لجنة عرضها السماوات والأرض، لذلك من هنا يقال: من عرف نفسه عرف ربه.

٣ ـ خيار الإنسان مع الإيمان خيار وقت فقط:

أيها الأخوة الكرام، حقيقة ثالثة، أنت لك خيارات كثيرة، خيارات مع مليون موضوع، مع مليار موضوع خيار قبول أو رفض، إلا أن خيارك مع الإيمان خيار وقت فإما أن نؤمن في الوقت المناسب قبل فوات الأوان، وننتفع بإيماننا، إما أن نؤمن ونسعد بإيماننا، إما أن نؤمن ونسلم بإيماننا، إما أن نؤمن وينبني على إيماننا أعمال جليلة، إما أن نؤمن وينبني على إيماننا سعادة في الدنيا والآخرة، وإما أنه لابدّ من أن نؤمن ولكن بعد فوات الأوان، هذا إيمان فرعون ماذا قال فرعون ؟

(فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (٢٤))

(سورة النازعات)

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي (٣٨))

(سورة القصص)

مرة عرضت صورته بندوة وهو قد لفت يده بالشاش، بعد أن عرضت صورته قلت هذا الذي قال من قبل أنا ربكم الأعلى، هذا الذي قال ما علمت لكم من إله غيري، حينما أدركه الغرق ماذا قال ؟

(قَالَ آَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آَمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ (٩٠))

(سورة يونس)

العاقل من آمن قبل فوات الأوان:

دققوا أيها الأخوة، والله الذي لا إله إلا هو ما من إنسان على وجه الأرض من الستة آلاف مليون إنسان يأتيه الموت إلا وتنكشف له الحقيقة التي جاء بها الأنبياء ولكن بعد فوات الأوان.

(قَالَ آَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آَمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) آَلْآَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آَيَةً (٩٢))

(سورة يونس)

وفرعون موسى الذي مات غرقاً لا يزال محنطاً في متاحف مصر، وقد أخذ إلى فرنسا لترميم بعض الفطور في يده، وصورته عندي وقد لفت يده بالشاش وهو بمنظر مخيف هذا فرعون، لذلك خيارك مع الإيمان خيار وقت بينما خيارك مع مليار موضوع خيار قبول أو رفض.

الإيمان ألصق بالإنسان من أي شيء آخر لارتباطه بسعادته و سلامته:

أيها الأخوة الكرام، ما أثمن شيء في الإيمان ؟ أن الله خلقك ليسعدك، فالإيمان به يعني تحقيق المراد الإلهي من وجودك، لأن الله خلقك ليسعدك في الدنيا والآخرة، فالإيمان به ماذا يعني ؟ يعني أن تحقق الهدف الكبير، الحكمة البالغة من خلقك، يعني الإيمان بالله من أجل سلامتك وسعادتك،

ولأن الإنسان كما تعلمون مفطور على حبّ وجوده، وعلى حبّ سلامة وجوده، وعلى حبّ كمال وجوده، وعلى حبّ استمرار وجوده، هذه الخصائص التي جُبل الإنسان عليها لا تتحقق إلا بالإيمان بالله، فمن أجل سلامة وجودك تؤمن، ومن أجل كمال وجودك تؤمن، ومن أجل استمرار وجودك تؤمن، فلذلك الإيمان ألصق بك من أي شيء آخر، الإيمان سلامتك، الإيمان سعادتك، الإيمان استمرارك إلى أبد الآبدين في جنة عرضها السماوات والأرض.

تسخير ما في السماوات و ما في الأرض للإنسان مكافأة له على حمل الأمانة:

أيها الأخوة الكرام، كلكم يعلم أن الله حينما عرض على الخلائق حمل الأمانة في عالم الأزل وهذه الحقيقة تؤكدها الآية الكريمة:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ (٧٢))

(سورة الأحزاب)

لأن الإنسان كلف حمل الأمانة، ولأنه صار المخلوق الأول الذي قبل حمل الأمانة، عندئذ سخر الله له ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه، هل تصدق أن كل المجرات سخرت لك أيها الإنسان من أجل أن تعرف الله، أنت المخلوق الأول، أنت الذي قبلت حمل الأمانة، أنت الذي قلت يا رب أنا لها، أنت الذي تصديت وقبلت حملها فكافأك الله على حملها وقبولها أن سخر الله لك ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه، لكن هذا التسخير هو تسخير تعريف وتسخير تكريم، وهذه حقيقة مهمة جداً أي شيء خلقه الله في الكون من أجل أن تتعرف إلى الله من خلاله، ومن أجل أن تنتفع به، الإنسان حينما يكفر يأخذ الجانب الثاني فقط ينتفع بكل شيء في أعلى درجات الانتفاع وهذا شأن العالم الغربي، انتفعوا بكل شيء خلقه الله عز وجل بأعلى درجة، كانوا مع النعمة ونسوا المنعم، كانوا مع الرحمة ونسوا الراحم، فلذلك الكافر قد يقف عند النعمة ويستغرق فيها ويستمتع فيها أشد الاستمتاع ويغفل عن الذي منحه هذه النعمة، أما الهدف الآخر وهو الأكبر هو أن تعرف الله من خلالها هذا المعنى مأخوذ من قول النبي عليه الصلاة والسلام:

((إِذَا رَأَى الْهِلَالَ قَالَ هِلَالُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ هِلَالُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ هِلَالُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ آمَنْتُ بِالَّذِي خَلَقَكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ثُمَّ يَقُولُ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي ذَهَبَ بِشَهْرِ كَذَا وَجَاءَ بِشَهْرِ كَذَا))

(سنن أبي داود عن قتادة)

أي شيء خلقه الله لك له وظيفتان: وظيفة تعريفية و وظيفة نفعية:

لذلك أي شيء خلقه الله لك له وظيفتان: وظيفة تعريفية به ووظيفة نفعية تنتفع به في الدنيا، وقد تكون الوظيفة التعريفية أول وظيفة فيما خلقه الله لك، للتقريب إذا شخص دخله محدود جداً بحيث لا يسمح له أن يلعق لعقة عسل واحدة، فقير وقرأ كتاباً عن العسل، وعن فوائد العسل، وعن النحل، وعن نظام النحل الدقيق، فبكى خشوعاً لله، اسمحوا لي أن أقول لكم إن هذا الإنسان حقق الهدف الأول من خلق النحل والعسل، أي أنه عرف الله من خلاله مع أنه لم يذق لعقة عسل واحدة لفقره الشديد، والذي يأكل العسل يومياً وليلاً ونهاراً ولم يفكر في هذه النعمة عطّل أكبر هدف من خلق النحل والعسل.

دققوا في هذا المعنى كل شيء خلقه الله لك له هدف نفعي وله هدف إرشادي، أنت إن لم تستفد منه في معرفة الله عز وجل هذا الهدف الإرشادي عطلته واكتفيت في الهدف النفعي الذي سبقك به الغربيون أشواطاً.

الهدف الإرشادي هو الهدف الأكبر من خلق السماوات والأرض:

بطولتك أن تنسب النعمة إلى المنعم، البطولة أن تعرف الله من خلال هذه النعم، قال تعالى:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠))

(سورة البلد)

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥))

(سورة عبس)

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧))

(سورة الطارق)

أوامر إلهية:

(قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠١))

(سورة يونس)

لذلك الهدف الإرشادي هو الهدف الأكبر من خلق السماوات والأرض بل هي مسخرة لك تسخير تعريف ومسخرة لك تسخير تكريم، ورد فعل التعريف أن تؤمن ورد الفعل التكريم أن تشكر، فإذا آمنت وشكرت حققت الهدف من وجودك، الدليل:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ (١٤٧))

(سورة النساء)

أنت حينما تؤمن وحينما تشكر حققت الهدف الأكبر من وجودك في الدنيا.

إيمان إبليس إيمان لا يقدم ولا يؤخر ولا ينجي:

أيها الأخوة الكرام، للأمانة العلمية هناك إيمان كإيمان إبليس هذا الإيمان لا يقدم ولا يؤخر، ولا ينجي ولا يسعد:

(قَالَ رَبِّ)

(سورة ص الآية: ٧٩)

آمن به خالقاً قال:

(خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (١٢))

(سورة ص)

(فَبِعِزَّتِكَ)

(سورة صَ: ٨٢)

آمن به رباً، وآمن به عزيزاً، وآمن بالدار الآخرة، قال:

(فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩))

(سورة ص)

وهو إبليس اللعين هو الذي يغوي البشر أجمعين.

من لم يجد أثر الإيمان في سلوك المسلمين صارخاً فهذا إيمان إبليسي:

لذلك هذا الإيمان الذي لا ينتج عنه استقامة والتزام ووقوف عند الحلال والحرام، هذا الإيمان الذي لا تجد له أثراً في السلوك، ترى المسلمين يؤمنون بالله واليوم الآخر دقق في حياتهم لا تجد أثراً لهذا الإيمان، لا في استقامته، ولا في ضبط شهواته، ولا في ضبط دخله، ولا في ضبط إنفاقه، ولا في ضبط أهله، وأولاده، وبناته، لا تجد أثر الإيمان في السلوك، إن لم تجد أثر الإيمان في السلوك صارخاً فهذا الإيمان إيمان إبليسي فلذلك:

(أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ (٥٤))

(سورة التوبة)

أثبت الله لهم أنهم يصلون، وينفقون أموالهم أحياناً، ولكنهم عند الله كفروا بالله وبرسوله، هذا كفر دون كفر، هذا كفر أنه ما قنع بالصلاة فرضاً، ما قنع بالزكاة، فإذا ما قنع بشيء فرضه الله عليه فهذا كفر دون كفر كما قال العلماء وإن كان يصلي.

أنواع الإيمان:

أيها الأخوة الكرام، نستنبط من هذا أنه يمكن أن يكون الإيمان دائرة، كل إنسان مؤمن بالله أي نوع من أنواع الإيمان ضمن هذه الدائرة، كل إنسان ملحد يقول لك هذا الكون محض صدفة، والأديان أفيون الشعوب، والأديان شعور الضعف أمام قوى الطبيعة، شعور الإنسان الضعيف أمام قوى الطبيعة، كل إنسان يفهم هذا الأمر هكذا ينبغي أن يكون خارج هذه الدائرة، وكل إنسان يقول الله موجود أي إنسانة ساقطة تعيش من عرض جسمها على الآخرين برمضان لا تعمل تخاف، معنى هذه مؤمنة نوع من الإيمان، هناك كثير من النساء في رمضان يكفون عن امتهان حرف تغضب الله عز وجل فقط برمضان إذاً مؤمنة، فكل إنسان آمن بالله بأي نوع من أنواع الإيمان ضمن هذه الدائرة، ضمن هذه الدائرة دائرة ثانية كل إنسان حمله إيمانه على طاعة الله في الدائرة الداخلية، هذا الإيمان المجدي الذي حمله إيمانه على طاعة الله، الذي حمله إيمانه على أن يكون وقافاً عند كتاب الله، الذي حمله إيمانه على أن يقول هذا حرام لا أفعله معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي، كل إنسان يمتنع عن شيء بدافع إيمانه، أو يفعل شيئاً بدافع إيمانه، هذا الإنسان بهذا المستوى في الدائرة الثانية، ولهذه الدائرة الثانية مركز في هذا المركز الأنبياء والمرسلون المعصومون، عندنا أنبياء ومرسلون معصومون دائرة، وحول هذا المركز دائرة كل إنسان حمله إيمانه على طاعة الله ضمن هذه الدائرة، وفي دائرة أوسع منها كل إنسان آمن بالله لكن لم يحمله إيمانه على طاعة الله، وكل إنسان ملحد أنكر وجود الله هو خارج هذه الدائرة.

الإيمان بلا عمل لا قيمة له إطلاقاً:

الآن الإيمان بلا عمل لا قيمة له إطلاقاً، أنا أفسر ذلك إنسان مصاب بمرض جلدي مرض مستعصٍ له علاج وحيد أن يعرض نفسه لأشعة الشمس، لو أنه جلس في غرفة قميئة مظلمة رطبة، وأثنى على الشمس، يا لها من شمس ساطعة، يا لها من شمس عظيمة، يا لها من شمس شافية، هذا كلام لا قيمة له إطلاقاً، ما لم يتحرك إلى ضوء الشمس فإيمانه بالشمس لا يقدم ولا يؤخر، يعني بمعنى أنك حينما تقول إن الشمس ساطعة هي ساطعة أنت ماذا فعلت ؟ ما فعلت شيئاً ما زدت عن أن أقررت بحقيقة ثابتة، فإن أنكرت هذه الحقيقة تُتهم بعقلك، لذلك الإيمان بلا عمل ليس له قيمة إطلاقاً إلى أن يحملك إيمانك على طاعة الله، قال تعالى:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ (١١٠))

(سورة الكهف)

المؤمن الناجي هو المؤمن الذي يحمله إيمانه على عمل صالح يتقرب به إلى الله:

ما بعد هذا الكلام تلخيص القرآن كله:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ (١١٠))

(سورة الكهف)

الملخص:

(أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ (١١٠))

(سورة الكهف)

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا)

(سورة الكهف)

لا يمكن أن تسمى مؤمناً ناجياً إلا إذا حملك إيمانك على عمل صالح تتقرب به إلى الله عز وجل، قال تعالى:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠))

(سورة الكهف)

الإيمان تصديق وإقبال والكفر تكذيب وإعراض:

الإيمان تصديق وإقبال، هناك جانب عقلي وهناك جانب نفسي، أخطأ خطأً فاحشاً من ظنّ أن الإيمان تصديق فقط، تصديق وإقبال، والكفر تكذيب وإعراض، من الجانب الأول أنه تصديق الإيمان لا يزيد ولا ينقص، أما من الجانب الثاني أنه إقبال الإيمان يزداد وينقص، قال تعالى:

(لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ (٤))

(سورة الفتح)

أي عمل صالح تقوم به في تضحية وفي بذل جهد تتألق به فيزداد إقبالك على الله من خلاله، إذاً إيمانك زاد بهذا العمل الصالح، إن صاحبت الصالحين قد تتأثر بصحبتهم فيزداد إيمانك بمعنى الجانب الآخر النفسي الإقبال، الجانب النفسي يزداد وينقص أما الجانب الاعتقادي ثابت.

الإيمان ما وقر في القلب وأقرّ به اللسان وصدقه العمل:

لذلك الإيمان في جانب اعتقادي وجانب نفسي، الاعتقادي تصديق والنفسي إقبال، الكفر في جانب عقلي تكذيبي وجانب إعراض، أحياناً يكون الطالب الأستاذ ملء السمع والبصر، جثة كبيرة وصوت جهوري والصف صغير، والأستاذ يملأ الصف مهابة وقوة وطلاقة لسان، والطالب ينشغل

عنه بحركات على دفتره، وكتابات لا معنى لها متشاغلاً عن هذا المدرس، هذا النوع نوع من الكفر، الكفر ليس تكذيباً بل هو إعراض، فأي إنسان أعرض عن الدين يقول أنا مؤمن لكن أنت أعرضت عنه، أعرضت عن عباداته، عن العمل الصالح، عن حضور مجالس العلم، لذلك الإيمان تصديق وإقبال والكفر تكذيب وإعراض، بهذا المقياس من مقياس الإيمان النفسي يزيد وينقص، والآية دقيقة:

(لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ (٤))

(سورة الفتح)

من هنا تعريف الإيمان، الإيمان ما وقر في القلب وأقرّ به اللسان وصدقه العمل.

هناك جانب داخلي إيمان داخلي وقر في القلب وصدقه اللسان وأكده العمل، يقابل ذلك عندنا كفر اعتقادي وكفر نطقي كلامي وكفر سلوكي، لو إنسان ألقى بالمصحف إهانة له هذا كفر عملي، وإذا قال هذا المصحف ليس كلام الله كفر قولي، وإذا اعتقد بأعماقه أن هذا كلام محمد لكن ما حكى ولا كلمة، عندنا كفر اعتقادي، وكفر نطقي كلامي، وكفر سلوكي، وعندنا إيمان بالقلب، وإيمان ينطق به اللسان، وإيمان يؤكده العمل.

لذلك أيها الأخوة الكرام، يقول الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا آَمِنُوا (١٣٦))

(سورة النساء)

أي إيمانكم لا يكفي، الإيمان درجات.

طرق الإيمان ثلاثة:

١ ـ التفكر في خلق السماوات و الأرض:

آخر شيء طرق الإيمان ثلاثة أن تتفكر في خلق السماوات والأرض والدليل قوله تعالى:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآَيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١))

(سورة آل عمران)

٢ ـ النظر في أفعال الله عز وجل:

وهناك طريق آخر أن تنظر في أفعال الله قال تعالى:

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١١))

(سورة الأنعام)

٣ ـ التدبر في آيات الله عز وجل:

في طريق ثالث هو التدبر في آيات الله عز وجل، التدبر في القرآن في آياته القرآنية، أي أن تتأمل وأن تعرض نفسك على هذه الآية أين أنت منها ؟هل أنت مطبق لها أم بعيد عنها أم تأخذ منها بعض الشيء وتهمل بعض الشيء الآخر ؟

إذاً طرق الإيمان التفكر في خلق السماوات والأرض التفكر في آياته الكونية، والتفكر في أفعاله التفكر في آياته التكوينية، والتدبر بكلامه وهو تدبر لآياته القرآنية.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٨هـ - مقاصد الشريعة - الدرس (٠٨- ٢٧) : الإيمان باليوم الآخر-١

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٧-٠٩-٢٦

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة عن اليوم الآخر:

١ – الدنيا عالَمُ المحسوسات، والآخرة عالَمُ الأخبار:

الحقيقة الأولى: أن الدنيا محسوسة تراها بحواسك الخمس، ترى القصر المنيف، ترى المركبة الفارهة، ترى المنطقة الجميلة، ترى المرأة الجميلة، الدنيا محسوسة، تراها بحواسك الخمس، إلا أن الآخرة خبر، خبر ورد في القرآن الكريم، لذلك بطولة المؤمن أنه آمن بالغيب، آمن بالخبر، وأعرض عن المحسوسات، معظم البشر عاشوا المحسوسات، واستمتعوا بها، ولم يلتفتوا إلى الخبر، أما هذا الذي التفت إلى الخبر، وأعرض عن المحسوسات فهذا عنده عقل راجح، لأنه تعامل مع الأشياء بعقله لا بحواسه.

للتقريب: قد تأكل طعاماً طيباً جداً، لكنه طعام مدمر، يؤذي القلب، يؤذي الشرايين، يسد معظم الشرايين، فإذا تعامل الإنسان مع الطعام بحواسه يجب أن يأكل كل شيء، وبلا قيد أو شرط، أما إذا تعامل مع الطعام بعقله فيأكل الطعام الذي لا يؤذيه.

٢ – التعامل العقلي مع الأشياء قد يجلب الضرر:

الحياة هكذا، إذا تعامل الإنسان مع بالشيء مع عقله تحدث حالة اسمها الحب العقلي، والكراهية العقلية، وحالة ثانية هي الحب الحسي، والكراهية الحسية، الطاعات أحياناً متعبة حسياً، الاستيقاظ إلى صلاة الفجر شيء متعب لمن نام متأخراً، لكن حينما يستيقظ يشعر براحة نفسية كبيرة جداً.

٣ – الإنسان إمّا تابعٌ للخبر الصادق أو تابعٌ للهوى:

إذاً: أنت أمام خيار صعب، إما أن يستجيب الإنسان للهوى، وإما أن يستجيب للخبر الصادق، فالمؤمن صدق بالخبر، والشيء المحسوس إذا كان مناقضاً لما وعده الله به يعرض عنه.

إذاً: الدنيا محسوسة، والآخرة خبر، والمؤمن صدق الخبر، ولم يعبأ بالمحسوسات، لذلك استحق الجنة، وثمن الجنة كقال تعالى:

(فَأَمَّا مَنْ طَغَى (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (٣٩))

(سورة النازعات)

لذلك الإيمان صبر، الإيمان قوة إرادة، الإيمان أن تتحرك وفق المساحة التي سمح الله بها.

٤ ـ كلُّ شهوة في الإنسان لها قناة شرعية نظيفة:

لكن بالمناسبة، ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا وجعل لها قناة نظيفة تسري خلالها، أية شهوة فيها حيز مسموح به فالمؤمن جعل حركته في هذه الشهوة في الحيز المسموح به، قال تعالى:

(بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (٨٦))

(سورة هود)

الآية الثانية:

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ (٥٠))

(سورة القصص)

معنى ذلك أن الذي يتبع هواه وفق هدى الله عز وجل لا شيء عليه.

المحسوسات والمعقولات والإخباريات:

أيها الإخوة الكرام، الذي أتمنى أن يكون واضحاً، في الإسلام ثلاثة دوائر كبرى، دائرة المحسوسات، ودائرة المعقولات، ودائرة الإخباريات، وأيّة قضية في حياتك لا بد من أن تنضم إلى إحدى هذه الدوائر.

١ ـ المحسوسات تُدرَك بالحواس الخمس أو ما كان في حُكمِها:

الأشياء المادية التي ظهرت عينها كهذه الطاولة، وهذا الضوء، وهذا المسجد، وهذا الأثاث، أداة اليقين بها الحواس الخمس، أو استطالات الحواس الخمس، ميكروسكوب استطالة، والتليسكوب استطالة، هذا جانب ليس عليه خلاف إطلاقاً.

٢ ـ المعقولات تُدرَك بالعقل:

الجانب الثاني: الأشياء إذا غابت عينها وبقيت آثارها، أداة اليقين بها العقل، مهمة العقل أن تعطيه شيئاً مادياً محسوساً، شيئاً يُرى، شيئاً يُسمع، شيئاً يُلمس، فيحكم على صانعه، صانعه غاب عنك. أنت أمام غرفة نوم، النجار لا تراه، لكن ترى صنعته، فمهمة عقلك أن تحكم على الصانع من الصنعة، وعلى المسير من التسيير، وعلى الحكيم من الحكمة، مهمة العقل أن تعطيه شيئاً محسوساً،

وأن يستنبط منه شيئاً غائباً عنه، فلذلك أية قضية غابت عينها، وبقيت آثارها أداة اليقين بها العقل، يا ترى هذا المسجد هل فيه الكهرباء، الكهرباء لا ترى، لكن ترى آثارها، تألق المصباح، تكبير الصوت، عمل المكيف، هذه آثار الكهرباء، فالكهرباء غابت عينها، وبقيت آثارها، هذا شأن العقل، لذلك الله عز وجل خالق السماوات والأرض لا تدركه الأبصار، ولكن الكون كله يدل عليه، ذاته العلية لا نراها، لكن نرى آثارها، نرى الكون، نرى الأطيار، نرى الأسماك، نرى البحار، نرى الجبال، نرى النباتات، نرى كل شيء، فكل هذا الكون أثر من آثار الله عز وجل.

إذاً: يمكن أن تؤمن بالله بعقلك، العقل أصل في الإيمان، أداة الإيمان هي العقل بالله خُلِقتْ في الإنسان، لتكون أداة للإيمان بالله.

إعمالُ العقل في الكون طريق إلى الإيمان بالله:

أيها الإخوة الكرام، هذه الدائرة الثانية.

الآن الكون هو الثابت الأول، وهو يدلك على الله، فإذا أعملت عقلك في الكون توصلت إلى أن هذا الكون لا بد له من إله عظيم، إله حكيم، إله قدير، إله غني، إله رحيم، إله لطيف، يمكن أن تؤمن بالله من خلال عقلك عن طريق الآثار التي تراها بعينيك، وتسمعها بصوت أذنيك.

٣ ـ الغيبيّاتُ لا تُدرك إلا بالخبر الصحيح عن الله ورسولِه:

لكن الشيء إذا غابت عينه، وغابت عنك آثاره فلا الحواس الخمس يمكن أن تصل إليه، ولا العقل يمكن أن يصل إليه، وليس هناك إلا شيء واحد يصل إليه، إنه الخبر الصادق، لذلك أجمع العلماء على أن الإيمان باليوم الآخر يقين إخباري، لأن الله أخبرك.

التسلسل أنك إذا فكرت في خلق السماوات والأرض آمنت بالله خالقاً ومربياً ومسيراً، آمنت بصفاته الحسنى وصفاته الفضلى.

إذا قرأت القرآن، ورأيت وقوع الوعد والوعيد، ورأيت إعجازه العلمي توصلت بعقلك إلى أنه كلام الله، لوجودِ أدلة قاطعة على أنه كلامه، وأن هذا الذي جاء به هو رسوله، إذاً: يمكن أن تؤمن بالله بعقلك، وبكتابه بعقلك، وبرسوله بعقلك، وانتهى دور العقل، وجاء دور النقل، وأيّ شيء عجز عقلك عن إدراكه أخبرك الله به في النقل.

يمكن إذا دخلتَ جامعة أن تكتشف بعقلك الأذواق في بنائها، والمرافق الأساسية في بنائها، وأن تحكم على المهندس بالتفوق، وكأن المهندس طالب جامعي يعرف كل مشكلات الطلاب في الغرف الجامعية، في الحدائق، في المدرجات، في المخابر، فأنت بعقلك يمكن أن تستنبط آلاف الحقائق من خلال البناء والحدائق، والمدرجات والمخابر، والمكتبات، لكن لا يمكن أن تعرف بعقلك من هو

عميد الجامعة، ولا من هم رؤساء الأقسام، ولا نظام القبول، ولا نظم النجاح والرسوب، إلا أن تقتني كتاباً عن الجامعة، هذا هو النقل.

الإيمان بالآخرة إيمان إخباري نقلي سمعي:

لذلك أيّ شيء عجز عقلك عن إدراكه أخبرك الله به، الإيمان بالآخرة إيمان إخباري نقلي سمعي أسماء لمسمى واحد سمعي إخباري نقلي، والإيمان بالله والإيمان برسوله وبقرآنه إيمان عقلي، والإيمان بالأشياء إيمان حسي، فعندك وإيمان حسي، وإيمان عقلي، وإيمان إخباري.

رأي ابن قيم الجوزية في الإيمان باليوم الآخر بالعقل:

إن للإنصاف أن نقول: إن الإمام الجليل ابن قيم الجوزية انفرد من بين العلماء، فقال: إن الإيمان باليوم الآخر إيمان عقلي، لأن هناك يومها سؤلا كبيرا، وفي الدنيا غني وفقير، قوي وضعيف، وسيم ودميم، عبقري ومحدود، والحظوظ موزعة في الدنيا توزيعا متفاوتا، فهل يعقل أن يستمتع الغني بالمال، ويأكل ما لذ وطاب، ويسكن أجمل البيوت، ويركب أغلى المركبات، ويسافر، ويختار أجمل زوجة، بينما الفقير محروم من لقمة الطعام، وتنتهي الحياة ؟!

إنسان قاد حرباً فأفنى بها خمسين مليونا، ومات، وتنتهي الحياة ؟! العقل لا يقبل ذلك، لا بد من تسوية الحسابات، لا بد من يوم تسوى فيه الحسابات، لا بد من يوم يدفع كل إنسان ثمن عمله، قال تعالى:

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (٣٦))

(سورة القيامة)

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣))

(سورة الحجر)

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (٤٢))

(سورة إبراهيم)

(لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ (١٧))

(سورة غافر)

(فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ (٧٠))

(سورة التوبة)

(وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (١٢٤))

(سورة النساء)

النقير هو رأس النواة المؤنّف كالإبرة الدقيق:

(وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (١٢٤))

(وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧١))

(سورة الإسراء)

النقير هو خيط بين فلقتي النواة.

والفتيل هو غشاء رقيق يلفّ النواة، قال تعالى:

(فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ (٤٧))

(سورة الأنبياء)

لذلك العقل لا يصدق يكون إنسان غني كبير، وإنسان فقير فقرا مدقعا، وتنتهي الحياة هكذا !!! إنسان جاء فملك الدنيا كلها بين يديه، وإنسان لا يستطيع أن يسكن في غرفة، بل ينام في الطريق، وتنتهي الحياة، ولا شيء بعد الحياة !!! هذا الذي أكده ابن القيم رحمه الله تعالى.

أيها الإخوة الكرام، الإيمان بالآخرة إيمان إخباري عند معظم العلماء لأن الله أخبر عنه، أما عند ابن القيم فالإيمانُ بالآخرة عقلي.

بعض العلماء جاء بمثل لطيف: لو أن أناسا حضروا مسرحية، وفي أول الفصل وُجد إنسان مقتولا في المسرحية، وأرخي الستار، لا أحد يقوم، ما انتهت المسرحية، لا بد أن نرى النتائج، مَن القاتل ؟ ماذا فُعل به ؟ فلذلك الإنسان لا يقبل حدثا عنيفا بلا نتائج، بلا عقاب، بلا ثواب.

لابد من الجزاء الحسَن للمحسن والعقاب للمسيء:

أسماء الله الحسنى كلها محققة في الدنيا، إلا اسم العدل فمحقق جزئياً، فالله سبحانه وتعالى يكافئ بعض المحسنين تشجيعاً لبقية المحسنين، ويعاقب بعض المسيئين ردعاً لبقية المسيئين، ولكن الحساب النهائي والختامي يوم القيامة، قال تعالى:

(وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ (١٨٥))

(سورة آل عمران)

لذلك ورد في بعض الآيات:

(وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا (٧١))

(سورة مريم)

وقال علماء التفسير: " ورود النار غير دخولها "، ورودها شيء، ودخولها شيء آخر، دخولها عقاب، أما ورودها فاطلاعٌ، لا يتأثر وارد النار بوهجها.

مرة ذهبت إلى معرض للثعابين في طهران، بيني وبين ثعبان طوله عشرين مترا تقريباً عشرة سنتمترات، لكن بيننا بلّور من ثمانية مليمترات، لذلك دققت في دقائق جسمه، وفي رأسه، وفي لسانه، وفي سمه لوجود الحاجز، لذلك قالوا: ورود النار لا يتأثر الوارد لها بوهجها، لكن لترى عدل الله في الآخرة، ترى هؤلاء الطغاة الذين تفننوا في إبادة البشر، تفننوا بإذلالهم، تفننوا بإفقارهم، بنوا مجدهم على أنقاضهم، ترى عدل الله التام، لذلك:

لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (١٥)

(سورة طه)

أسماء الله الحسنى كلها محققة في الدنيا إلا اسم العدل فمحقق جزئياً، لذلك الدنيا ليست دار جزاء، هي دار ابتلاء فقط، والحظوظ موزعة في الدنيا توزيع ابتلاء.

الإنسان في الدنيا ممتَحَنٌ:

١ ـ الإنسان ممتَحَنٌ بالنِّعم:

أنت في الدنيا ممتحن، وعندك زمرتان من الامتحان: أول زمرة: النعم التي أعطاك الله إياها، فأنت ممتحن بها، أعطاك صحة، مالا، زوجة، أولادا، ممتحن بهذه.

٢ ـ الإنسان ممتَحَنٌ بالمنع والحرمان:

أنت ممتحنٌ إذا لم يسمح الله لك بدخل غير محدود، دخلك محدود، حرمك الدخل المطلق، حرمك الغنى، حرمك الوسامة، هناك إنسان وسيم جداً، وإنسان أقلّ وسامة، وإنسان غير وسيم، فلذلك أنت ممتحن بما أعطاك ممتحن بما زوي عنك، ومن أجمل الأدعية: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَزِيدَ الْخَطْمِيِّ الْأَنْصَارِيِّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ:

((اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي حُبَّكَ، وَحُبَّ مَنْ يَنْفَعُنِي حُبُّهُ عِنْدَكَ، اللَّهُمَّ مَا رَزَقْتَنِي مِمَّا أُحِبُّ فَاجْعَلْهُ قُوَّةً لِي فِيمَا تُحِبُّ، اللَّهُمَّ وَمَا زَوَيْتَ عَنِّي مِمَّا أُحِبُّ فَاجْعَلْهُ فَرَاغًا لِي فِيمَا تُحِبُّ))

[الترمذي]

يا رب هذا الذي كنت أحبه، وقد أكرمتني به فاجعله عونا لي على طاعتك، وما زويت عني ممّا أحب فاجعله فراغاً لي فيما تحب.

أنت تشكر الله مرتين: مرة على ما أعطاك، ومرة على ما زوى عنك، وأنت في كلا المرتين مثاب عند الله عز وجل.

الحظوظ في الدنيا موزعة توزيع ابتلاء و في الآخرة توزيع جزاء:

أيها الإخوة الكرام، الحظوظ في الدنيا موزعة، هناك غني وفقير، قوي وضعيف، إنسان يستطيع أن يحجز حرية الآلاف، وبلا سبب، وإنسان لا يقدر على ابنه، هناك قوي وضعيف، غني وفقير، هناك امرأة جميلة جداً، وامرأة دميمة جداً، الدميمة لها حق عند الله، حق كبير، لولا الآخرة لنشأ مليون سؤال لا جواب له، هذه الدميمة ما ذنبها ؟ والله قد تكون أسعد امرأة في الآخرة، صبرت، واستقامت، وحفظت نفسها.

أحيانا تأتي امرأة من عشرة آلاف كيلو متر تخدم في البيت من شدة الفقر، تركت زوجها وأولادها من أجل مبلغ يسير تأخذه لتطعم زوجها وأولادها، وهي مستقيمة، وتصلي، وتصوم، ومحجبة، هذه ما لها شيء عند الله عز وجل ؟!! قلامة ظفر هذه الخادمة افضل من آلاف النساء، والخادمة التي عندك قد تكون أسعد من أي امرأة من علية القوم، وفي الآخرة تسوّى الحسابات.

((كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ))

[الترمذي عن أنس بن مالك]

فالحظوظ موزعة في الدنيا توزيع ابتلاء، وسوف توزع في الآخرة توزيع جزاء، قال تعالى:

(انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ (٢١))

(سورة الإسراء)

هل رئيس غرفة تجارة كبائع متجول ؟ كلاهما تاجر، هل هذا كذاك ؟

هل أستاذ جامعي كأستاذ في قرية كمعلم ابتدائي ؟ هناك فرق في المكانة والدخل والأدوات.
هل طبيب قلب جرّاح كممرض ؟ مستحيل.

هل رئيس أركان كجندي غر في خندق في الخطوط الأمامية في الشتاء ؟ هل هذا كذاك ؟

(انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا (٢١))

(سورة الإسراء)

حظوظ الدنيا لا معنى لها، وقد تعني العكس، قال تعالى:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً(٤٤))

(سورة الأنعام)

أما حظوظ الآخرة فأبدية، ومراتب الآخرة أبدية، وتعني كل شيء، والبطولة أن يكون لك في الآخرة مقعد صدق عند مليك مقتدر، وأكبر خسارة تصيب الإنسان أن يخسر الآخرة.

الدنيا دار عمل، والآخرة دار جزاء:

أيها الإخوة الكرام، الدنيا دار ابتلاء، وليست دار جزاء، وهذه حقيقة مهمة، وعندما تعقل هذه الحقيقة لا تتألم إطلاقاً، قد يكون هذا المبتلى الفقير قلامة ظفره تساوي أكبر قوي في الأرض، وهناك أقوياء في الأرض وأناس يحكمون القارات الخمس، يهددون، ويحاصرون، ويتوعدون، ويتهمون بالإرهاب من يريدون، كلمتهم مسموعة، وأمرهم نافذ، وقد يأتي إنسان خادم مستقيم لو كشف الغطاء لظهر أن هذا الخادم أسعد أهل الأرض عند الله، لذلك:

(إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (٣))

(سورة الواقعة)

الذي كان في القمة قد يصبح في الحضيض، والذي كان في الحضيض قد يصبح في القمة، هذا الإيمان بالآخرة.

أيها الإخوة الكرام، الدنيا دار عمل، والآخرة دار جزاء، الدنيا دار تكليف، والآخرة دار تشريف.

التقييم الحقيقي للأعمال بمعايير الآخرة لا بمعايير الدنيا:

أنا أنصح إخوتي: لا تقيّم شيئاً في الدنيا إلا أن تضمّ له الآخرة، مطعم متواضع جداً، صاحبه مستقيم، كل الأشياء تباع فيه شرعية، مطعم من خمس نجوم تباع فيه الخمور، والأماكن إضاءتها خافتة، لأيّ واحد أحب أن يجلس جلسة طويلة مع فتاة لا تحل له، يبقى ساعات يأكل، وكل الظروف ميسرة له، مطعم دخله في اليوم مليون ليرة، ضمّ الآخرة إلى المطعمين تجد المطعم المتواضع الصغير الذي يبيع بضاعة وطعاما حلالا مئة بالمئة أفضل ألف مرة من ذلك المطعم، حتى المناصب، ضمّ المنصب إلى النتائج.

أحيانا أعمال أساسها ابتزاز أموال الناس، أعمال أساسها إلقاء الرعب في قلوب الناس، يجب أن تقيّم العمل والشيء والمادة مع إضافة الآخرة إليها، هذه البطولة، لذلك امرأة بارعة الجمال دعت سيدنا يوسف، بالمقاييس الحسية إن لم يُقدِم فهو أحمق، بمقاييس الآخرة:

(قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ (٢٣))

(سورة يوسف)

أيها الإخوة الكرام، حينما تؤمن بالآخرة لا بد من أن تنعكس مقاييسك مئة بالمئة، إن لم تنعكس فالإيمان بالآخرة مشكوك فيه، لأنه من يؤمن بالآخرة سعادته بالعطاء لا بالأخذ، والذي آمن بالدنيا سعادته في الأخذ لا في العطاء.

أيها الإخوة الكرام، لعل هذا الموضوع يحتاج إلى درس آخر، وإن شاء الله نتابع هذا الدرس غداً.

والحمد لله رب العالمين

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٧-٠٩-٢٧

بسم الله الرحمن الرحيم

الإيمان باليوم الآخر:

١ – الإيمان باليوم الآخر يدفعك إلى بذل الجهد وخدمة الناس:

لقد بينت من قبل أنك إذا آمنت باليوم الآخر الإيمان الذي ينبغي فلا بد من أن تنعكس مقاييسك، فهناك إنسان يفرح أيّما فرح بالأخذ، وإن أيقنت باليوم الآخر تفرح أيّما فرح بالعطاء، لكن المقياس انعكس اليوم، وإن آمنت باليوم الآخر تفرح ببذل الجهد، وإن لم تؤمن الإيمان الذي فإنك ترى نفسك ذكياً إذا استهلكت جهد الآخرين، وقد كان عليه الصلاة والسلام مع أصحابه في سفر فأرادوا أن يعالجوا شاةً، فقال أحدهم:

((عليّ ذبحها، وقال الثاني: عليها سلخها، وقال الثالث: وعليّ طبخها، فقال عليه الصلاة والسلام: وعليّ جمع الحطب، سيد الخلق وحبيب الحق هو يخدم دائماً، قال: وعليّ جمع الحطب، قالوا: نكفيك ذلك، فقال: أعلم أنكم تكفونني ذلك، ولكن الله يكره أن يرى عبده متميزاً على أقرانه))

[ورد في الأثر]

في بدر الصحابة كان ثلاثمئة وأربعة عشر رجلا، والرواحل قليلة، فعَن ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ:

((كَانُوا يَوْمَ بَدْرٍ بَيْنَ كُلِّ ثَلَاثَةِ نَفَرٍ بَعِيرٌ، وَكَانَ زَمِيلَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلِيٌّ وَأَبُو لُبَابَةَ، قَالَ: وَكَانَ إِذَا كَانَتْ عُقْبَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَا لَهُ: ارْكَبْ حَتَّى نَمْشِيَ عَنْكَ، فَيَقُولُ: مَا أَنْتُمَا بِأَقْوَى مِنِّي، وَمَا أَنَا بِأَغْنَى عَنْ الْأَجْرِ مِنْكُمَا))

[أحمد]

هو قائد الجيش، وزعيم الأمة، ورسول الله، ونبي الأمة، حبيب الحق، مع ذلك سوّى نفسه مع أقل جندي، وأنا وعلي وأبو لبابة على راحلة، ركب النبي عليه الصلاة والسلام، وانتهت نوبته في الركوب، وجاء دور أصحابه في الركوب، فتوسلا إليه صاحباه أن يبقى راكباً، فتعجب، قال:

((مَا أَنْتُمَا بِأَقْوَى مِنِّي، وَمَا أَنَا بِأَغْنَى عَنْ الْأَجْرِ مِنْكُمَا))

٢ – الإيمان باليوم الآخر يعكس مقاييس المؤمن:

إذا لم تنعكس مقاييسك مئة بالمئة يكون الإيمان الذي أنت عليه غير الذي ينبغي، والناس تَبَعٌ للأقوياء أو الأنبياء، فالأقوياء أخذوا ولم يعطوا، والأنبياء أعطوا ولم يأخذوا.

دخل عمر بن الخطاب على النبي الكريم، وقد اضطجع على حصير أثر في جنبه الشريف، قال عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْعَبَّاس: حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ قَالَ:

((دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ عَلَى حَصِيرٍ، قَالَ: فَجَلَسْتُ فَإِذَا عَلَيْهِ إِزَارٌ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ غَيْرُهُ، وَإِذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ، وَإِذَا أَنَا بِقَبْضَةٍ مِنْ شَعِيرٍ نَحْوِ الصَّاعِ، وَقَرَظٍ فِي نَاحِيَةٍ فِي الْغُرْفَةِ، وَإِذَا إِهَابٌ مُعَلَّقٌ، فَابْتَدَرَتْ عَيْنَايَ، فَقَالَ: مَا يُبْكِيكَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ ؟ فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، وَمَالِي لَا أَبْكِي وَهَذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِكَ، وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ لَا أَرَى فِيهَا إِلَّا مَا أَرَى، وَذَلِكَ كِسْرَى وَقَيْصَرُ فِي الثِّمَارِ وَالْأَنْهَارِ، وَأَنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ وَصَفْوَتُهُ، وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ ؟ قَالَ: يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، أَلَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَنَا الْآخِرَةُ وَلَهُمْ الدُّنْيَا ؟ قُلْتُ: بَلَى))

[ابن ماجه]

إذا لم تنعكس مقاييسك في كل شؤون الحياة مئة وثمانين درجة فإيمانك باليوم الآخر ليس كما ينبغي، الأقوياء أخذوا ولم يعطوا، والأنبياء أعطوا ولم يأخذوا، الأقوياء عاش الناس لهم، والأنبياء عاشوا للناس، بين أن تنطلق من العطاء أو أن تنطلق من الأخذ فرق كبير، بدل أن تكون في خدمة من حولك أو أن تكون مهيمناً على من حولك تبتز أموالهم وتنتهك أعراضهم فرقٌ كبير أيضا.

٣ – الإيمان واليوم يمنعك من إيذاء المخلوقات:

أيها الإخوة الكرام، ما من ركنين من أركان الإيمان تلازما في القرآن الكريم كالإيمان بالله واليوم الآخر، لأن بالإيمان بالله يحملك على طاعته، أما الإيمان باليوم الآخر فيمنعك أن تؤذي مخلوقاً بدءًا من نملة، فعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ

((دَخَلَتْ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا فَلَمْ تُطْعِمْهَا، وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ))

[مُتَفَقٌ عَلَيْه]

فما قولكم بما فوق الهرة ؟ ما قولكم بمن يدمر الشعوب، ويلقي عليهم القنابل الذرية ؟ ثلاثمئة ألف إنسان في هيروشيما فقدوا حياتهم في ثلاث ثوان بقرار.

٤ – الإيمان واليوم ثابت بالعقل أيضًا:

لذلك أيها الإخوة الكرام، أغبى إنسان على وجه الأرض هو الذي يتوهم أن الإنسان يترك سدى بلا حساب، ففي الدنيا قوي وضعيف، غني وفقير، القوي سحق الضعيف، والغني استغل الفقير،

وصحيح تمتع بصحة، ومريض عانى ما عانى، وتنتهي الحياة، ولا شيء بعد الموت ؟ هذا الذي قاله ابن القيم: " إن الإيمان باليوم الآخر ثابتٌ بدليل عقلي "، لأن كمال الخلق يدل على كمال التصرف، وخَلْقُ معجز، وهذا الإله العظيم الذي تظهر أسماءه الحسنى في خلقه أيعقل أن يظلم ؟ قال تعالى:

(وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (١٢٤))

(سورة النساء)

(وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧١))

(سورة الإسراء)

ولا تظلمون قطميرا، قال تعالى:

(فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ (٤٧))

(سورة الأنبياء)

(لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ (١٧))

(سورة غافر)

(فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ (٧٠))

(سورة التوبة)

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (٣٦))

(سورة القيامة)

لا تنتهي الحياة هكذا:

الأخ الأكبر يأخذ معظم التركة بحكم قوته وهيمنته، ويبقي إخوته الصغار بلا شيء، وتنتهي الحياة هكذا ؟

الشريكان، شريك قوي، كل شيء باسمه، والثاني لا شيء باسمه، يأخذ معظم الأرباح، وهو مهيمن، وتنتهي الحياة هكذا ؟

زوج يتفنن بإذلال زوجته وإهانتها وضربها وسب أهلها ثم تنتهي الحياة هكذا ؟

معلم لا يعلم الناس، يمضي الوقت بلا فائدة، ويأخذ راتبه، وتمضي الحياة هكذا

قال تعالى:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣))

(سورة الحجر)

مرة ثانية: إن آمنت باليوم الآخر الإيمان الذي ينبغي إن لم تنعكس انعكاسا مقاييسك كاملا فلا يكون إيمانك كما ينبغي، لذلك المؤمن بنى حياته على العطاء.

٥ – أجر الآخرة أعظم فلا تطلب الأحر الدنيوي على العمل الصالح:

لكن للتقريب: لو أن ملِكًا كلف أستاذا أن يعلم ابنه، الملك عطاءه أقلّ شيء بيتٌ وسيارة، لكن هذا المعلم أفُقه محدود جداً، مضت عشرة دروس، قال للابن: أين الأجرة ؟ قال: كم تريد ؟ قال له: ألف ليرة للساعة لواحدة، قال له: هذه عشرة آلاف، والملِك كان يريد أن يعطيه بيتا وسيارة، فأنت لما قبلت أن تأخذ أجرا على عملك الصالح معنى ذلك أن أفقك محدود جداً، ولو احتسبت هذا عند الله لوجد الأجر العظيم، قال تعالى:

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً (٢٤٥))

(سورة البقرة)

أيّ مخلوق، هرة، كلب، إنسان تعرفه، أو لا تعرفه، من ملتك، أو ليس من ملتك، من دينك، أو ليس من دينك، هذا عبدٌ لله عز وجل، الإنسان بنيان الله، وملعون من هدم بنيان الله، هذا الدين دين إحسان لكل الخلق.

٦ – لسانُ حال الناس تكذيبٌ باليوم الآخر:

أيها الإخوة الكرام، لأن الإيمان باليوم الآخر له مشكلة كبيرة، ليس في العالم الإسلامي كله إنسان يجرؤ أن يكذب باليوم الآخر بلسانه، لكن الشيء المؤلم أن سلوك الناس اليومي ينبئ أنهم لا يؤمنون باليوم الآخر، الذي يغتصب محلا، يغتصب شركة، يتفنن بظلم زوجته، يغش المسلمين، يحضر مواد غذائية لا تصلح للاستعمال البشري فيبيعها، هذا الذي يظن أن الله لا يحاسب، وأنه وذكي، هذا أغبى إنسان على وجه الأرض، قال الله عز وجل :

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢))

(سورة البروج)

لذلك رأس الحكمة مخافة الله.

٧ – الإيمان باليوم الآخر أكبر رادع للإنسان:

أيها الإخوة الكرام، بشكل صريح: ما من شيء يردع الإنسان كالإيمان باليوم الآخر، وهناك كلام يقال أنا أعتقد أنه لا معنى له، يقول لك أحدُهم: تربية بيتية، ضمير مسلكي، روادع أخلاقية، والحقيقة سوى الخوف من الله لا يردع، ويمكن للتربية البيتية أن تؤثر على مستوى ألف أو ألفين إلى عشرة آلاف، أما على مستوى عشرة ملايين فمستحيل.

إن معامل الأسمنت كلما طبخت طبخة تصب في مكعبات، وهناك جهاز يمسك المكعب من أعلاه وأسفله، وثمة كفة توضع فيها أثقال، على أي وزن يكسر في وزن يكسر، الإسمنت قوة صموده أمام الضغط عالية جداً، والسنتمتر المكعب يتحمل خمسمئة وخمسين كيلوا فوقه، أما على قوى الشد فعلى خمسة ونصف كيلو يقع، وكل مؤمن عنده درجة ينهار بها حسب إيمانه، وأحيانا يتعفف الإنسان عن شيء بسيط، لكنه فينسى من أجله مبادئه وقيمه من أجل عن الشيء الكبير جداً، لذلك قال تعالى:

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (٣٠))

(سورة المؤمنون)

الخوف من الله أكبر رادع، هو الرادع الحقيقي:

((ما من عثرة، ولا اختلاج عرق، ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم، وما يغفر الله أكثر))

[أخرجه ابن عساكر عن البراء]

ما مِن حل لصلاح الدنيا إلا بالإيمان باليوم الآخر.

أضرب مثلا آخر:

لو أن إنسانا سافر إلى بلد مجاور، وفي هذا البلد المجاور حرية اقتصادية بالغة جداً، وبضائع رخيصة جداً، وممتازة جداً، والبلد الأول الذي كان فيه تكتنفه صعوبات اقتصادية كبيرة، هذا المواطن انتقل من بلد إلى بلد، في أثناء المغادرة وجد تفتيشا لا يحتمل، كل شيء يملكه المسافر العائد يفتش، وعليه غرامات كبيرة جداً، فلا يتساهلون في شيء، عندما وصل إلى البلد الذي فيه رخاء اقتصادي كلما شاهد حاجة جيدة وسعرها معقول ورخيصة جداً قال: أريد أن أشتريها، لكن لا يمكن أن تدخل إلى بلدي لأن عليها غرامة مالية، كلما قرر أن يشتري حاجة يتذكر كيف كان يحاسب المواطن في الحدود، هذا حال المؤمن ؛ كلما أراد أن يفعل شيئًا يتذكر حساب الله عز وجل، لذلك هذا الذي يتصور العدل الإلهي مستمراً ودائماً هو المستقيم.

سألوا طالبا أحرز الدرجة الأولى في الثانوية: بِمَ نلت هذا التفوق ؟ قال: لأن لحظة الامتحان لم تغادر مخيلتي لحظة، والإيمان باليوم الآخر قبل أن تقول كلمة تسأل: يا ترى هذه الكلمة سأحاسب عليها ؟

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ لَا يَرَى بِهَا بَأْسًا يَهْوِي بِهَا سَبْعِينَ خَرِيفًا فِي النَّارِ))

مسلم والترمذي، واللفظ للترمذي]

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: حَكَيْتُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلًا فَقَالَ:

((مَا يَسُرُّنِي أَنِّي حَكَيْتُ رَجُلًا وَأَنَّ لِي كَذَا وكَذَا، قالَتْ: فقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إنَّ صَفِيَّةَ امْرَأَةٌ، وَقالَتْ بِيَدِهَا هَكَذَا، كَأَنَّهَا تَعْنِي قصِيرَةً، فقالَ: لَقدْ مَزَجْتِ بِكَلِمَةٍ لَوْ مَزَجْتِ بِهَا مَاءَ الْبَحْرِ لَمُزِجَ))

[الترمذي]

((وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ ؟ فقالَ: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ، أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ))

[أخرجه الترمذي وصححه وابن ماجه والحاكم عن معاذ]

حينما تؤمن باليوم الآخر فإنك تفكّر مَلِيًّا قبل أن تظلم مخلوقا قبل أن تدوس على نملة، قبل أن تجيع هرة:

عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((دَخَلَتْ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا، فَلَمْ تُطْعِمْهَا، وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ حَتَّى مَاتَتْ هَزْلًا))

[مُتَّفَقٌ عَلَيْه]

والله عز وجل قال عن ذاته العلية:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢))

(سورة البروج)

لذلك مَن هو الأحمق ؟ الذي لا يخاف من الله.

مرة قال لي طالب أرعن: أنا لا أخاف من الله، سبحان الله ! الله ألهمني جوابا، قلت له: أنت بالذات معك حق، قال: كيف معي حق ؟ قلت له: يا بني، الفلاح عنده ابن صغير عمره أربع سنوات يأخذه معه إلى حقل القمح، فيضعه بين القمح، فيمر ثعبان فلا يخاف منه، لأنه لا إدراك له فلا خوف عنده، فمِن أين يأتي الخوف ؟ من الإدراك، قلت له فلما يعرف الإنسان الله، يعرف أن عنده ورما خبيثا، وفشلا كلويا، وتشمعَ الكبد، وخثرة بالدماغ، وشللا وعمى، وأمراضا وبيلة، حينئذ يخاف، وكل هؤلاء العباد عباده، والله كبير.

والله أيها الإخوة، كلمة كبير لا أرتوي منها، إياك أن تغلط مع مخلوق، إياك أن تظلم مخلوقا، إياك تظلم صانعا.

ازدواجية المعايير عنصرية وظلمٌ:

قال لي أحدُهم: عندي صانع يتيم ترجاني كثيرا أن يخرج من العمل قبل الدوام بساعة ليلتحق بمدرسة ليلية، ليأخذ شهادة الكفاءة، فما سمحت له، لأنه عندما يتعلم يهرب، ثم قال: ووضعت لابني مليون ليرة من أجل دروس خاصة ليصبح طبيبا، اتق الله فإنه سوف يحاسبك على هذا اليتيم إذا لم

يتعلم، وابنك تريده طبيبا، هذا رجل عنصري، وكل إنسان يرى لنفسه ما لا يرى للآخرين فهو عنصري.

إذا رأى الزوج أن مِن حقه أن يستهزئ بأهل زوجته، وبأم زوجته، وبكل شيء يمس بزوجته، وإذا تكلمت الزوجة حرفا واحدا عن أمه وأبيه يسحقها، هذا عنصري.

إذا لم يَقبل الأب أن تُعامَل ابنتُه كما يعامل زوجة ابنه في البيت فهو عنصري.

إذا كان عند صاحب المحل ابنٌ، وعنده موظف في مشتركة مع ابنه، فإنه يحمِّل الشاب الموظَّف ما لا يطيق، وإذا حمل ابنه شيئًا يخاف عليه، هذا عنصري، والعنصرية شيء خطير جداً، وهي صفة لإنسان أحمق يرى لنفسه ما ليس للآخرين، هذا حتى في الزواج، قال تعالى:

(وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ (٢٢٨))

(سورة البقرة: من الآية ٢٢٨)

ما لم تكن إنسانياً فالطريق إلى الله ليس سالكاً.

أيها الإخوة الكرام، إذا آمنت باليوم الآخر يجب أن تنعكس مقاييسك مئة بالمئة، ترى أن العطاء هو الفوز، والنجاح أن تبني حياتك على العطاء، وأحد أكبر خصائص حياة الإنسان أنه أعطى:

(فَأَمّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى)

والثاني بخِل:

(وَأَمّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى)

[سورة الليل]

هناك إنسان يرى الذكاء والتفوق والنجاح في العطاء من جهده، من وقته، من علمه، من ماله، من كل شيء وهبه الله إياه، وهناك إنسان يرى الذكاء والتفوق في الأخذ، يقول لك: هذه بيعة غشيم، رفعت السعر خمسة أضعاف وما شعر، يظن نفسه ذكيا، وهو أغبى الأغبياء، لأنه الحساب أمامه ينتظره.

ما نسبة الدنيا إلى الآخرة ؟

أيها الإخوة الكرام، الآن ما نسبة الدنيا إلى الآخرة ؟ اطّلع على مدينة ساحلية، واركب مركبا، واسحب إبرة، واغمسها في مياه البحر، وأرجعها، ووازنْ بنسبة دقيقة كم نقص البحر من مياهه، ما أخذت الدنيا من الآخرة إلا كما يأخذ المخيط إذا غمس في مياه البحر.

تصور رقم (واحد) في الأرض، و(أصفار) إلى الشمس، وكل ميليمتر صفر، وبين الأرض والشمس مئة وستة وخمسون مليون كيلو متر، وكل ميليمتر صفر، هذا الرقم ضعه صورة لكسر،

وضع المخرج لا نهاية، القيمة صفر، أي رقم مهما يكن كبيراً إذا نسب إلى اللانهاية فهو صفر، فلذلك الدنيا ليست بشيء، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

[الترمذي]

قال تعالى:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (٤٤))

(سورة الأنعام)

بالمناسبة، أيها الإخوة، لا يليق بكرم الله أن يعطي عطاءً ينقطع بالموت، هذا ليس عطاء، قد يكون ثمنُ بيت مئة وثمانين مليونًا ثمنه هذا مثوى مؤقت ثمنه لأن بعده الموت، وفي النهاية المصير الأولي إلى القبر، إذاً: هذا البيت ليس عطاءً، والثروة الكبيرة جداً المقدَّرة بتسعين مليارَ دولارٍ لا شيء، لأنه الإنسان سيموت، فليست الدنيا عطاءً، لأنها تنتهي بالموت، فلا تعدها عطاءً يليق بكرم الله، عطاء الله عز وجل أبدي، قال تعالى:

(لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (٣٥))

(سورة ق)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قَالَ اللَّهُ:

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ...))

[متفق عليه]

مرة ثانية: ما في ركنين من أركان الإيمان تلازما كركن الإيمان بالله واليوم الآخر، لأن الإيمان بالله به تستقيم على أمره، أما الإيمان باليوم الآخر فيمنعك أن تؤذي مخلوقاً ولو بكلمة.

((إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ لَا يَرَى بِهَا بَأْسًا يَهْوِي بِهَا سَبْعِينَ خَرِيفًا فِي النَّارِ))

مسلم والترمذي، واللفظ للترمذي]

مرة قال أحدهم لشخص: لقد اغتبتني ! فقال له: ومَن أنت حتى أغتابك ؟ لو كنت مغتاباً أحداً لاغتبت أبي وأمي، لأنهما أولى بحسناتي منك.

المؤمن يؤمن يقيناً أنه إذا اغتاب إنساناً أخذ سيئاته، وهذه مشكلة كبيرة.

مِن النعم اتصّالُ نِعمِ الدنيا بنِعمِ الآخرة:

أيها الإخوة أنا أسأل الله عز وجل لكم جميعاً أن يجعل نِعم الدنيا متصلةً بنعم الآخرة، إنسان يعيش بصحة، بمكانة اجتماعية، بحبوحة، عنده أولاد أبرار، عنده بنات مؤمنات تقيات صالحات، عنده

أصهار جيدون، ما عنده مشكلة في حياته، وهذا شيء جميل، لكن البطولة أن يموت وينقلب إلى نعيم عند الله عز وجل.

والله أنا إذا أحببت إنسانا حباً جماً دعوت له بهذا الدعاء، أقول له: أسأل الله أن يجعل نعم الدنيا التي أنت فيها متصلة بنعم الآخرة، قال تعالى:

(قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (٢٧))

(سورة يس)

الخسارة الحقيقية خسارة الآخرة:

أيها الإخوة الكرام، لذلك الخسارة الحقيقية أن تخسر الأبد، والإنسان قد يخسر محلا تجاريا، يخسر شركة، يخسر بيتا بسبب تنظيم، أعطوه عُشر قيمته، هذه خسارة، سيدنا الصديق نتعلم منه أنه ما ندم على شيء فاته من الدنيا قط، فالخسارة الحقيقية خسارة الأبد، وأكبر دليل الآية الكريمة:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ (٣٦))

(سورة الأنفال)

العبرة لمن يضحك آخراً، لأن مَن ضحك أولاً ضحك قليلاً، وبكى كثيراً، ومن ضحك آخراً ضحك ضحكاً طويلاً، وانقلب إلى جنة الله عز وجل:

(فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤))

(سورة المطففين)

حينما يولد الطفل يكون كلُّ مَن حوله يضحك، وهو يبكي وحده، فإذا وافته المنية كان كلُّ مَن حوله يبكي إذا كان محسنا، وإلا فإنهم يضحكون، فإذا كان بطلاً فليضحك وحده، لذلك قالوا: الموت تحفة المؤمن الموت، وعرس المؤمن:

((لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ: فَرْحَةٌ عِنْدَ فِطْرِهِ، وَفَرْحَةٌ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

التكذيب العملي أخطرُ من التكذيب القولي:

أيها الإخوة الكرام، أنا أتصور مقياس الإيمان، فالمؤمن فضلاً عن إيمانه بالله خالق السماوات والأرض الإيمان الحقيقي في اليوم الآخر، والتعامل الحقيقي مع اليوم الآخر، لكن هناك تكذيب عملي.

مثلاً: زرت طبيبا، وأعطاك وصفة، فأعطيته الأتعاب، وصافحته، وأثنيت على علمه وشكرته، ومشيت، لكن ما لم تصدق أنه طبيب ماهر، وما لم تشترِ الدواء، وفي بالك أن ترى طبيبا آخر، فإنّ كل كلمات الشكر، والثناء والمودة، ومصافحتك له لا تنفع، لأن الدواء ما اشتريته، فأنت كذبت بعلمه، فالتكذيب العملي أبلغ من التكذيب القولي، ولا أحد في العالم الإسلامي يقول لك: ليس هناك آخرة، لكن عملياً كل إنسان يأكل مالا حراما يكذب بالآخرة، كل إنسان يظلم إنسانا يكفر بالآخرة، هذا التكذيب العملي أخطر ألف مرة من التكذيب القولي.

أنا لا أخشى من إنسان صريح وواقعي، وأحبَّ أن يبني إيمانه على الأدلة، فقال: أنا أريد أدلة قطعية على اليوم الآخر، لا مانع، أنا أحترمه كثير، لكن مَن هو المنافق ؟ الذي يقول: الله يسترنا، الله يرحمنا، وفي سلوكه اليومي، وأعماله كلها سيئة، فلذلك أخطر شيء فيما يتعلق باليوم الآخر أن تكذب تكذيباً عملياً، لأن التكذيب النظري يناقش، يحاور، يؤتى له بالدليل والبينة، أما التكذيب العملي فلا يمكن فيه النقاش والحوار، وهو يرتكب الفواحش والموبقات، ويأكل المال الحرام، ويكفي أن تغش المسلمين حتى تكذب باليوم الآخر تكذيبا عمليًّا، يكفي أن تعطي صفة للبضاعة ليست فيها أن تكون مكذِّبًا باليوم الآخر، يكفي أن تأخذ ما ليس لك لتكذب باليوم الآخر، فالذي يؤمن باليوم الآخر يستقيم على أمر الله تماماً، وهذه قضية مهمة جداً في الدين، فما لم تستقم على أمر الله فلن تقطف من ثمار الدين شيئاً

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٨هـ - مقاصد الشريعة - الدرس (١٠- ٢٧) : الإيمان بالملائكة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٧-٠٩-٣٠

بسم الله الرحمن الرحيم

الحسِّيات والمعلومات والإخباريات:

ولكن يجب أن نعلم علم اليقين أن قضايا الدين يمكن أن توزع في ثلاثة حقول، حقل الحسيات، وحقل المعقولات، وحقل الغيبيات (الإخباريات)، أية قضية في الدين لا بد من أن تكون في أحد هذه الحقول:

١ – الحسِّيات طريق إدراكها الحواسُّ الخمس:

فالشيء الذي ظهرت عينه وآثاره فطريق اليقين به الحواس الخمس أو استطالاتها مع التقدم العلمي، كالتلسكوبات والميكروسكوبات.

٢ – المعقولات طريق إدراكها العقلُ:

والشيء الذي غابت ذاته، وبقيت آثاره أداة اليقين به العقل، هذه مهمة العقل الأولى، ترى الأثر، وتستدل به على المؤثر، وترى الحكمة، وتستدل بها على الحكيم، ترى النظام، وتستدل به على المنظم، هذه مهمة العقل أمام شيءٍ غابت عينه وبقيت آثاره، لذلك يمكن أن تؤمن بالله إيماناً عقلياً من خلال هذا الكون، وكل شيء في الكون يدل عليه، ويشير إليه:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

****

ويمكن أن تؤمن بالقرآن الكريم عن طريق العقل، لأن في القرآن إعجازاً، إعجازه أكبر دليل على أنه كلام الله، بل إن وقوع الوعد والوعيد أيضاً من الأدلة الناصعة على أنه كلام الله، والذي جاء بهذا الكتاب هو رسوله، انتهى دور العقل، يمكن أن تؤمن بالله وبكتابه وبرسوله عن طريق العقل، هذا الإيمان إيمان عقلي، أما حينما ترى ساعة فتقول: هذا إيمان حسي، فعندنا إيمان حسي وإيمان عقلي.

٣ – الغيبيات طريق إدراكها الخبرُ الصحيح:

لكن قضية الملائكة من نوع آخر، فهو نوعٌ غابت عينه وآثاره، ولا دليل مادي يؤكد وجود الملائكة، إلا أن الله أخبرنا بهذا، هذا النوع من الإيمان إيمان إخباري، أو إيمان سمعي، أو إيمان نصي.

أول ملاحظة يجب أن تأخذ إخبار الله عن شيء ما وكأنك تراه، الدليل: قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١))

(سورة الفيل)

يجب أن تأخذ خبرَ الله عن الغيب كمن رآه وشاهده:

بربكم هل من هؤلاء الحاضرين رجلٌ رأى بعينه ما فعل الله بأصحاب الفيل ؟ لا نحن ولا مَن قبْلنا واحد ولا حتى رسول الله رأى ذلك، وقد استنبط العلماء من هذه الآية أن الخبر الإلهي يجب أن تأخذه وكأنك تراه، لأنه:

(وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا (٨٧))

(سورة النساء)

خالق الكون يخبرك عن وجود الملائكة.

مثلاً: قال تعالى:

(وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي (١١٦))

(سورة المائدة)

هذا فعل ماض، وهذا الشيء لم يقع بعد، بل يقع هذا يوم القيامة، فيجب أن تأخذ إخبار الله عن المستقبل وكأنه وقع.

مثال آخر:

(أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (١))

(سورة النحل)

معنى ذلك أن المؤمن الحق في تسلسل، فبعد أن آمن بالله خالقاً ومربياً ومسيراً من خلال هذا الكون الثابت الأول في العقيدة، الآن هذا الإله العظيم كمال الخلق يدل على كمال التصرف، خَلق عظيم، إعجاز ما بعده إعجاز، عظمة في الخلق، في التربية، في التسيير، إله غني قدير، حكيم رحيم، هذا الكون يشهد لله بعظمته.

أحياناً هناك أشخاص فوق الشبهات، لمجرد أن يخبرك بشيء لا تفكر أن تطالبه بالدليل، لأنه موثوق، لا يكذب، فالإيمان بالملائكة من هذا النوع، إيمان إخباري، وكما قلت لكم: عد ابن القيم الإيمان بالله إخباري، والإيمان بالجن إيمان إخباري، والإيمان بالماضي السحيق إيمان إخباري، والإيمان بالمستقبل البعيد إيمان إخباري، والإيمان بما بعد الموت من الجنة والنار إيمان إخباري. حينما تقرأ القرآن، أو حينما تعالج قضية في الإيمان يجب أن تعلم في أي حقل هي، فإذا كانت في حقل المحسوسات فدليلها حسي، وإذا كانت في حقل المعقولات فدليلها عقلي، وإذا كانت في حقل الإخباريات فدليلها الخبر الصادق.

عالَم الغيب و عالَم الشهادة:

هناك عالَم الغيب وعالَم الشهادة، عالَم الشهادة: هذا الواقع الذي نعيشه، أما عالَم الغيب فهو ما أخبرك الله به ولم يقع بعد.

لا إضافات على الأخبار الواردة في إثبات الغيبيات:

في عالم الغيب لا تستطيع أن تضيف على الخبر شيئاً، وأية إضافة على الخبر فهي إضافة ظنية، ليست يقينية، فلذلك الله عز وجل لحكمة بالغة أخبرنا عن الملائكة بعض الأخبار، وأخبرنا عن اليوم الآخر بعض الأخبار، وأخبرنا عن الماضي السحيق بعض الأخبار، وما أخبرنا كل الأخبار.

قال تعالى:

(مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ (٧٨))

(سورة غافر)

لا حقَّ لي أن آتي بزيادات من أفكاري ومن خيالي، وأضيفها إلى عالم الغيب، فأيّة إضافة على الإخبار فهي إضافة ظنية لا معنى لها، لذلك المؤمن يسكت، ويقف حينما يسكت القرآن.

مثلاً: حدثنا عن قصة يوسف إخبارا، قال تعالى:

(ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ)

(سورة يوسف)

بعض الكتب في التفسير أخذوا من كتب بني إسرائيل إضافات وتفاصيل أضافوها على قصص القرآن، وهذه القصص وتلك التفاصيل ما أنزل الله بها من سلطان، هذه إضافات ينبغي ألا تكون، الحكمة البالغة من ذلك أن الله عز وجل أحياناً يغفل تفاصيل، يا ترى سيدنا يوسف هل تزوج امرأة العزيز بعد ذلك ؟ والله لا نعلم، وينبغي ألا نعلم، لأن هذه التفاصيل لا تخدم مغزى القصة، تماماً كما

لو أستاذا جامعيا في الاقتصاد أن أراد أن يعطي درساً بليغاً في شروط نجاح التجارة، لكنه كان أديباً، فصاغ هذه الشروط بشكل قصة، فقال:

لي صديق اشترى محلاً تجارياً في مركز المدينة، موقع المحل، واختار بضاعة عليها طلب شديد، غذائية، واختار الأنواع الجيدة، وجعل السعر معتدلا، وعامل الناس معاملة طيبة، فربح أرباحاً طائلة، أراد أن يذكر لهم أن موقع المكان مهم، ونوع البضاعة، ومستوى البضاعة، وما باع ديناً، مع المعاملة الطيبة، فقال له طالب: هذا الإنسان الذي حدثتنا عنه أهو أبيض أم أسمر ؟ هذه أمورٌ لا علاقة لهذا بالتجارة الرابحة، ما اسمه ؟ أين يسكن ؟ هذه التفاصيل لو ذكرت لتوهمنا أن هذا الذي حدثنا الله عنه وقع، ولن يقع مرة ثانية.

الله عز وجل قدم لنا نموذجا متكررا، لذلك إغفال الجزئيات والتفاصيل وراءه حكمة بالغة، لئلا تقع في وهم أن هذا الذي حدثك الله عنه لن يقع، لا هو وقع، وسيقع، وهو نموذج متكرر، لذلك قال بعض العلماء: ينبغي أن تسكت حيث سكت القرآن.

أهل الكهف كم شخصا هم ؟ يقولون: أربعة، وخمسة، ولكن الله لم يحسم المسألة، لأن هذه التفاصيل لا تقدم ولا تؤخر، هذه التفاصيل في عرف كُتّاب القصة هي عبء على القصة، وليست في خدمة القصة، فالأدب مع الله أنه إذا أغفل شيئاً أن تقف متأدباً مع إغفاله، لا أن تبحث في كتب الأقدمين عن روايات باطلة، هذه اسمها في التفاسير الإسرائيليات، وهي قصص ما أنزل الله بها من سلطان.

من الآيات القرآنية التي جاء ذكرُ الملائكة فيها:

لذلك أيها الإخوة الكرام، نحن نؤمن أن هناك ملائكة، وقد ورد ذِكْرُهم في القرآن الكريم عشرات بل بضع عشرات الآيات.

الآية الأولى:

(لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ (١١))

(سورة الرعد)

الله هيأ ملائكة للمؤمنين يحفظونه من أمر الله، أي يحفظونه بأمر من الله.

الآية الثانية:

﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨) ﴾

(سورة ق)

ملك اليمين يكتب الحسنات، وملك الشمال يكتب السيئات، وأنت في الصلاة تقول: السلام عليكم ورحمة الله، السلام عليكم ورحمة الله، هذا إيمان إخباري، ليس عليه دليل مادي أبداً، لكن كلما عظُم القائل كان خبره يقيناً، فإذا كان القائل خالق السماوات والأرض فهذا هو الإيمان الإخباري.

أيها الإخوة الكرام، سيدنا جبريل ملك، وهناك ملائكة العذاب، وملائكة الجنة، وملائكة الحساب، وملائكة نزع الأرواح، وملك الموت ورد ذكره في القرآن، فأيّ آية حدثتنا عن الملائكة نكتفي بها، ولا نزيد عليها، ولا نبحث عن شيء أغفلته هذه الآية، فالملائكة كما قال الإمام علي كرم الله وجهه: << رُكِبَ المَلَك من عقل بلا شهوة، ورُكِبَ الحيوان من شهوة بلا عقل، ورُكِبَ الإنسان من كليهما، فإذا سما عقله على شهوته أصبح فوق الملائكة، وإن سمت شهوته على عقله أصبح دون الحيوان>>، فالملائكة كائنات نورانية وهبها الله العقل، لا يعصونه ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون.

الحكمةُ أن لكلِّ مؤمنٍ ملكا يلهمه الخير وجنِّيّا يلهمه الشر:

الآن ما حكمة أن لكل مؤمن ملك يلهمه الخير و جني يوسوس له بالشر ؟

١ – ليس لمَلك ولا جنيّ سلطة على الإنسان:

أول حقيقة: لا الملك معه سلطة عليك، ولا الجني معه سلطة عليك، الدليل:

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ (٢٢) ﴾

(سورة إبراهيم)

أيها الإخوة الكرام، هناك مثل أضربه كثيراً:

توجه إنسان إلى قسم الشرطة يشتكي على إنسان، وهو يرتدي ثياب جميلة جداً بيضاء في أيام الصيف، وهي من أغلى الأنواع، والقميص ولوازم هذه الثياب من أعلى مستوى، رأى في حفرة فيها مياه آسنة سوداء فنزل فيها، وجاء ليشتكي على جهة، سأله المحقق: هل دفعك إلى هذه الحفرة ؟ قال: لا، والله ما دفعني أحَد، قال له: هل شهر عليك مسدس، وألزمك أن تنزل ؟ قال: لا والله، ما فعل هذا أيضاً، قال: هل أمسكك ووضعك فيها ؟ قال: لا والله، قال: لمَ تشتكي عليه ؟ قال: لأنه قال لي: انزل فنزلت، أين عقلك ؟ قال تعالى:

(وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ (٢٢))

(سورة إبراهيم)

أول حقيقة: لا الملك له عليك سلطان، ولا الشيطان له عليك سلطان، وأنت مخيّر، وما في القلب من نوايا لا يطلع عليها لا الملك ولا الشيطان، أنت مخير.

٢ ـ وجودُ المَلَك والشيطان لتحريك الإنسان:

لكن باجتهاد ما حكمة وجود الشيطان والملك ؟ للتحريك، الإنسان أراده الله عز وجل متحركا، وما أراده ساكنا، فهو إما أن يستجيب للملك في إلهامه، أو يستجيب للشيطان في وسوسته، ولو أنه استجاب للشيطان فهذا الفعل من صنعه، ومن اختياره، لأنه أحياناً يوسوس الشيطان لمئة فإنسان يستجيب واحد فقط، هذا الذي استجاب لوسوسة الشيطان هو عنده رغبة في هذه المعصية، وما أحد يضل أحدا إطلاقاً.

هناك أشخاص كلما ارتكب حماقة يلعن إبليس، أنا أقول له: العن نفسك، إبليس ليس له علاقة.

(وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ (٢٢))

(سورة إبراهيم)

٣ ـ الملَك تلقي في قلب الإنسان شيئًا:

الملائكة أحياناً تلقي في قلبك شيء، قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (٣٢))

(سورة فصلت)

الملائكة مكلّفة بأعمال معيَّنة:

فالملائكة تلقي في روع الإنسان، والملائكة تنقل إلينا الوحي من السماء، وقد كلف الله بهذا سيدنا جبريل، والملائكة تقبض أرواحنا عند الموت.

يُروى أن سيدنا سليمان كان عنده ملك الموت، وهذه القصة رمزية، فهذا الملك على شكل إنسان، وكان يحدّ النظر في أحد الجلساء بشكل يلفت النظر، فلما انقضى المجلس سأل هذا الرجل سيدنا سليمان: مَن هذا الذي كان يحدق بي ؟ قال: ملك الموت، انخلع قلبه خوفاً، قال له: خذني إلى طرف

من أطراف الدنيا، فسيدنا سليمان أوتي بساط الريح كما تروي بعض الكتب، وفي القرآن تؤيد هذا آية، فأخذه إلى بلاد الهند، هناك توفي، فلما عاتب سليمان ملك الموت، لماذا كنت تحد النظر به ؟ قال: والله معي أمر أن اقبض روحه هناك، لماذا هو عندك الآن ؟

ملك الموت لقبض الأرواح، وسيدنا جبريل لنقل الوحي، وملائكة لكتابة الأعمال الصالحة والسيئة، الله عز وجل وظف الملائكة توظيفات لا تنتهي.

الملائكة لها سرعة هائلة:

قال تعالى:

(وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (٤٧))

(سورة الحج)

هذه الآية تعني سرعة الضوء، فما يقطعه القمر في رحلته حول الأرض في ألف عام يقطعه الضوء في يوم واحد، لكن قال تعالى:

(تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤))

(سورة المعارج)

الملائكة لها سرعة خمسين ضعفا عن سرعة الضوء، هذه آية متعلقة بسرعة الملائكة.

خاتمة:

أيها الإخوة، الملك يلهمك، والشيطان يوسوس لك، لا الملك معه عليك سلطان، ولا الشيطان معه عليك سلطان، (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ)، لكن حكمة الملك وحكمة وجود الجن مع الإنسان كي يتحرك إما إلى خير، وإما إلى شر، لأن الإنسان في الدنيا مكلف أن يتحرك ليكون من أهل الجنة ؛ إن اتخذ قراراً صائباً، أو من أهل النار إن غلبته شهوته على نوازعه الأخرى.

أيها الإخوة الكرام، الإيمان بالملائكة من لوازم الإيمان بالله عز وجل ؛ أن تؤمن بالله وباليوم الآخر وبالملائكة والكتاب والنبيين، هذه أركان الإسلام، والإيمان بالملائكة أحد أنواع الضبط.

الملائكة مثلاً تستحي من بعض الأمكنة، وهناك آثار كثيرة جداً تبين أن الملك كائن راق جداً، وقد أوكله الله عز وجل أن يكون معنا، النبي عليه الصلاة والسلام حينما استأجر أجيراً، وخلع ثيابه، وبقي عرياناً ليغتسل قال: خذ أجارتك، لا حاجة لنا بك، إني أراك لا تستحي من الله.

ينبغي على الإنسان أن يستحي من الملائكة الذين معه، يستحي من خالقه الذي هو معكم أينما كنتم، فالإيمان بالملائكة إخباري، وكذلك الشياطين، وهي لا تملك على الإنسان أية سلطة، وأنت مخير،

ولكن هناك حِكم بالغة أحياناً من وجود الملائكة والشياطين، الشيطان يلقي في بالك وسواساً، أنت لا تنام الليل، فتذهب إ لى أستاذك، وتسأله فيزداد إيمانك، هو ماذا فعل ؟ قوى إيمانك من دون أن يشعر، وقوى إيمانك من دون أن يدري، ومن دون أن يريد، ولا أجر ولا ثواب له، كشأن الأقوياء حينما يوظفون عند الله لخدمة دينه والمؤمنين، فبشدتهم وقهرهم وبطشهم يدفعون الناس إلى باب الله، وهناك حكمة بالغة حتى من خلق الشياطين، لأن الشيطان يؤدي دوراً إيجابياً من دون أن تشعر أنت، ومن دون أن يشعر هز.

لذلك أيها الإخوة، لا بد أن نؤمن أن الذي قاله الله في القرآن الكريم حق كأنك تراه.

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

وقفات مهم بين الحديث عن الإيمان بالكتب:

١ ـ كمال الخُلق يدلّ على كمال التصرف:

بادئ ذي بدء، هناك قاعدة أصولية: كمال الخلق يدل على كمال التصرف "، وهذا الكون يشهد لله جل جلاله بالكمال المطلق، لأن أسماء الله الحسنى بادية فيه، بل إن الكون وهو الثابت الأول مظهر لأسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى، فهذا الإله العظيم الذي خلق هذا الكون كامل كمالاً مطلق، هو ذات كاملة، فلا يعقل أن يدَعَ خلقه من دون توجيه، من دون تحذير، من دون إنذار، من دون وعد، من دون وعيد، لا يعقل أن يدع خلقه دون أن يعرفهم لماذا خلقهم ؟ وماذا أعد لهم ؟ وماذا ينتظرهم؟ دون أن يعرّفهم برسالة حملهم إياها، بأمانة أناطها بأعناقهم.

كمال الخلق يدل على كمال التصرف:

إنّ أدنى أب في الأرض إن رأى ابنه الصغير يزحف نحو المدفئة المشتعلة هل يبقى ساكتاً ؟ هل هناك أب على وجه الأرض يرى ابنه يقترب من مدفئة مشتعلة، وهو لا يفهم ما يفعل، هل يبقى الأب ساكتاً ؟ فلذلك من كمال الله جل جلاله ألا يدَع خلقه من دون تعريف به، وتعريفٍ بمهمّتهم، ومن أين أتوا ؟ وإلى أين هم ذاهبون ؟ ولماذا هم في الدنيا ؟ وماذا أعد الله لهم من نعيم مقيم لو أطاعوه ؟ وماذا أعد الله لهم من عذاب عظيم لو عصوه ؟

٢ ـ لكلِّ نبيٍّ كتابٌ:

هناك مبدأ: أن يرسل الله نبياً مع كتاب، والفرق بين النبي والكتاب واضح، أن النبي دعوته منوطة بحياته، أما الكتاب فمستمر، لذلك قالوا: يمكن أن تؤلف القلوب، ويمكن أن تؤلف الكتب، تأليف الكتب أطول أمداً، وتأليف القلوب أعمق أثراً.

على كلٍّ حياة النبي دعوة عظيمة، وأقوال النبي سنة، أفعاله سنة، إقراره سنة، لكن كلام الله عز وجل مستمر، فلذلك كان الإيمان بالكتب، والإيمان بآخرها وخاتمها القرآن الكريم واجبا.

لكن أيها الإخوة، حينما يرسل الله رسولاً يقول للناس: أنا رسول الله، الرسول الذي من عند الله معه منهج، معه نظام، معه مباحات، معه محرمات، معه افعل، معه لا تفعل، معه منهج يقيد حركة الإنسان، وفي الحديث أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ

((إِنَّ الْإِيمَانَ قَيْدُ الْفَتْكِ، لَا يَفْتِكُ مُؤْمِنٌ))

[مسند أحمد عن ابن الزبير]

لذلك الإنسان الذي شرد عن الله عز وجل كالدابة المتفلتة، يتحرك بلا نظام، وبلا مبادئ، وبلا قيم، وبلا خوف، وبلا قلق، أما المؤمن فهو منضبط بمنهج الله عز وجل، فلذلك حينما يأتي رسول، ويقول: أنا رسول الله، الذي أَلِف التفلُّتَ، وأَلِف أن يعبد شهوته من دون الله لا يقبل هذه الدعوة، بل يرفضها، قال تعالى:

(وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا (٤٣))

(سورة الرعد)

كيف يشهد الله لعباده أن الرسول حقٌّ من عنده ؟

الآن كيف يثبت الله عز وجل لخلقه وعباده أن الذي أرسل إليهم صادق من عند الله، وليس بكاذب، لا بد من أن يشهد لعباده أنه رسوله، فكيف يشهد ؟

المعجزات الحسية:

مع الأنبياء السابقين كانت شهادة الله حسية، فكان النبي يلقي عصاه فإذا هي ثعبان مبين، هذا شيء فوق طاقة البشر، ونبي آخر يحيي الميت، وهذا شيء آخر فوق طاقة البشر، ونبي ثالث يلقى في النار فلا يحترق، هذا فوق طاقة البشر، فلذلك الأنبياء السابقون أرسل الله معهم معجزات حسية تشهد لهم أنهم أنبياءه ورسله.

القرآن معجزةُ النبي عليه الصلاة والسلام:

لكن لأن النبي عليه الصلاة والسلام خاتم الأنبياء، ودعوته خاتمة الدعوات، ولأن النبي عليه الصلاة والسلام لكل الأمم والشعوب من دون استثناء، ولآخر الدوران، فلا بد من أن تكون معجزته مستمرة، وكيف تكون مستمرة ؟

ينبغي أن تكون معجزة علمية، لذلك كيف يشهد الله لخلقه أن هذا القرآن كلامه ؟ يشهد لخلقه أن هذا القرآن كلامه ؟ عن طريق ما يسمى الإعجازَ العلمي أو السبق العلمي، وهو حقيقة تم كشفها قبل

سنوات، وقد أشار إليها القرآن الكريم قبل ذلك، وحينما أشار القرآن إليها معنى ذلك أن الذي خلق الأكوان هو الذي أنزل هذا القرآن.

أمثلة عن الإعجاز العلمي في القرآن الكريم:

١ – الظلام في الفضاء الخارجي:

أن يصعد رائد الفضاء في طبقات الجو، وأن يقطع مسافة خمسة وستين ألف كيلو متر، إلى أن تنتهي طبقة الهواء، ثم يفاجأ أنه لا يرى شيئاً، بل هناك ظلام دامس، إذا أخرج يده لم يكد يراها، فيصيح بأعلى صوته: لقد أصبحنا عمياً.

التفسير العلمي واضح: نحن في جو الأرض فيه هواء، ومع الهواء هناك تناثر للضوء، أي إن أشعة الشمس تسلط على الهواء، وذرات الهواء تعكس أشعة الشمس على ذرات أخرى، فالذرات الأخرى التي تلقت أشعة الشمس انعكاساً تضيء، فصار في الأرض مكان فيه أشعة الشمس، ومكان فيه ضياء الشمس، هذه الحادثة اسمها تناثر الضوء، فلما انتهت طبقت الهواء انعدم التناثر، وأصبح الجو مظلماً، وقال: لقد أصبحنا عمياً، القرآن الكريم يقول:

(وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (١٥))

(سورة الحجر)

هذه الآية شهادة الله لخلقه أن هذا القرآن كلامه.

٢ – البعوضة:

وقد أتتْ آية في كتاب الله تتحدث عن أحقر شيء عند الإنسان، وهو البعوضة، ويقول الله عز وجل:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا (٢٦))

(سورة البقرة)

وبعد اكتشاف المجهر الإلكتروني الذي يكبّر الشيء مئات ألوف المرات تبين بعد وضعها تحت المجهر أن في رأسها مئة عين، و لها ثلاثة قلوب، و في فمها ثمان و أربعون سناً، وعندها أجهزة استقبال حرارية، و جهاز تحليل دم، وجهاز تمييع دم، وجهاز تخدير، و في خرطومها ست سكاكين، وفي أرجلها مخالب لتقف على سطح خشن، و لها محاجم لتقف على سطح أملس، وهذه الآية من آيات الإعجاز.

٣ – أعمَقُ نقطة على وجه الأرض:

بعد أن اكتشفت أشعة الليزر، التي تقيس المسافات بالميليمترات، هذه الأشعة تنطلق، فإن وجدت جسماً تصدمه وتعود، بحساب دقيق نكشف المسافة، هذه الأشعة تم بها كشف بعد القمر عن الأرض بالميليمتر، بعد أن اكتشف أن أعمق نقطة في الأرض في اليابسة هي غور فلسطين، حينما تذهب إلى غور فلسطين تصل إلى منطقة اسمها سطح البحر، وتغوص أربعمئة متر تحت سطح البحر، والمعركة التي تمت بين الفرس والروم كانت في غور فلسطين، فإذا بالآية الكريمة تقول:

(غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ (٥))

(سورة الروم)

في أدنى الأرض، اكتشف مؤخراً أن أعمق نقطة في اليابسة هي غور فلسطين، وأعمق نقطة في البحر هو وادي مريانة في المحيط الهادي.

٤ – وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ

تركب أحدث طائرة الآن فيه ثمانمئة راكب، كأنها مدينة تطير، وفيها كل ما تشتهيه الأنفس بحسب مقاييس العصر، تفتح القرآن الكريم تقرأ:

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً (٨))

(سورة النحل)

أنت تركب طائرة فيها مقعد وثير، والجو مكيف، تأكل ألذ الطعام، تطلّ على مناظر الأرض، قال تعالى:

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً (٨))

(سورة النحل)

إلى هذا الموضع من الآية يمكن لبشر أن يقول هذا، لأنه عاش مع أدوات نقلٍ وحيدة، خيل، وبغال، وحمير، أما لأن فهذا كلام خالق الأكوان، نتابع الآية:

(وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨))

(سورة النحل)

دخل فيها الطائرة والباخرة والحوامة والسيارة.

(وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨))

٥ ـ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ

أيها الإخوة الكرام، حينما تنتهي دراستك إلى أن كل شيء في الكون بكل أصنافه مؤلف من ذرات، والذرة فيها نواة، وفيها كهارب تدور حولها، فإذا قرت قوله تعالى:

(وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠))

(سورة يس)

كلٌّ شيء في الكون في فلك يسبح.

٦ ـ نوع الجنين تحدده النطفة لا البويضة:

وحينما ينتهي علمك إلى أن نوع الجنين لا تحدده البويضة ولكن تحدده النطفة، تقرأ قوله تعالى:

(مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى (٤٦))

(سورة النجم)

٧ ـ الوردة الجورية:

حينما تقرأ القرآن الكريم تقف عند آية، ثم تطالع في موقع معلوماتي صورة لو دققت فيها لا تشك ثانية واحدة أنها وردة، وردة بكل معاني هذه الكلمة، أوراق حمراء داكنة، حولها وريقات خضراء زاهية، في الوسط كأس أزرق، كتب تحت هذه الوردة الجورية، وهي صورة انفجار لنجم اسمه عين القط، يبعد عن الأرض ثلاثة آلاف سنة ضوئية، تفتح القرآن الكريم فتقرأ:

(فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (٣٧) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٨))

(سورة الرحمن)

٨ ـ سرعة الضوء:

حينما تدرس علوم الفيزياء بالذات، وتدرس في تاريخ هذه العلوم أن عالماً كبيراً جداً قلب مفاهيم الفيزياء، هو إنشتاين، الذي اكتشف السرعة المطلقة في الكون، وهي سرعة الضوء، وأكد أن أي جسم سار مع الضوء أصبح ضوءاً، وأن أي شيء سار مع الضوء يتوقف معه الزمن، فإن سبق الضوء تراجع الزمن، وإن قصر عن الضوء تراخ الزمن، حينما تطالع هذه النظرية النسبية بكل تفاصيلها وأبعادها، ثم تفاجأ أنها مدرجة في آية واحدة:

(وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (٤٧))

(سورة الحج)

والعرب تعدّ السنة القمرية، الآن القمر يدور حول الأرض دورة كل شهر، لو أردنا أن نحسب كم يقطع من الكيلو مترات في هذه الدورة، الحساب سهل جداً، نأخذ مركز الأرض ومركز القمر،

نصل بينهما بخط، هذا الخط طوله نصف قطر الأرض مع نصف قطر القمر مع المسافة بينهما، ضرب باثنين، ينتج القطر، ضرب ٣،١٤ هو المحيط، ضرب اثني عشر بالسنة، ضرب ألف بألف سنة، طالب من طلاب المرحلة الإعدادية بآلة حاسبة في دقائق يحسب لنا كمن يقطع القمر في رحلته حول الأرض في ألف عام، الآية:

(وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ)

اليوم كم ثانية ؟ ستون ضرب ستين ضرب أربع وعشرين ساعة، لو قسمنا المسافة التي يقطعها القمر حول الأرض في ألف عام على ثوان اليوم لكانت سرعة الضوء الدقيقة، وهي ٢٩٩٧٥٢ كيلومتر.

حينما يقول الله عز وجل:

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا (٦١))

(سورة النمل)

٩ ــ استقرار الأرض:

كيف أن الأرض يستقر عليها كل شيء، هذا نظام الجاذبية، متى عرفنا أننا في أمس الحاجة إلى هذا النظام ؟ حينما سافر رواد الفضاء على القمر، ودخلوا في منطقة انعدام الجاذبية، الإنسان ليس له وزن أبداً، الحياة لا تطاق، ينام على السرير في المركبة فيجد نفسه عند استيقاظه في سقف المركبة:

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا (٦١))

(سورة النمل)

الطاولة في مكانها، الأثاث في أمكنته، هذه نعمة لا نعرفها، فوازنْ مَن جذب الأرض لك، أنت على القمر وزنك عشرة كيلو غرامات، إذا كان وزنُك في الأرض ستين، فوزنك على سطح القمر ستة كيلوات، فلك وزن بكل كوكب، هذه قوة جذب الكوكب إلى المركز.

١٠ ــ البرزخ بين البحرين:

أيها الإخوة، شيء دقيق جداً في خلق السماوات والأرض، وهناك آية كريمة حيرت العلماء من مئات السنين، وهي آية أخرى من آيات الله الدالة على عظمته، وحار فيها المفسرون.

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ، بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ، فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٢١))

(سورة الرحمن)

من خلال المركبات الفضائية حينما رصدوا سطح الأرض وجدوا تبايناً بين لونين لبحرين متصلين، كل بحر له لون، وهذا الخط تباين لونين، من خلال الفضاء الخارجي صوِّر في الأرض

بين الأحمر والأبيض خطٌ في قناة السويس، وبين الأسود والأبيض خطٌ في البوسفور، وبين الأبيض والأطلسي خطٌ في جبل طارق، وبين الأحمر والعربي خطٌ في باب المندب، إنه خط تباين لونين، هذه الظاهرة دفعت علماء البحار إلى البحث فيها، ثم تبين أن لكل بحر مكوناته، وخصائصه، وملوحته، وكثافته، ولا تختلط مياه بحر مع مياه البحر الآخر، بل إن في منطقة اللقاء في بعض الصور تحت الماء كجدار.

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ، بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ، فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)

١١ – من أسرار قلب الإنسان:

أيها الإخوة الكرام، كلكم يعلم، أو بعضكم يعلم أن خلايا الإنسان تتبدل كلياً كل خمس سنوات، لأن أقصر خلية عمرها ثمانٌ وأربعون ساعة هي خلايا بطانة الأمعاء، وأن أطول الخلايا عمراً خلايا العظم، والإنسان بمجمله بكل أجهزته، بكل حواسه، بكل أنسجته، بكل مكوناته يتبدل كلياً كل خمس سنوات، ولحكمة بالغة عدا خلايا الدماغ، و خلايا القلب، ولو تبدلت خلايا الدماغ لخسرت اختصاصك، يقول لك: كنت طبيب، ولنسيت أقرباءك، ولنسيت أولادك، ولنسيت كل خبراتك، وكل قدراتك، وكل مهاراتك، لأن كل خبراتك في الدماغ، وكذا معارفك، وشخصيات تعيش معها، ولحكمة بالغة الخلية العصبية لا تتبدل، لكن أضافوا إلى ذلك أن القلب لا يتبدل، لكن بعد أن زرع القلب، وفي العالم حتى الآن ثلاثة وسبعون إنسانا تم زرع قلب لهم من آخرين، كإنسان مات بحادث فيأخذون القلب، وهو صالح ليكون قلباً مزروعاً لإنسان يعاني من ضعف في القلب، المفاجأة التي اكتشفت أن الذي يزرع له قلب من آخر مشاعر الآخر وأذواق الآخر وخبرات الآخر الجمالية تنتقل إلى الإنسان الجديد، كإنسان في الثمانين سنة نشأ في عالم تقليدي، يحب الموسيقى الكلاسيكية، فلما زرع له قلب شاب مات بحادث صار يحب موسيقى الجاز، هذا شيء غير طبيعي، الذي زرع له القلب يحب أكلات ما كان يحبها سابقاً، يردد أغاني ما كان يرددها سابقاً، حتى إنه زُرع لأحد قلب، فإذا هو يردد كلمة مبهمة، حتى ضاق ذرعاً بها، فذهب إلى زوجة من أخذ قلبه منه، وقالت له: هذه الكلمة سر بيني وبينه، فإذا كانت الأمور على ما يرام أقول هذه الكلمة

طبعاً هناك شواهد طويلة جداً وطريفة جداً كيف انتقلت مشاعر وأذواق وأحاسيس هذا الإنسان الذي مات بحادث، وأخذ قلبه، وزرع في جسم إنسان آخر، لكن المفاجأة الصاعقة أن القلب محاط بخلايا عصبية تدرك وتأمر، هذه أخطر شيء، هذا معنى قوله تعالى:

(لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا (١٧٩))

(سورة الأعراف)

خاتمة:

أيها الإخوة الكرام، كلما تقدم العلم كشف عن جانب من عظمة هذا القرآن الكريم ، فلذلك نحن المؤمنين نؤمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين.

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

النبوة والنبوات:

١ – كمال الخَلق يدل على كمال التصرف:

أيها الإخوة، سبق أن ذكرت لكم أن كمال الخَلق يدل على كمال التصرف، والكون يشف عن خالق عظيم، ومربٍّ رحيم، ومسيّر حكيم، هذا الإله العظيم لا بد من أن يرسل للبشر رسولاً معه منهج، المنهج هو الكتاب.

٢ – الرسول بشرٌ تجري عليه كل خصائص البشر:

والرسول هو الإنسان الذي تجري عليه كل خصائص البشر، ولولا أن النبي والرسول من بني البشر، وتجري عليه كل خصائص البشر لما كان سيد البشر، هو بشر فيه بشرية، وجميع الحظوظ والشهوات التي أودعها الله في بني البشر مودعة فيه أيضاً، يقول عليه الصلاة والسلام:

((لَقَدْ أُخِفْتُ فِي اللَّهِ، وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ، وَلَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللَّهِ، وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ، وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَلَاثُونَ مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، وَمَا لِي وَلِبِلَالٍ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلَّا شَيْءٌ يُوَارِيهِ إِبْطُ بِلَالٍ))

[أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجة]

لولا أنه بشر تجري عليه كل خصائص البشر لما كان قدوة للبشر، ولما كان سيداً للبشر.

أيها الإخوة، هذا الإنسان ينبغي أن يكون بشراً ليكون قدوة، وليقنعنا أن الإنسان أي إنسان قادر على تطبيق هذا المنهج، لو أن النبي كان مِلَكًا لقال له الناس كل يوم مئات المرات: أنت ملِك، ونحن بشر، هو بشر، يخاف، ويجوع، ويشتهي المرأة، لكنه ضبط حركته في الحياة وفق منهج الله، فلذلك النبوة تعني أول ما تعني أن النبي بشر، وأن منهج الله عز وجل حينما طبقه تطبيقاً كاملاً معنى ذلك أن كل إنسان قادر على تطبيق منهج الله، عندئذ يقول الله عز وجل:

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا (٢٨٦))

(سورة البقرة)

٣ – الأنبياء معصومون:

الشيء الآخر أن النبي عليه الصلاة والسلام، وأن الأنبياء جميعاً يجب أن يكونوا معصومين، كيف؟

لأن أفعاله تشريع، وأقواله تشريع، وإقراره تشريع، مجموعة أقواله وأفعاله وإقراراته تسمى المنهج النبوي، السنة النبوية، إذاً: لا بد من أن يكون معصوماً.

معنى العصمة:

ما معنى أنه معصوم ؟ أي أنه بلغ من كمال الاتصال بالله أنه مستنير بنور الله بشكل مستمر، لذلك يقول عليه الصلاة والسلام:

((إِنَّ عَيْنَيَّ تَنَامَانِ، وَلَا يَنَامُ قَلْبِي))

[البخاري عن عائشة]

لكن المؤمنين:

((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمْ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ))

[مسلم عن حنظلة]

فالنبي دائم الاتصال بالله، وهذا مقام بالله، ولأنه دائم الاتصال بالله فهو دائم الاستنارة بنور الله، تماماً كإنسان يمشي في غابة، لكن معه مصباح كشاف، هذا المصباح يريه كل شيء، فبحكم فطرته وحبه لسلامته، سلامة وجوده، وكمال وجوده، واستمرار وجوده يتقي الخطر بهذا المصباح، وللمؤمنين نصيب من هذا المعنى، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآَمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ (٢٨))

(سورة الحديد)

لا بد من نور يقذفه الله في قلب المؤمن حتى يرى به الخير خيراً، والشر شراً، والحق حقاً، والباطل باطلاً، والجميل جميلاً، والقبيح قبيحاً، هذا النور الإلهي عند الأنبياء مستمر، وعند المؤمنين ساعة وساعة.

مقام الألوهية لا يبلغ أحدٌ مهما علا شأنُه:

عصمته أتت من دوام اتصاله بالله عز وجل، لكن لئلا يلتبس على الناس مقام النبوة بمقام الألوهية المطلقة ترك الله للنبي الكريم هامش اجتهاد ضئيل، فإن أصاب النبي في اجتهاده أقره الوحي على ذلك، وإن لم يصب يصحح الوحي له ذلك، قال تعالى:

(عَبَسَ وَتَوَلَّى (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (٢))

(سورة عبس)

(عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ (٤٣))

(سورة التوبة)

فإما أن يأتي اجتهاد النبي وفق ما ينبغي فيقره الوحي على ذلك، وإما أن يأتي اجتهاد النبي بخلاف الأولى فيصحح الوحي له ذلك، ومِن هنا افترق مقام النبوة عن مقام الألوهية المطلق، لئلا يُعبَد النبي من دون الله.

٤ ـ النبي مبلّغ:

أيها الإخوة، لكن الشيء الذي ينبغي أن يكون واضحاً جداً هو أن النبي مبلّغ، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ (٦٧))

(سورة المائدة)

بشكل أو بآخر أيّ إنسان طليق اللسان قوي الذاكرة بإمكانه أن يبلغ، إبلاغ العلم شيء، وتطبيقه شيء آخر.

٥ ـ النبي قدوةٌ:

أنا أرى أن أعظم مهمة للنبي ليست التبليغ، ولكن القدوة، لذلك أذاق النبي عليه الصلاة والسلام الفقر، فعَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ:

((يَا عَائِشَةُ، هَلْ عِنْدَكُمْ شَيْءٌ، قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا عِنْدَنَا شَيْءٌ، قَالَ: فَإِنِّي صَائِمٌ...))

[مسلم]

هل هناك بيت من بيوت إخوتنا جميعاً ليس فيه شيء يؤكل ؟ مستحيل، والنبي يدخل إلى بيته فيسأل

((يَا عَائِشَةُ، هَلْ عِنْدَكُمْ شَيْءٌ، قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا عِنْدَنَا شَيْءٌ، قَالَ: فَإِنِّي صَائِمٌ...))

النبي عليه الصلاة والسلام ذاق كل شيء:

أذاقه طعم الفقر لئلا يقول الفقراء: لو كان فقيرا ما قال هذا الكلام، ذاق طعم الفقر، وأذاقه طعم الغنى، فكان سخياً، إذاً: هو قدوة للفقراء حينما صبروا، وقدوة للأغنياء حينما بذلوا.

أذاقه القهر، إنسان يمشي على قدميه ثمانين كيلو مترا في طرقات جبلية وعرة ليصل إلى قوم يعلق آمالا على هدايتهم، فإذا هم يكذبونه أشد أنواع التكذيب، ويسخرون منه، ويستهزئون به، ويغرون صبيانهم أن ينالوه بالأذى، حتى ألجؤوه إلى حائط فقال:

((إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي، ولك العتبى حتى ترضى، لكن عافيتك أوسع لي))

[الطبراني عن عبد الله بن جعفر]

أذاقه القهر فصبر، وقال: يا رب إن كانت هذه الشدة تعني أنك غاضب علي فأنا أعتذر منك، أما إن لم يكن لها علاقة بغضبك ورضاك فأنا أقبلها.

وأذاقه النصر في فتح مكة، ومكة ناصبته العداء عشرين عاماً، نكلت بأصحابه، قتلت بعض أصحابه، لم تدع طريقة للنيل منه إلا وسلكتها، حاربته حروبا ثلاثا، في بدر، وأحد، والخندق، ووصل إليهم فاتحاً، وعشرة آلاف سيف متوهجة تنتظر إشارة من فمه، وبالمصطلح المعاصر بإمكانه أن يلغي وجودهم بكلمة واحدة، قال: ما تظنون أني فاعل بكم ؟ قالوا: أخ كريم، وابن أخ كريم، قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء، لذلك قال أبو سفيان: ما أعدلك ! وما أرحمك ! وما أوصلك ! وما أحلمك !.

كان قدوة التبليغ ليس بشيء أمام القدوة، هذا الدين العظيم، هذه المبادئ طبقها، النبي عليه الصلاة والسلام قرآن يمشي، ونحن الآن لسنا بحاجة إلى محاضرات، ولا مؤتمرات، ولا مؤلفات، بحاجة إلى مسلم متحرك أمامنا، يتحمل كل الضغوط، وكل الإغراءات، وكل الصوارف، وكل العقبات، ويقيم منهج الله عز وجل، لا يقنعنا إنسان طليق اللسان، لا يقنعنا خطيب واسع البيان، يقنعنا إنسان يعيش هذه الظروف، يعيش هذه العقبات، وهذه الصوارف، وهذه المغريات، وهو مقيم على منهج الله عز وجل، لا تأخذه في الله لومة لائم.

كان قدوة، أذاقه الفقر فصبر، أذاقه الغنى فشكر، أذاقه القهر فاعتذر، أذاقه النصر فتواضع، دخل مكة فاتحاً، وكادت ذؤابة عمامته تلامس عنق بعيره تواضعاً لله عز وجل.

أذاقه موت الولد، دمعت عينه، وقال:

((إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ، وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ))

[متفق عليه عن أنس]

وذاق مصيبة تطليق ابنتيه فصبر، أذاقه بعض الخصومات الزوجية، فكان حكيماً، وزوجاً رحيماً. أذاقه موت الزوجة، السيدة خديجة، كان وفياً لها أشد الوفاء، حتى حينما فتح مكة، وركز لواء النصر أمام قبرها ليعلم العالم كله أن هذه المرأة التي في القبر كانت شريكته في النصر، زوج من الطراز الأول، أب من الطراز الأول، أخ ن الطراز الأول، شريك من الطراز الأول، قال تعالى:

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ (٢١))

(سورة الأحزاب)

نحتاج إلى القدوة فقط:

مهمته الأولى أن هذا المنهج الإلهي العظيم تمثل فيه، كان خلقه القرآن، بل هو قرآن يمشي، وهذا الذي يقنع الناس الآن.

كنت أقول: هناك بلد إسلامي فرضاً، أيّ بلد إسلامي إذا كان فيه نسب بطالة عالية جداً، ونسب أمية عالية جداً، ونسب عنوسة عالية جداً، وكل شيء يستورد، وكل شيء في هذا البلد الإسلامي يسبب متاعب، وبأسهم بينهم، وأمرهم ليس شورى بينهم، هذا الواقع لا يقنع أحداً بأهمية الإسلام، لأن الطرف الآخر لن يقرأ كتبنا، بل يرى واقعنا، بينما أنت حينما يكون لك واقع قوي متماسك عندئذ تقنع الناس بهذا الدين، لذلك كان النبي عليه الصلاة والسلام قرآنا يمشي، كان النبي عليه الصلاة والسلام ذا خلق عظيم، وكان خلقه القرآن الكريم.

أيها الإخوة، أذاق الله النبي أن يقتلع من جذوره لبلد آخر لا يعرفه، لجو آخر، لطبيعة أخرى، هذه هجرة لإنسان مكين في بيئته، له مكانة، مصالحه مؤمَّنة، حياته مستقرة هادئة، إذا به ينتقل إلى بلد لا يعرفه، هذه الهجرة من أعظم الأحداث بعد الدعوة إلى الله عز وجل.

إذاً: هو قدوة، أذاقه أشياء كثيرة، أذاقه شيئا لا يحتمله أحد منا، أذاقه أن تتهم زوجته بأثمن ما تملكه امرأة، وليس معه دليل إثبات، ولا دليل نفي، وتأخر الوحي أربعين يوماً، إنها محنة ما بعدها محنة، سيد الخلق، وحبيب الحق، تتهم زوجته بأخطر ما تملكه فتاة في الأرض، ويصبر إلى أن برّأها الله عز وجل، ومعنى هذا أن الوحي شيء مستقل عن كيان النبي عليه الصلاة والسلام، ولا يملك له تصرفاً ولا جلباً ولا إلغاءً، لو أن الوحي من عنده بعد ثانية، بعد دقيقة تأتي آية بتبرئة السيدة عائشة، ولحكمة بالغة أخّر الله تبرئة السيدة عائشة أربعين يوماً، ليعلم العالم كله أن الوحي شيء لا يملكه، لا يملك له جلباً ولا صرفاً.

النبي وأصحابه قمة في القدوة:

أيها الإخوة، لماذا أحبه أصحابه ؟ لأنه كان قمة في الكمال، كان مع أصحابه في سفر أرادوا أن يعالجوا شاةً، فقال أحدهم: عليّ ذبحها، وقال الثاني: عليها سلخها، وقال الثالث: وعليّ طبخها، فقال عليه الصلاة والسلام: وعليّ جمع الحطب، فقالوا: نكفيك ذلك، فقال: أعلم أنكم تكفونني ذلك، ولكن الله يكره أن يرى عبده متميزاً على أقرانه.

ما هذا التواضع ؟ في بدر الصحابة كانوا قلة، والرواحل أقلّ، فقال: كل ثلاثة على راحلة، وأنا وعلي وأبو لبابة على راحلة، ركب الناقة، فلما جاء دوره في المشي توسلا صاحباه أن يبقى راكباً، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ:

((كُنَّا يَوْمَ بَدْرٍ كُلُّ ثَلَاثَةٍ عَلَى بَعِيرٍ، كَانَ أَبُو لُبَابَةَ وَعَلِيُّ بْنُ أبي طَالِبٍ زَمِيلَيْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: وَكَانَتْ عُقْبَةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: فَقَالَا: نَحْنُ نَمْشِي عَنْكَ، فَقَالَ: مَا أَنْتُمَا بِأَقْوَى مِنِّي، وَلَا أَنَا بِأَغْنَى عَنْ الْأَجْرِ مِنْكُمَا))

[أحمد]

لولا أنه كان قمة في الكمال، قمة في التواضع، قمة في الرحمة، قمة في الحنان والعطف لمَا التف أصحابه حوله، قال تعالى:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ (١٥٩))

(سورة آل عمران)

أي: بسبب رحمة استقرت في قلبك يا محمد كنت ليناً لهم.

(وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ (١٥٩))

(سورة آل عمران)

أنت أنت، على كلِّ ما عندك من خصائص، نبي، ورسول، وسيد الخلق، وحبيب الحق، أوتيت القرآن والمعجزات، والفصاحة والبيان، مع هذه الخصائص لو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك، قال تعالى:

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤))

(سورة القلم)

أعظم ما في هذه الرسالة أن النبي عليه الصلاة والسلام هو القدوة، والآن المبادئ لا تسقط إلا إذا ألغيت القدوة كأفكار صحيحة أحياناً، كأفكار متماسكة، كأفكار مقنعة، لكن هذه الأفكار في الكتب، لكن الواقع كذب ونفاق وتقصير، لذلك المجتمع المتخلف لو أنه يحمل أفكارا عالية جداً فلا قيمة لها إطلاقاً، لا قيمة إلا بالتطبيق.

صحابي جليل هاجر إليه، وفي الطريق ألقي القبض عليه، فقال للمشركين: عهد الله إن أطلقتموني فلن أحاربكم، أطلقوه، وذكر هذا للنبي، وفرح به فرحاً شديداً، لكن بعد حين جاءت غزوة، فانخرط فيها من شدة حبه للجهاد، فقال له النبي عليه الصلاة والسلام: ارجع، ألم تعاهدهم.

أقسم لكم بالله لو أن الصحابة الكرام فهموا الإسلام كما نفهمه نحن اليوم لما خرج الإسلام من مكة ووصل إلى الصين شرقاً، وإلى مشارف باريس غرباً، بتطبيق لما سمعوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلذلك أيها الإخوة الكرام:

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآَخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا(٢١))

(سورة الأحزاب)

الاقتداء بالنبي يلزم الاطلاع على سيرته:

النقطة الدقيقة والأخيرة أن الله عز وجل حينما قال لنا دققوا:

(وَمَا آَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

(سورة الحشر: الآية ٧)

هذه الآية من لوازمها أن تطلع على ما قاله النبي عليه الصلاة والسلام، الله يأمرنا أن نأخذ ما آتانا، وأن ننتهي عما عنه نهانا، فكيف نأتمر بما أمرنا، وكيف ننتهي عما نهانا ؟ إن لم نعرف ما الذي أمرنا، وما الذي نهانا.

معرفة سنة رسول الله فرض عين على كل مسلم، لأنك إن لم تعرف سنته فكيف تطبق هذه الآية، مثلاً الصلاة فرض قطعاً والوضوء شرط من شروطها لا تصح صلاة من دون وضوء، ما دامت الصلاة فرض، وشرطها الأساسي الوضوء أصبح الوضوء فرضاً، لأنه ما لا يتم الفرض إلا به فهو فرض، وما لا تتم لسنة إلا به فهو سنة، ما دام الله أمرنا أن نأخذ عن النبي، وأن ننتهي عما نهانا كيف نأخذ، وكيف ننتهي إن لم نعرف ما الذي أمرنا، وما الذي نهانا عنه ؟ إذاً: معرفة سنة النبي عليه الصلاة والسلام القولية فرض عين على كل مسلم، ولأن الله عز وجل يقول:

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآَخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا(٢١))

(سورة الأحزاب)

إذاً: معرفة سيرة رسول الله فرض عين على كل مسلم، فالنبي قدوة بأقواله وأفعاله وإقراره، وهو الحجة البالغة على بني البشر، أن منهج الله قابل للتطبيق في كل الظروف والأحوال.

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الإيمان بالقضاء والقدر:

١ – عقيد الجبر أخطر العقائد على المسلمين:

قد ألفت النظر إلى أخطر شيء في عقيدة المسلم القضاء والقدر، لأنه إذا توهم أن الله كتب عليه كل شيء من دون اختيار منه يشلّ المسلم، وتشلّ الأمة الإسلامية بأكملها، وما من عقيدة أثرت تأثيراً سلبياً على حياة المسلمين كعقيدة الجبر، وعقيدة الجبر عقيدة فاسدة.

أيها الإخوة، لا يعقل أن يكون حال المسلم مع القضاء والقدر كقول الشاعر:

ألقاه في اليم مكتوفاً و قال له إيّاك إياك أن تبتل بالماء

***

٢ – وجودُ الأمر والنهي في القرآن يلزم منه الاختيار عند الإنسان:

الأدلة على أن الإنسان مخير لا تعد ولا تحصى، أحد أبرز الأدلة العقلية أن وجود الأمر والنهي في كتاب والسنة دليل قطعي على أن الإنسان مخير.

لو تصورنا جدارين بعرض منكب الإنسان تماماً، إذا مشى بينهما لامس الجدار الأول كتفه الأيمن، ولامس الجدار الثاني كتفه الأيسر، هل يعقل أن نقول لهذا الإنسان: اتجه نحو اليمين، أيّ يمين ؟ هل هناك فرجة بعشرة سنتمترات يتجه بها نحو اليمين ؟

إذا كان الإنسان مسيَّراً فوجود الأمر والنهي في القرآن الكريم لا معنى له، هل يستطيع راكب في مركبة أن يسأل راكباً إلى جانبه ويقول له: اتجه نحو اليسار ؟ المقود ليس بيده، فلذلك لمجرد وجود الأمر والنهي في القرآن الكريم هذا أكبر دليل على أن الإنسان مخير، هذا دليل منطقي.

٣ – الواقع دليل على اختيار الإنسان:

هناك دليل واقعي، أنت أتيت إلى هذا المسجد باختيارك، وبإمكانك ألا تأتي، وبإمكانك أن تصلي في البيت، بل وبإمكانك ألا تصلي، بإمكانك أن تصوم، وبإمكانك ألا تصوم، أنت مخير، وأقوى دليل واقعي أنك تنفق من مالك باختيارك، وقد لا تنفق، قد تعطي، وربما لا تعطي، قد تغضب، وربما لا تغضب، قد تحزن، وربما لا تحزن، فأنت مخيّر، ولولا أنك مخير، أو لو ألغي اختيارك لألغي الثواب والعقاب، وألغيت الجنة والنار، وألغي التكليف، وألغي حمل الأمانة، وأصبح الدين غير منطقي، وأصبحت الحياة تمثيلية سمجة.

هل يمكن أن تعلن عن مسابقة، والذي سوف ينجح معروف قبل الإعلان عن المسابقة، هذا كلام لا معنى له إطلاقاً.

هل يمكن أن يقف مدير المدرسة في أول يوم من العام الدراسي قبل التدريس ويقول: سأتلو عليكم أسماء الناجحين آخر هذا العام وأسماء الراسبين، انطلقوا إلى الصفوف، وادرسوا جيداً أيها الأولاد، وانتهى الأمر.

مستحيل وألف ألف مستحيل ألا يكون الإنسان مخيراً، التخيير يثمن العمل.

آيات قرآنية دالة على اختيار العبد:

موضوع آخر، الله يعلم، لكنك مخير بنص القرآن الكريم، وأقوى آية في الدلالة على أنك مخير قوله تعالى:

الآية الأولى:

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا (١٤٨))

(سورة الأنعام)

عد إلغاء الاختيار تكذيباً، قال تعالى:

الآية الثانية:

(كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (١٤٨))

(سورة الأنعام)

مستحيل وألف ألف مستحيل أن تكون مسيَّراً، إذا كنت مسيَّراً فلماذا يحاسبك الله عز وجل ؟ أنت ماذا فعلت في الدنيا، ما زدت على أن نفذت أمر الله عز وجل، لذلك العوام ينطقون بكلام هو الكفر بعينه، يقول لك: (كاسات معدودة بأماكن محدودة)، (لا تعترض فتنطرد)، الله باليه، (الله ما كتب له الهداية)، هذا كله كلام يتناقض مع القرآن الكريم ، قال تعالى:

الآية الثالثة:

(فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ (٢٩))

(سورة الكهف)

الآية الرابعة:

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (٣))

(سورة الإنسان)

الآية الخامسة:

وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ (١٤٨)

(سورة البقرة)

آيات كثيرة جداً.

سيدنا عمر جيء إليه بشارب خمر فقال: << أقيموا عليه الحد >>، قال: والله يا أمير المؤمنين إن الله قدر علي ذلك، قال: أقيموا عليه الحد مرتين، مرة لأنه شرب الخمر، ومرة لأنه افترى على الله، قال: ويحك يا هذا، إن قضاء الله لن يخرجك من الاختيار إلى الاضطرار >>، أنت مخير فيما كلفت به.

لكن التوضيح لو قرأت القرآن الكريم، ووقفت عند بعض الآيات:

دفع شبهات ورفع إشكالات: يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ

(يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ (٩٣))

(سورة النحل)

أولاً: ببساطة ما بعدها بساطة يمكن أن يعود الفاعل في الفعل (يشاء) على الإنسان، فمَن شاء الضلالة يسمح الله له أن يكون ضالاً، لأنه مخير، ومن شاء الهدى يعينه الله على الهدى لأنه مخير، فيعنيه على الهدى، لقوله تعالى:

(الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا (١٧٣))

(سورة آل عمران)

(إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣))

(سورة الكهف)

زدناهم هدى، هدى التوفيق، أنت اخترت الهدى فدلك الله عليه ووفقك إليه.

لذلك أيها الإخوة، أنت مخير قطعاً بدليل واقعي، وبدليل منطقي، وبدليل قرآني، وبدليل من فعل الصحابة الكرام، لكن إذا كان هناك آيات يشم منها رائحة الجبر، يشم لها تأويل الجبر، فلابد لها من تفسير، ومن هذه الآيات:

(يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ (٩٣))

(سورة النحل)

أبسط تفسير، وأيسر تفسير أن المشيئة تعود على الإنسان، فالذي أراد الضلال أراد، الشهوة، أراد التفلت من منهج الله، لأنه مخير يسمح الله له ذلك، والذي أراد الهدى الله عز وجل يعينه على ذلك فيزيده هدى.

الإضلال الجزائي نتيجة لضلال العبد الاختياري:

وهناك معنى آخر، إذا عزي الضلال إلى الله فهو إذا عزي الإضلال إلى الله عز وجل فهو الإضلال الجزائي المبني على ضلال اختياري، قياساً على قوله تعالى:

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ (٥))

(سورة الصف)

أوضح مثل لها: طالب في الجامعة لم يداوم، لم يقدم امتحانا، لم يشتر الكتب أصلاً، جاءه إنذار تلو إنذار تلو إنذار، فأصرَّ على موقفه، الآن سيصدر قرار بترقيك قيده من الجامعة، هل هذا القرار فيه تجنٍّ عليه، أم أنه تجسيد لاختياره ؟ هكذا إذا عزي الإضلال إلى الله فهو الإضلال الجزائي المبني على ضلال اختياري، فقط ليس غير.

هناك آيات كثيرة تحتاج إلى توضيح:

(ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ (٨٨))

(سورة الأنعام)

عادت المشيئة إلى العبد بنص هذه الآية الكريمة.

و في آية أخرى:

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ (٢٩))

(سورة الكهف)

لكن:

(وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ (٣٠))

(سورة الإنسان)

بين مشيئة العبد ومشيئة الله:

فيما يبدو أن مشيئة الإنسان ربطت بمشيئة الله، قد يظن بعض الناس أن هذه المشيئة التي ربطت بمشيئة الله كان ربطاً جبرياً، لكنه ربط تفضلي، لأن الله عز وجل أعطانا حرية الاختيار، فإذا اختار أحدنا طريق الجنة، وسلكها، واستحق الجنة فيتفضل الله عليه، فيذكره بفضله، يقول: لولا أنني أعطيتكم حرية الاختيار، واخترتم الجنة لما كنتم في الجنة، ولولا أنني شئت لكم أن تشاءوا لما دخلتم الجنة، فهذا ربط فضل لا ربط جبر.

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ (٢٩))

(سورة الكهف)

(إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ (٣٠))

(سورة الكهف)

لولا أن الله شاء لكم أن تشاءوا لما شئتم الجنة.

أنت دخلت إلى محل فيه قطع ذهبية ثمينة، وليس معك مال إطلاقاً، فقال لك صاحب المحل: اختر ما شئت، وخذه هدية، فأنت اخترت أثمن قطعة، ووضعتها في جيبك، ثم انصرفت، قال لك البائع: لولا أنني خيرتك، ووهبت لك ما تختار لما نلت هذه القطعة، كذلك لولا أن الله خيرنا فاخترنا الجنة، ودخلنا الجنة إن شاء الله لما كان هناك دخول للجنة، فهذا الربط ليس ربطَ جبرٍ، لكنه ربط فضل.

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ (٢٩))

(سورة الكهف)

(وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ (٣٠))

(سورة الإنسان)

آية ثالثة، قال تعالى:

(وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا (١٣))

(سورة السجدة)

ولكن هناك إشكال:

(وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣))

(سورة السجدة)

هذه من الآيات المتشابهات التي ينبغي أن نعرف حقيقتها، معنى الآية: أنتم تزعمون يا عبادي أن أعمالكم السيئة من تقديري ومن إجبارٍ مني، أنتم واهمون، لأنني لو أردت أن أجبركم على شيء ما لما أجبرتكم إلا على الهدى، ولو أردت أن ألغي هويتكم، لو أردت أن ألغي اختياركم، لو أردت أن ألغي أنكم جئتم إلى الدنيا مخيرين، لو أردت أن ألغي بشريتكم، لو كنت مجبركم على شيء ما لما أجبرتكم إلا على الهدى، لو شئنا أن نلغي اختياركم، أن نلغي تكليفكم، أن نلغي حمل الأمانة، لو شئنا أن نلغي هويتكم أنكم مخلوقون مخيرون، قال تعالى:

(وَلَوْ شِئْنَا لَآَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا (١٣))

(سورة السجدة)

لو كنت مجبركم على شيء ما لما أجبرتكم إلا على الهدى، ولكن هذه الأعمال من صنعكم، ومن اختياركم، وسوف تحاسبون عليها.

إنه خطأ كبير: عزوُ المصائب إلى القدَر والخير إلى النفس:

لذلك أيها الإخوة، الإنسان دائماً دون أن يشعر يعزو أخطائه إلى القضاء والقدر، أما فضائله فينسبها إلى ذاته، يقول لك: نجحت وتفوقت، نلت الجائزة الأولى، أسست عمل، ربحت، أما إذا لم ينجح يقول: هكذا الله يريد، وهذا ترتيب سيدك، لماذا لم تقل: أنا السبب برسوبي ؟

إن الإنسان إذا أصابته مصيبة قال: هكذا الله يريد، ما بيدنا شيء، نحن عبيد امتحان، ولسنا عبيد إحسان، لماذا كل السلبيات تعزوها إلى الله، والإيجابيات تعزوها إلى نفسك ؟ أنت غير منصف، أنت تتهم الله.

مرة كنا في مؤتمر، وقام رئيس المؤتمر، ووجه تهمة للأمة العربية، والله هو محق فيها، قال: أنتم أيها الإخوة الكرام، تعزون أخطاءَكم إلى القضاء والقدر، وتقولون: الله عز وجل هكذا أراد أن تتسلط علينا الشرذمة القليلة، مَن قال لك ذلك ؟ هذا جزاء التقصير، لذلك قالوا: الشيء الذي تتوهم أنك لا تستطيع أن تفعله هو الشيء الذي لا تريد أن تفعله، فإن القرار الذي يتخذ الإنسان في شأن مصيره قلما تنقضه الأيام إذا كان صادراً حقاً عن إرادة وإيمان، وهناك بيت من الشعر مشهور:

إذا ما الشعب أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر

***

أنت إذا أردت شيئاً فلا بد من أن تصل إليه بحكم أن الله جبلك على هذا، قال تعالى:

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ (٢٩))

(سورة الكهف)

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا (١٨))

(سورة الإسراء)

ثلاث آيات في ظاهرها إشكلات ثلاثة، والحقيقة غير ذلك:

الأمر واضح، إذاً: هناك إشكالات ثلاثة في آيات ثلاث، الأولى:

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ (٢٩))

(سورة الكهف)

(وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ (٣٠))

(سورة الإنسان)

والآية الثانية:

(يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ (٩٣))

(سورة النحل)

والآية الثالثة:

(وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ(١٣))

(سورة السجدة)

إشكال: الإضلال الحكمي والضلال الاختياري :

وهناك إشكال رابع ؛ هو أن الله عز وجل حينما يعزو الإضلال إليه فهو الإضلال الحكمي، كيف ؟ إن إنسانا يمشي في طريقه إلى حمص، وافتراضاً ليس في الطريق لافتات، وجد طريقين، يا ترى أيهما إلى حمص ؟ رأى رجلا واقفا فقال له مِن فضلك ؛ أيّ الطريقين أسلك إلى حمص ؟ قال: مِن اليمين، قال له: جزاك الله خيراً، قال له: انتبه هناك منحدر خطر على جسر ضيق، لما قال له: جزاك الله خيراً، تابع هذا الإنسان، وأعطاه مئة معلومة مفيدة له في هذا الطريق، لو أن إنسانا آخر وصل على هذا المفترق، والإنسان نفسه واقف، فسأله: مِن أين طريق حمص ؟ قال له: من هنا، قال له: أنت كذاب. هل يستطيع هذا الإنسان أن يتابع ذكر التفاصيل ؟ لأنه كذب فمنع منه الخير، منع منه الهدى، وهذا منع حكمي، فإذا رفض الإنسانُ الدين صار ضالا من نفسه عن هدى القرآن، لأنه منع نفسه عن هداية النبي العدنان، وهذا إضلال حكمي.

الإضلال عن الشركاء:

آخر شيء، عندنا الإضلال عن الشركاء، الله عز وجل يغار على عبده المؤمن أن يتجه على غير الله، فلو اتجه إلى غير الله فإن الله عز وجل يضله عن هذا الذي اتجه إليه، فيخيب ظنه، هذا إضلال.

مثلا: يكون للإنسان صديق حميم تسلم منصبا رفيعا، فقال له: أنا في خدمتك، يذهب إليه فيتجاهله، ويتنكر له، قال له: بعنف ليس هناك موافقة، فيزلزله، أين الصداقة ؟ لأنه علّق الأمل عليه، فألهم هذا الذي أشركه مع الله عز وجل أن يتنكر له، فكأنه أضله عن شريكه، هذا معنى من معاني الإضلال، هذا إضلال إيجابي.

كلما تعلقت بجهة، ونسيت الله عز وجل يضلك عنه، وهذه قاعدة، أيّ جهة تعتمد عليها اعتماداً كلياً ـ أنا أقول لك هذا لا من باب علم الغيب، ولكن من باب علم القوانين ـ سوف تخيب ظنك، لأن الله يغار عليك أن تتجه إلى غيره، فإذا علقت الأمل على غيره أضلك.

أحيانا يعلق إنسان آماله كلها على أولاده، أو على أحد أولاده، فيسافر، ويتزوج، ويمر ثلاث سنوات ولا يتلقى منه اتصالا هاتفيا واحدا، لماذا ؟ لأنه علق آمالا كثيرة على ابنه الوحيد.

أحيانا يعلق الأمل على زوجته، فتكون معه قاسية ولئيمة إلى أبعد الحدود، فها معنى: أضله عن شريكه.

أحيانا يعلق الآمال بماله فيبتليه الله بمصيبة لا يحلها المال إطلاقاً.

مرة غلط أحدُهم وقال: الدراهم مراهم، قال: جلست في السجن المنفرد أربعة وستين يوما، ويأتيني كل يوم ألف خاطر، الدراهم مراهم، هذا شرك ؛ أن تقول: الدراهم مراهم.

هناك أمراض، مرة كنت عند طبيب فجاءه اتصال هاتفي، سمعت صوته من الهاتف القديم عاليا جداً، سمعت المكالمة، قال له: أيّ مكان في العالم، أيّ مبلغ، قال له: والله ما لا أمل، السرطان في الدرجة الخامسة، معه مليارات الدراهم، لكن ليست بمراهم، المراهم لطف الله، المراهم توفيق الله، المراهم حفظ الله.

خاتمة:

أيها الإخوة الكرام، القضاء والقدر من أدق الأبحاث، لأنه إذا فهمناه خطأً شلت حركتنا، وإن فهمناه فهماً إيجابياً تألقنا، وانطلقنا إلى العمل.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٨هـ - مقاصد الشريعة - الدرس (١٤- ٢٧) : المصائب

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٧-١٠-٠٤

بسم الله الرحمن الرحيم

العبرة أن تكشف حكمة المصيبة:

أيها الإخوة، ليست العبرة أن تعلم أن هناك مصيبة، ولكن العبرة أن تكتشف حكمة المصيبة، لأن إدراك الحدث شيء سهل جداً، لكن أن تدرك الحكمة من هذا الحدث هنا البطولة، فالمصائب موجودة، هناك فقر، وقهر، وفقد حرية، ومرض، ومصائب لا تعد ولا تحصى، وهذا شيء واقع، وهو قدرنا في الحياة الدنيا، ولكن لما ؟

إن إنسانا يركب مركبة فيها ضوء أحمر تألق في لوحة البيانات، المشكلة ليس أنه تألق أو لم يتألق، لقد تألق ورآه راكب المركبة رأي العين، لكن المشكلة لماذا تألق ؟ فلو توهم راكب المركبة أو قائدها أن هذا التألق تزييني لاحترق المحرك، أما إذا فهم التألق تألقا تحذيريا أوقف المركبة، وأضاف الزيت، وسلم المحرك، وتابع الرحلة، وحقق الهدف.

إذاً: المشكلة ليست في أنه تألق أو لم يتألق، المشكلة أنه تألق، لكن لمَ تألق ؟ السؤال الأكبر: لمَ كانت المصائب ؟ لذلك قيل: من لم تحدث المصيبة في نفسه موعظة فمصيبته في نفسه أكبر. دائماً وأبداً حينما يأتي الشيء على خلاف ما ترجو توقف وابحث ودقق وتأمل واتهم نفسك.

((يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ، إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ))

[مسلم عن أبي ذر]

إياك أن تحابي نفسك، كن مع نفسك شديداً، كن مع نفسك واقعياً، الله عز وجل غني عن تعذيبنا، قال تعالى:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ (١٤٧))

(سورة النساء)

لا بد من حكمة بالغة من شدة ساقها الله للإنسان، فلذلك المصائب لها حِكم بليغة، عرفها من عرفها، وما أقلّهم، وجهلها مَن جهلها، وما أكثرهم.

لكن للتوضيح، هذه المركبة السيارة لماذا صنعت ؟ صنعت من أجل أن تسير، فعلة صنعها السير، ولماذا كان فيها المكبح، والمكبح نظرياً يتناقض مع علة صنعها، صنعت كي تسير، والمكبح يوقفها، تفسير ذلك أن المكبح وإن كان يتناقض مع علة صنعها إلا أنه ضمان لسلامتها، فبين أن تفهم المكبح أنه يتناقض مع علة صنع السيارة، وبين أن تفهم المكبح أنه ضمان لسلامتها.

الآن مع الآيات:

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (٤٢))

(سورة الأنعام)

إذا كنا مقطوعي الصلة بالله، فتأتي المصيبة من أجل أن تدفعنا إلى باب الله من أجل أن تسوقك إلى الإقبال على الله، من أجل أن تمرغ جبهتك في أعتاب الله، من أجل أن تذوق طعم القرب، إذاً: المصائب لها حكم جليلة.

آية ثانية:

(وَلَقَدْ أَخَذْنَا آَلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠))

(سورة الأعراف)

المصيبة رسالة ربّانية:

المصيبة رسالة، نحن الآن عندنا مصطلح جديد، يقال: هذا العرض العسكري رسالة إلى دول الجوار، الله عز وجل له رسالات كثيرة، من هذه الرسالات قوله تعالى:

(وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آَيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧))

(سورة القصص)

لولا أن الله يسوق لعباده هذه المصائب لكان الله ملوماً يوم القيامة من قِبَل الناس.

للتقريب: لو أن ابناً في الصف الخامس طلب من والده ألاّ يدرس، قال له: لك ذلك يا بني، فترك الدراسة، نام إلى الظهر، استمتع بالحياة استمتاعا تميز به عن كل مَن حوله، لما أصبح شاباً التفت حواليه، فإذا به بلا عمل، ولا شهادة، ولا زواج، ولا بيت، وغالب أوقاته يتسكع في الطرقات، فنقم على والده، وقال له: يا أبت، يوم قلت لك: أحب ألا أدرس لمَ لمْ تصفعني ؟ لمَ لمْ تشدد عليّ ؟ لمَ لمْ تردعني ؟ لماذا تساهلت معي ؟

(وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧))

(سورة القصص)

لذلك القاعدة الدقيقة الذهبية: كل شيء وقع أراده الله، وكل شيء أراده الله وقع، وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة، وحكمته المطلقة متعلقة بالخير المطلق، فهذه المصائب يسوقها الله عز وجل من أجل التضرع، ومن أجل التذكرة، ومن أجل الرجوع إلى الله.

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ (٤١))

(سورة الروم)

(لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤١))

(سورة الروم)

الانحلال الأخلاقي نتج عنه الإيدز، والإيدز ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون، فالمصائب مكابح، هناك حِكم جليلة لو كشفت لذاب الإنسان كما تذوب الشمعة حباً لله وتقديراً له، وشكراً على هذه المصائب، وقد سماها العلماء النعم الباطنة، قال تعالى:

(وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً (٢٠))

(سورة لقمان)

أنواع المصائب:

أيها الإخوة الكرام، لكن المصائب أنواع، ومن السذاجة البالغة أن تظنها نوعاً واحداً، الأنبياء مبتلون، أشد بلاءً الأنبياء وأنا أشدهم بلاءً ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على قدر إيمانه.

المصائب ما نجا منها الأنبياء، بل هم أشد الناس ابتلاءً، ثم الأمثل فالأمثل.

إذاً: هناك مصائب خاصة بالأنبياء، هناك مصائب خاصة بالمؤمنين، هناك مصائب خاصة بأهل الشرك والفسق والفجور.

١ – مصائب الأنبياء مصائب كشفٍ:

نبدأ بمصائب الأنبياء، مصائب الأنبياء مصائب كشف، هذا النبي الكريم ينطوي على كمال يفوق حد الخيال، هذا الكمال لا يظهر إلا في ظروف صعبة جداً.

إن الإنسان أحياناً يُنال من جانبه، فيتمنى أن يوقع أشد العذاب بمن تطاول عليه، أما أن يأتي سيد الخلق، وحبيب الحق، وسيد ولد آدم، وسيد الأنبياء والمرسلين يمشي على قدميه ما يزيد على ثمانين كيلو مترا في أصعب الجبال وعورة ليصل إلى أهل الطائف يدعوهم إلى الله ليهديهم إلى سواء السبيل، لينقذهم من النار، ليخرجهم من الظلمات على النور فكذبوه، وسخروا منه، وأغروا صبيانهم

أن ينالوه بالأذى، هذه مصيبة، لكن هذه المصيبة سوف تعبر بعد قليل عن الكمال الذي ينطوي عليه النبي.

أراد الله أن يمكنه من أن ينتقم فأرسل ملك الجبال، قال: يا محمد، أمرني ربي أن أكون طوع إرادتك، لو شئت لأطبقت عليهم الأخشبين الجبلين، الآن مُكّن أن ينتقم منهم، لكنه قال: اللهم اهدِ قومي، قال: قومي، وما تبرأ منهم.

أحيانا يذهب إنسان إلى بلد غربي فيرجع ويقول لك: العرب متخلفون، ويتبرأ منهم نهائياً، لكن النبي قال: اللهم اهد قومي، دعا لهم بالهدى، وما تبرأ منهم، واعتذر عنهم، قال: فإنهم لا يعلمون، ورجا من الله أن يخرج من أصلابهم من يوحده، هذه مصيبة، لكن أظهرت عظمة هذا النبي ورحمته بالخلق.

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ(١٢٨))

(سورة التوبة)

هذا صنف من المصائب يصيب الأنبياء والمرسلين والصديقين وكبار العلماء والدعاة، يدفع ثمن عقيدتهم.

جاءوا لأحد العلماء بشيخ كي يلقنه الشهادة، قبل أن تنهى حياته، وهو عالم جليل، وشيخ كبير، الذي لقنه الشهادة قال له: أنا أموت من أجل لا إله إلا الله، أما أنت فترتزق بها، وشتان بين من يموت في سبيل الله ومن يرتزق بـ: لا إله إلا الله، لذلك يقول الإمام الشافعي: " لأن أرتزق بالرقص أهون من أن أرتزق بالدين "، والذين يرتزقون بالدين اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً.

مصائب الأنبياء والمرسلين وكبار المؤمنين والعلماء الربانيين مصائب كشف لكمال ينطوون عليه، هذه زمرة.

٢ – مصائب المؤمنين مصائب دفع ورفع:

المؤمنون، المؤمن إنسان مستقيم، لكنه يكون مقصِّرا أحياناً في أداء واجباته، أو في عباداته، أو يكون مشغولا بالدنيا، أو قد غرق في المباحات أو في التحريش بين المؤمنين، بدافع أو بآخر هذا الإنسان عند الله جيد، وعند الله له مكانة، لكن يمكن أن يعالَج، لذلك مصائب المؤمنين مصائب دفع إلى باب الله.

في المؤمن تقصير وفتور، وخطى بطيئة وتكاسل أحياناً، فالمؤمن إذا أصابه التكاسل، وإذا أصابته الفترة، وإذا أصابه الضعف يأتيه شبح مصيبة يسوقه إلى الله عز وجل، لذلك قال تعالى:

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧))

(سورة البقرة)

مصائب المؤمنين مصائب دفع، هناك بطء، و تقصير وفتور في الهمة، تأتي المصيبة فتدفعه إلى باب الله، وتلجئه إلى باب الله، وتدعوه إلى المبالغة في طاعته لله، وتدعوه إلى إتقان عباداته، وتدعوه إلى قيام الليل، تدعوه على تلاوة القرآن الكريم، إلى المبالغة في غض بصره، فهي مصائب دفع إلى باب الله، قال تعالى:

(الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧))

(سورة البقرة)

بلوغ المراتب العالية بين الصبر على المصيبة والأعمال الصالحة:

إن المركبة التي تمشي ببطء شديد إلى هدفها لو أنها أسرعت لحققت أهدافاً كبيرة جداً، هذه مصائب بعض المؤمنين.

هناك مصائب أخرى لمؤمن يمشي بسرعة، لكنه اختار من الأعمال الصالحة أقلّها قيمة، فمَثَلُه كمثل إنسان يحمل في مركبته بضاعة الطن الواحد أجرته مليار، فحمل نصف طن ومركبته تتحمل ثمانية أطنان، فإذا قبل الإنسان بمرتبة دنيا فالله عز وجل لمحبته له يسوق له بعض المصائب كي يصبر عليها، فيرفع درجته عند الله.

كلمة من القلب إلى القلب: أنت كمؤمن مستقيم غالٍ على الله لك عنده مرتبة، فإما أن تبلغها بصبر على مصيبة، وإما أن تبلغها بعمل صالح، أيهما أهون ؟ لا بد من بلوغها، وسقف المؤمن هنا، هو قبل هنا، إذاً: لا بد من أن نرفع السقف، فإمّا أن أختار بلوغ مرتبة الصلاح بخدمة الخلق، أو بصبر على مصيبة.

أنا أنصح نفسي وأنصحكم جميعاً أن تنطلق لخدمة الحلق حتى يعفيك الله عز وجل من مصيبة تصبر عليها فتبلغ هذه المرتبة، الله عز وجل أعطاك مالاً فلمَ تقصّر في إنفاقه ؟ أعطاك مكانة لمَ تقصر في جعلها موظفة في الخير ؟ أعطاك طلاقة لسان لمَ تميل إلى السكوت، ولا تحب أن تلقي كلمة، ولا تحب أن تعلم العلم ؟ فكل إنسان عنده إمكانيات عالية، وبذل بعضها، فتأتيه مصيبة لرفع السقف حتى يصل إلى أعلى إمكان يمكن أن يصل إليه، مصائب المؤمنين مصائب دفع ورفع، مصائب الأنبياء مصائب كشف، والآية الواضحة جداً الخاصة بالمؤمنين:

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧))

(سورة البقرة)

٣ – مصائب المنحرفين مصائب قصمٍ وردع:

أيها الإخوة، أما مصائب المنحرفين الشاردين الكفار المشركين العصاة الفجار نوع ثالث، هما مصيبتان، إما أنها مصيبة قصم، أو أنها مصيبة ردع، فإذا كان فيه بقية خير تأتيه مصيبة ردع، مصيبة يشيب لهَوْلِها الولدان، مصيبة تَدَع الحليم حيران، قال تعالى:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢))

(سورة البروج)

الله عز وجل عنده أدوية مُرّة.

بالمناسبة، في أيّ مكان في العالم كنتَ فإن الله عنده أدوية لكل مكان، بحسب البيئة والتركيبة، في بلاد فيها حريات لا حدود، لها أموال طائلة، بلاد جميلة، قطعة من الجنة، حريات إلى أعلى درجة، حقوق الإنسان متوافرة بشكل مذهل، قد يأتي مرض عضال يري صاحبه النجوم ظهراً، وفي مكان آخر شدة وسيوف مسلطة فوق الناس، كل بلد له تركيبة معينة، كل بلد له وضع معين، الله عز وجل قادر على أن يسوق عباده إليه في أي مكان.

مرة أَحَبَّ رجلٌ أن يسألني سؤالا محرجا قال: دعْوتك خلال خمس وثلاثين سنة ما ملخصها ؟ يريد كلمة ألخص بها دعوتي خلال خمس وثلاثين سنة، قلت له كلمة واحدة بالتعبير الدارج: إمّا أن تأتي ركضا وإمّا أن يحضرك ركضا، إما أن تأتيه طائعاً مسرعاً أو هو قادر أن يأتي بك طائعاً مسرعاً.

قال لي واحد أحدُهم: حققت أرباحا مذهلة في السبعينيات، وكان الدولار بثلاث ليرات، وضعت في جيبي خمسمئة ألف، وذهبت إلى بلاد جميلة جداً بعيدة، قال: مِن دون زوجتي كي آخذ حريتي، هكذا قال لي بصراحة، وصل إلى هناك فشعر بآلام في ظهره، أجرى فحصا فظهر ورم خبيث في النخاع الشوكي، قطع الرحلة، وعاد إلى الشام، وبدأ من جامع إلى جامع، ومن شيخ إلى شيخ، حتى وصل إلي، الله عز وجل جاء به مسرعاً، لأن الله يحبنا، لأنه خلقنا للجنة، لأنه خلقنا ليسعدنا، لا ينسى من فضله أحدا، وهذا فضلٌ إلهيّ ساقه إلي.

مصائب الشاردين العصاة الفجار الكفار المشركين مصائب ردع إذا كان فيهم بقية خير، جاء هذا الرجل إلى الشام وأحرى فحوص التشخيص، فتبيّن أن الفحص الأول غير صحيح هناك، فالله عافاه ورده، القصة طويلة، لكن مصائب المنحرفين مصائب ردع أو مصائب قصم تنهيه.

والحمد لله رب العالمين

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٧-١٠-٠٥

بسم الله الرحمن الرحيم

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

١ – الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة سادسة:

أيها الإخوة، يكاد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يكونان الفريضة السادسة.

٢ – الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر علّة خيرية هذه الأمة:



قال الله عز وجل:

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنّاس(١١٠))

(سورة آل عمران)

أيْ: أصبحتم ببعثة النبي عليه الصلاة والسلام خير أمة أخرجت للناس، ولكن ما علة هذه الخيرية ؟ قال:

(تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ)

كيف بكم إذا انقلبت موازين المعروف والمنكر:

فإن كف المسلمون عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقدوا خيريتهم، وكانوا أمة كأي أمة خلقها الله، وهذا معنى قوله تعالى يجيب عن هؤلاء الذين ادعوا أنهم أحباب الله وأبناءه:

(قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمّنْ خَلَقَ (١٨))

(سورة المائدة)

أيْ: ليس لكم أية ميزة، فالمسلمون إذا تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقدوا خيريتهم، وأصبحوا كأية أمة خلقها الله، لأنه هان أمر الله عليهم فهانوا على الله، لذلك في بعض الأحاديث الشريفة:

((كيف بكم إذا لم تأمروا بالمعروف، ولم تنهوا عن المنكر ؟ قالوا: أوَ كائن ذلك يا رسول الله ؟ قال: وأشد منه سيكون، قالوا: وما أشد منه ؟ قال كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف ؟ قالوا: أو كائن ذلك يا رسول الله ؟ قال: وأشد منه سيكون))

[ابن أبي الدنيا وأبو يعلى الموصلي في مسنده عن أبي أمامة بسند فيه ضعف]

الحالة الأولى فيها تقصير في الأمر بالمعرف والنهي عن المنكر، والحالة الثانية أشد بكثير، فيها النقيض، أمر بالمنكر ونهي عن المعروف، لكن في الحالة الأولى والثانية معروف ومنكر، فمرة قصرنا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومرة فعلنا العكس، لكن معالم المعروف والمنكر واضحة.

أما أخطر حالة الحالة الثالثة، قال:



((كيف بكم إذا أصبح المعروف منكراً والمنكر معروفاً ؟))

الذي يأكل المال الحرام يسمى عند الناس ذكيًا، والفتاة المتفلتة تسمى بالتعبير المعاصر حضارية، والمنافق يسمى لبقاً ومرناً، القيم تبدلت أو انعكست، لذلك أخطر مرحلة تمر بها الأمة إذا أصبح المعروف منكراً والمنكر معروفاً، وكنت أقول دائماً البيت من الشعر الذي عده أدباء العرب أهجى بيت قالته العرب:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

***

هذا البيت شعار معظم المسلمين.

أيها الإخوة، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو الفريضة السادسة، وفي أية لحظة نمتنع عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نكون قد فقدنا خيريتنا، وأصبحنا أمة كأي أمة من الأمم الشاردة عن الله عز وجل، لا شأن لها عند الله، وليست مستجابة الدعوة.

٣ ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تدركه الفطرة:

لكن أيها الإخوة، هناك ملمح دقيق جداً من كلمة (معروف) ومن كلمة (منكر)، هاتان الكلمتان تشيران إلى الفطرة، فأيّ إنسان بفطرته يعرف المعروف ابتداءً، بلا تعليم، بلا توجيه، بلا دراسة، وأي إنسان بحسب فطرته يعرف المنكر ابتداءً، الفطر السليمة تعرف المعروف، والفطر السليمة تنكر المنكر، لذلك الفطرة ما لم تنطمس فهي مقياس للمعروف والمنكر.

أيها الإخوة الكرام، الإنسان إذا كان صافياً في نفسه وقلبه فإنهما ينبئانه بصواب عمله أو بخطأ عمله.

٤ ـ من صفات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

أيها الإخوة الله عز وجل يقول:

(وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ)

(سورة التوبة: الآية ٧١)

أضرب لكم مثلا بسيطا: أب له ابنة أخ زارته وهي ترتدي ثيابا فاضحة أو ضيقة، يستقبلها، ويرحب بها، ويثني على جمالها، وعلى أناقتها، وعلى دراستها، ويسألها عن والدها، ولا يخطر في بال العم ثانية واحدة أن يلفت نظرها إلى ثيابها الفاضحة.

٥ ـ تركُ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أحد أسباب هلاك الأمم:



لذلك أحد أسباب هلاك الأمم:

(كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ(٧٩))

(سورة المائدة)

هذا واقع المسلمين، مجاملات، مجاملات القوي أو الغني مهما ارتكب من موبقات، مهما تجاوز الحدود يمدحه الجميع، ويثني عليه الجميع، ويوقرونه ويرفعونه، لكن إن الله ليغضب إذا مدح الفاسق.

الأب إذا جاءه ضيف من أقربائه يكون مزاجه غير مقبول، ولا يصلي، وله تطرفات، وله انحرافات، والأب قال لأولاده: ما شاء الله هو فهيم، ذكي، ماذا فعل الأب مع أولاده ؟ أوقعهم في اضطراب شديد، إن الله ليغضب إذا مدح الفاسق، بل ينبغي أن تكون دقيقاً في كلامك، لأن المديح يعني أنك تقره على عمله.

٦ – الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تضييق لدوائر الباطل، وتوسيع لدوائر الحق:

فيا أيها الإخوة الكرام، ما لم يكن هناك أمر بالمعروف أو نهي عن المنكر فالمشكلة كبيرة جداً، لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يضيق دوائر الباطل، ويوسع دوائر الحق.
اشترى إنسان الخمر، وركب مركبة عامة، فالسائق بدافع من ورعه وغيرته على هذا الدين ما سمح له أن يركب، وكان في أزمة سير خانقة، يقول هذا الذي اشترى الخمر، ولم يقبل السائق أن يركبه معه، يقول: والله هذا السائق أحد أسباب توبتي، وقف ساعة ونصفا ولم يجد سيارة، لأنه حامل للخمر، فلذلك ندم.
هناك طبيب قلب بعد أن أجرى عملية جراحية قدمت له هي هدية زجاجة خمر غالية جداً، فرفضها بشدة، فقال له الذي قدمها له: قدِّمْها لمن تريد، قال: أنا لا أشرب الخمر، ولا أقدمه هدية لأحد، يقول هذا المريض الذي شفي من عملية خطيرة: والله هذا الطبيب سبب توبتي.
سائق سيارة على خط بيروت دمشق جاءه شاب وشابة ليركبا معه من بيروت إلى دمشق، ركبا، قالا له: انتظر ربع ساعة سوف تأتي حقيبة فانتظر، يبدو أن الوقت طال عن ربع ساعة، فالسائق ضجر، ثم جاء رجل كبير في السن في سن السبعين حاملا حقيبة على رأسه، وقدمها، فهذا الشاب ضربه على رأسه، قال له: لماذا تأخرت ؟ السائق ما انتبه، وُضعت المحفظة، وانطلقت السيارة، بعد ربع ساعة من سير المركبة تقول هذه الشابة زوجته للشاب: أيحق لك أن تضرب أباك ؟ فأوقف السائق المركبة، قال له: هذا أبوك !؟ أنزل وهذا المبلغ، هذا السائق على بساطته، وعلى ثقافته المحدودة لقن درسا لهذا الشاب لا ينسى.
لو أن كل واحد منا أمر بالمعروف ونهى عن المنكر الباطل تضيق دوائره ، لكن كل واحد منا يسكت فيؤثر السلامة، وما يريد أن يحرج أحدا، ولا يريد أن ينكشف اتجاهه الديني ولا يريد أن يُسأل، هو يمشي مستقيما، وانتهى أمره، لذلك قال تعالى:

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (١١٧))

(سورة هود)



صالحون يُهلكون، أما المصلح فيتكلم كلمة الحق.

أخ حدثني دخل مكتبا تجاريا فيه موظفة متفلتة كثيرة في زيها، وصاحب المكتب محسوب على المسلمين، فعاتبه على هذه الموظفة، قال له ك جزاك الله خيراً، والله منذ ستة أشهر ما حدثني أحدٌ عنها كلمة إلا أنت، بارك الله فيك، وصرفها.

إن الإنسان المحسوب على المسلمين لا ينبغي أن يعيّن عنده امرأة متفلتة، وأنت أيها المسلم لا تكلفك كلمة الشيء الكثير.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الفريضة السادسة، وهي علة خيريتنا، فإن لم نفعل نفقد خيريتنا، ونصبح أمة كأي أمة خلقها الله عز وجل.

من ضوابط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

١ – عدم إنكار شيء مختلف في كونه منكرًا:

ولكن ينبغي ألا تنكر منكراً فيه خلاف بين المذاهب، لا تنكر إلا المنكر المتفق عليه.
إذا مست يدُ إنسانٍ يدَ زوجته وما توضأ، هو حنفي المذهب، فإذا كنت شافعي المذهب أيحق لك أن تنكر عليه ؟ ليس إنكارك معقولا، فلا تنكر إلا المنكر المتفق عليه.

٢ – لا تنكر منكرا ينتج عنه منكر أشدُّ منه:

شيء آخر لا تنكر منكراً ينتج عنه منكر أشد، هذا شيء متفق عليه، إذا أنكرت منكراً نتج عن هذا الإنكار منكر أشد بألف مرة من الذي أنكرته فأنت بهذا خالفت منهج رسول الله.

مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

الإنكار يكون تارة بالقلب، وتارة باللسان، وتارة بالفعل، بعض العلماء قالوا: الإنكار باللسان مهمة العلماء، والإنكار باليد مهمة الأمراء، الأمير معه سلطة.

مثلاً صدر بلاغ والله أنا أثني عليه كثيراً، الإعلان عن الدخان غرامته خمسون ألف ليرة في بلدنا، لا إعلان عن الدخان إطلاقاً، فالقوي بتوقيع ألغى الإعلان عن الدخان، وانتهى الأمر، لذلك القوي هو المكلف بالإنكار باليد، أما العالم فمهمته الإنكار باللسان.


الإنكار باللسان مهمة العلماء والإنكار باليد مهمة الأمراء

لكن الله عز وجل هو الذي يوفق الدعاة إلى إنكار المنكر، وإلى إصلاح البشر، لذلك الحسن البصري أنكر منكراً في عهد الحجاج، فبلغ الحجاج ذلك فغضب أشد الغضب ، وقال: يا جبناء والله لأروينكم من دمه، وأمر بقتله، فجاء بالسياف، ومد النطع، وكلف من يأتي به من بيته ليقطع رأسه أمام مَن حوله، فجاء الحسن البصري، ودخل على الحجاج، رأى السياف واقفا، والسيف في يده، والنطع قد مد، ففهم القصة كلها، حرك شفتيه بكلمات لم يفهما أحد، فإذا بالحجاج يقف له، ثم يقول: أهلاً بأبي سعيد، أنت سيد العلماء، وما زال به يقربه من مجلسه حتى أجلسه على سريره، واستفتاه، وضيفه، وعطره، وشيعه إلى باب القصر، الذي صعق هو الحاجب والسياف، فتبعه الحاجب، وقال له: يا أبا سعيد، لقد جيء بك لغير ما فعل بك، فماذا قلت لربك ؟ قال: قلت له: يا ملاذي عند كربتي، يا مؤنثي في وحشتي اجعل نقمته علي برداً وسلاماً كما جعلت النار برداً وسلاماً على إبراهيم.

المنكِر للمنكَر تحت العناية الربانية:

لما تنكر المنكر يمكن بحسب تركيبة المجتمع الذي أنت فيه، أو بحسب التقاليد والعادات التي أنت فيها قد تدفع الثمن باهظاً، لكن الله عز وجل يتولاك بالعناية، فيخضعك لقانون العناية الإلهية، فهذا الذي أنكرته تزداد قوة بإنكار المنكر، وتضعف كثيراً حينما تجبن عن النطق بالحق.

إن الإنسان أحياناً يدعى إلى طعام على المائدة خمر، يقول لك: أنا معي قرحة، لا يا أخي، قل: أنا مسلم، وهذا حرام، وهناك حالات كثيرة جداً عن الأجانب لما يمتنع إنسان عن شرب الخمر، أو على الجلوس على مائدة فيها خمر يقدِّرونه تقديرا كبيرا، وقد يعطونه الوكالة، لأنه إنسان أخلاقي. واللهِ بلغني الآن أن في الصين إذا جاءهم إنسان يريد وكالة يرسلون له فتاة إلى غرفته الساعة الثانية عشر، فإن أدخلها لا يعطى الوكالة، وإن رفضها فهو إنسان أخلاقي له مبدأ يحكمه.

الفرق بين النصيحة والفضيحة:

يا أيها الإخوة الكرام، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب وفريضة سادسة، لكن الفرق كبير بين الفضيحة والنصيحة، فإنك إن أردت إنكار منكر في إنسان فأنكره بينك وبينه من دون أن تفضحه، هذه هي الحكمة، والإنسان أحيانا أمام المجموع يتشبث بخطئه، ولا يتراجع، لكن بينك وبينه بكل أدب يمكن أن يستجيب لك ؛ ولك أجر كبير جداً.

الدين نصيحه وليس فضيحة

على كلٍّ، لو أن إنكار المنكر كان مخالفاً للعادات والتقاليد في بلد ما، لكن الله سبحانه و تعالى يخضع هذا الذي أنكر المنكر وأمر بالمعروف إلى قانون العناية الإلهية والحفظ الإلهي، فدائماً وأبداً يمكن أن تستنبط من حركة الحياة قواعد معينة.

لكنك إذا ابتغيت وجه الله عز وجل وإرضاءه، و تحصين المسلمين من أخطائهم يمكن أن تصل إلى أعلى مستوى.

أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في واقع الناس:

أنا أذكر مرة طيارا من أمهر الطيارين رفض أن يقود طائرة يوزع فيها الخمر، نظراً لتفوقه صدر قرار بمنع توزيع الخمر في طائرة يقودها هذا الطيار، بعد حين الشركة خجلت من هذه التفرقة فأصدرت قراراً بمنع تقديم الخمر على طائراتها، هذا موقف جيّد.

وأذكر مرة أن لاعب كرة اعتزل اللعب، وكان متفوقا جداً، اعتزل، واصطلح مع الله، وارتدى ثيابا ساترة، ففي مباراة مهمة جداً دولية جاء الوزير إلى بيته، وزير الشباب يرجوه أن يقبل بالاشتراك بهذه المباراة، قال له: بشرط أن أرتدي ثيابا سابلة طويلة، فقبل منه ذلك، وسرت هذه العادة بين كل اللاعبين الملتزمين.

أنت أحيانا بكلام أو بملاحظة قد تحيي معروفا، وقد تنكر منكرا فلا تزهد، وأحياناً كلمة منك تنقذ أسرة.

والله أيها الإخوة، على غير المتوقع يمكن لملاحظة تقدمها لفتاة من قريباتك، ابنة أخيك تسبّب تدينها وحجابها، ويمكن ملاحظة تقولها لتاجر يرتدع عن معاملة فيها ربا، فأنت لا تعرف الخير من كلمة

تقولها، فلا تبخل بكلمة حق تقولها بأدب لأي إنسان، لذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من لوازم هذا الدين وهو الفريضة السادسة.

اللطف واللِّينُ ضروريان في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

لكن بتلطف، عفواً، هل هناك أكفر من فرعون لأنه قال:

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (٢٤))

(سورة النازعات)

ولأنه قال:

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي (٣٨))

(سورة القصص)

ماذا قال الله عز وجل لسيدنا موسى وأخيه هارون ؟

(اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا)

(سورة طه)

قولا قولاً ليناً لمن قال: أنا ربكم الأعلى.

إذاً: مَن أمر بمعروف فليكن أمره بمعروف، ومَن نهى عن منكر فليكن نهيه بغير منكر.

إن شابا صلى إلى جانبه شيخ وقور، أعجبته صلاة الشاب، فأثنى على صلاته، قال له: حرماً، يعني إن شاء الله تصلي في الحرم المكي، هذا الشاب محدود جداً، متشدد جداً، تجهم وجهه، وجحظت عيناه، قال له: هذا لم يَرِد في السنة، قال له الشيخ الوقور: وهل ورد في السنة قلة الذوق، مَن أمر بمعروف فليكن أمره بمعروف، ومن نهى عن منكر فليكن نهيه بغير منكر.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٨هـ - مقاصد الشريعة - الدرس (١٦- ٢٧) :غض البصر

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٧-١٠-٠٦

بسم الله الرحمن الرحيم

غضّ البصر:

١ – من الموضوعات المهمّة في القرآن الكريم:

بادئ ذي بدء، حينما يوجد في القرآن الكريم موضوع فهو من الأهمية بمكان، لأنه احتل جزءًا من كتاب الله الذي تعبدنا الله بتلاوته وفهمه إلى يوم القيامة، من هذه الآيات التي احتلت جزءًا من كتاب الله آية غض البصر، قال تعالى:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ(٣٠))

(سورة النور)

٢ – الإنسان بين طبع إطلاق البصر والتكليف بالغض منه:

بادئ ذي بدء، الله عز وجل أعطانا تكليفاً من بنود هذا التكليف، غض البصر، وأعطانا طبعاً، من خصائص هذا الطبع إطلاق البصر، فطبعُ الإنسان يميل إلى إطلاق البصر، وإلى إملاء العينين من محاسن المرأة، والتكليف غض البصر، التناقض بين الطبع والتكليف هو ثمن الجنة، الدليل:

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (٤١))

(سورة النازعات)

التناقض بين الطبع والتكليف هو ثمن الجنة، الطبع يدعوك إلى أن تنظر، والتكليف يأمرك أن تغض البصر، هنا تتدخل الإرادة، معك تكليف، وفيك طبع، فإن استجاب الإنسان إلى طبعه سقط، وإن استجاب على التكليف نجح.

إذاً: سمي التكليف تكليفاً لأنه ذو كلفة، ويحتاج إلى جهد، يحتاج إلى إرادة، يحتاج إلى جَلَد، هذا هو ثمن الجنة، الجنة مستحيل وألف ألف مستحيل أن تكون بلا ثمن، ومَن طلب الجنة من دون عمل فطلبه ذنب من الذنوب، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله غالية.
حينما تدعو آية في كتاب الله إلى غض البصر فهناك حكمة بالغة في ذلك، لكن هذه الآية تقترب

من آيات الصيام، بمعنى أن غض البصر والصيام عبادة الإخلاص، وليس في قوانين الأرض قانون واحد يمنعك من أن تنظر، لكن القانون الإلهي أمرك بغض البصر، فحينما لا تكون في الأرض مُداناً إطلاقاً وتغض البصر فهذا دليل إخلاصك لله، ودليل محبتك له، ودليل أنك آثرت رضاه على شهوة نفسك.

٣ ـ غض البصر عبادة الإخلاص:

إذاً: غضُّ البصر باب كبير من أبواب القرب من الله، أنت تصلي في اليوم خمس مرات، لكن كلما غضضت بصرك عن محارم الله ارتقيت إلى الله، فكأنك في اليوم الواحد ترتقي آلاف المرات بغض البصر، لذلك الآية:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ (٣٠))

(سورة النور)

٤ ـ موجِبُ الإيمان غضُّ البصر:

أي: بمقتضى إيمانهم، وهناك عقد إيماني بينك وبين الله، والله عز وجل يخاطب العوام بأصول الدين، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١))

(سورة البقرة)

لكن يخاطب المؤمنين بفروع الدين، فغض البصر أحد فروع الدين، قال تعالى:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ (٣٠))

(سورة النور)

لا معنى أن تقول لغير المؤمن: غض بصرك، بل هذا شيء مضحك بالنسبة له، لأنه ألِف أن يطلق البصر، وأن يملأ عينيه من محاسن المرأة، فلا داعي لغض البصر، أما المؤمن فينصاع للتعليمات التفصيلية، لذلك الله عز وجل خاطب المؤمنين بما يقترب من ثلاثمئة آية، ولم يخاطب الكفار إلا بآية واحدة يوم القيامة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ (٧))

(سورة التحريم)

الكافر غير مخاطب بالتفاصيل، مخاطب:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ (٢١))

(سورة البقرة)

شأنه شأن كل البشر، لذلك هذه آية دقيقة خاصة بالمؤمنين:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ (٣٠))

(سورة النور)

٥ ـ غضّ بعض البصر:

(مِن) للتبعيض، فلك أن تنظر إلى أمك، وهي امرأة، وإلى ابنتك، وإلى أختك، وإلى عمتك، وخالتك، وابنة أخيك، وابنة أختك، هذه من المحارم، إذاً: ليس غض البصر عن كل النساء، بل عن بعض النساء، أي عن النساء الأجنبيات اللواتي لسن من محارمك.

مرة في أمريكا في أثناء إلقاء درس جاءتني رسالة من أخت، أنها طبيبة في مستشفى، وهي تقع في حرج شديد حينما يمد أحد الأطباء يده ليصافحها فتمتنع بحكم أنها ملتزمة، فتقع في حرج، فسألتني: ما الحل، قلت لها وقتها: إن الملِكة اليزابيث لا يصافحها في مجتمعها إلا سبعة رجال، لعلو مقامها في مجتمعها بحسب القانون البريطاني، والمرأة المسلمة ملكة أيضاً لا يصافحها إلا سبعة رجال من محارمها لعلو مقامها في مجتمعها بحكم القانون القرآني.

الأشياء التي يتمثل بها المؤمن ترفع قدره عند الله عز وجل، لذلك الآية:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ (٣٠))

(سورة النور)

٦ ـ نظرة الفجأة لا إثم فيها:

هذه حالة، فلك أن تنظر إلى محارمك بقيود طبعاً بثياب الخدمة، أما المرأة الوحيدة التي لك أن تنظر إليها من دون قيد أو شرط فهي الزوجة، وما سوى الزوجة فضمن ثياب الخدمة، ثياب فيها احتشام.

الآن الإنسان يمشي في طريق، وفيه منعطف حاد، فلما دخل في المنعطف رأى أمامه امرأة، اصرف بصرك، هذه الأولى، الأولى لك، والثانية عليك، إذاً: هذا أيضاً من التبعيض، نظرت إلى امرأة فجأةً، هذا أيضاً من التبعيض.

٧ ـ غضّ البصر عن تفاصيل النساء المحارم:

الآن عندنا حالة ثالثة، أنك إذا نظرت إلى امرأة تحل لك عدا زوجتك فينبغي ألا تدقق في التفاصيل، أن تنظر نظرة عامة، وهناك إنسان يدقق في التفاصيل، بخطوط الجسم مثلاً، وإذا انحسر الثوب فرضاً فأنت مأمور أن تكون عفيفاً، إلى درجة أنك لو نظرت إلى محارمك فينبغي ألا تدقق في التفاصيل، وأن يغلب عليك غض البصر إذا بدا من محارمك ما لا ينبغي أن تراه، فعندنا غض

بصر نوعي وغض بصر اسمي، بحسب المحارم وعدم المحارم، وغض بصر فجائي، هذا معنى قوله تعالى:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ (٣٠))

(سورة النور)

٨ ــ غضُّ البصر طريقٌ لحفظ الفرج:

لكن الشيء اللطيف جداً أن كلمة غض البصر جاءت قبل كلمة حفظ الفرج، لأن طريق حفظ الفرج هو غض البصر، قال تعالى:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ(٣٠))

(سورة النور)

٩ ــ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ

الله عز وجل خبير، علم ما كان، وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون.

كنت أضرب هذا المثل: هناك إنسان غير منضبط بالشرع، جاءته صديقة زوجته، جلست مع زوجته في غرفة، والوقت وقت شتاء، وغرفة الجلوس مدفأة، فصاح بزوجته أن تعالوا إلى هنا، هنا أدفأ لكم، يا ترى هو يقصد أن يكرم هذه الضيفة بالدفء أم يقصد شيئًا آخر.

(إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠))

(سورة النور)

هناك آلاف التصرفات ظاهرها بريء، لكنها تنطوي على رغبة وتجاوز لحدود الله عز وجل، لذلك إيّاكم فـ:

(إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠))

(سورة النور)

الآية الكريمة:

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ (١٩))

(سورة غافر)

١٠ – الضرورة المحدودةُ تجيز النظر إلى المرأة الأجنبية:

الطبيب مسموح له أن ينظر إلى مكانٍ في جسم المرأة تشكو منه، لكن لو أنه اختلس إلى مكان آخر نظرة بلا مبرر مَن يكشف هذه الحقيقة ؟ ليس على وجه الأرض إنسان واحد يمكن أن يكشف هذا الخطأ إلا الله.

أنت جالس في غرفتك، والنافذة مفتوحة، وأنت في جو مظلم، والجو بالخارج مضيء، فأنت لا ترى، ظهرت امرأة على شرفة البيت الذي يقابلك، مَن الذي يضبط إذا نظرت إليها أو لم تنظر ؟ الله وحده، فحينما تكون في البيت لوحدك، وتخرج جارتك إلى الشرفة بثياب متبذلة، ولا أحد على وجه الأرض بإمكانه أن يضبط هذه المخالفة إلا الله، هذا معنى قوله تعالى:

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (١٩))

(سورة غافر)

من فوائد غضِّ البصر:

لذلك أيها الإخوة، علماء كثيرون عددوا فوائد غض البصر، والله في بعض الأبحاث عُدَّتْ أكثر من مئة بند.

من فوائد غض البصر، لكن من فوائد غض البصر عند الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى:

١ – الامتثال لأمر الله:

أنه امتثال لأمر الله، وهل هناك من عمل يفوق أن تمتثل لأمر الله فشعر براحة أنك طيع، أنت عبد مستقيم، أنت استجبت لأرب العالمين، وأمر الله عز وجل مقدس عندك، فأول فائدة من فوائد غض البصر امتثال أمر الله تعالى الذي هو غاية السعادة.

٢ – منعُ وصولِ سهم إبليس المسموم إلى القلب:

البند الثاني: لأنه يمنع من وصول أثر السهم المسموم، النظرة الحرام كما وصفها النبي عليه الصلاة والسلام سهم مسموم، الفرق بين سهم مسموم وسهم غير مسموم أنّ السهم غير المسموم يصيب مكانا واحدًا في الجسم، أما المسموم فيسري السم في الجسم كله.

إذا أطلق الإنسان بصره أثّرَ هذا على دراسته، وعلى تجارته، وعلى عمله، وعلى نشاطه، لأن السم يسري، ودائماً المكبر حينما تضعه في الشمس، وتضع ورقة في محرقه تحترق الورقة، لماذا ؟ لأن هذا المكبر يجمع أشعة الشمس في بؤرة واحدة، أما ضع ورقة في الشمس فلا تحترق، ولو

أبقيتها ساعات طويلة، لأن الأشعة متوازية، أما في المكبر فتجتمع الأشعة في بؤرة واحدة، فتحرق، والمؤمن إذا غض بصره تجتمع طاقاته وقدراته في بؤرة واحدة، فيحقق النجاح، أما إذا كان مطلقًا للبصر تكون قدراته مبعثرة ومشتتة، وقد لا يتفوق في عمله، وقد ينعكس إطلاق بصره على عمله فيكون محبطاً أحياناً.

٣ ـ غضّ البصر يورث في القلب أنسًا بالله عزوجل:

شيء آخر، يورث غض البصر في القلب أنساً بالله واجتماعاً عليه، فأنت بكل غض بصر عن امرأة لا تحل لك ترقى عند الله، وتتصل به، وتؤكد لنفسك أنك مطيع لله، لذلك عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَيَعْجَبُ مِنْ الشَّابِّ لَيْسَتْ لَهُ صَبْوَةٌ))

[مسند الإمام أحمد]

إن الله ليباهي الملائكة بالشاب المؤمن، يقول: انظروا عبدي، ترك شهوته من أجلي، وما من شيء أحب إلى الله تعالى من شاب تائب، وأنا أقول: كل مرحلة من العمر فيها عبادة، تأتي الأولى للشباب الذين لا يزالون من دون زواج، العبادة الأولى لهم غض البصر، وكلما تقدم الإنسان في السن كانت عنده عبادات تأتي في الدرجة الأولى.

٤ ـ غضّ البصر يقوِّي القلب:

أيها الإخوة الكرام، غض البصر يقوي القلب ويفرحه، كما أن إطلاق البصر يضعف القلب ويحزنه، فترى المؤمن الذي غض البصر متفائلا نشيطًا متألقًا يشعر أن الله راض عنه.

٥ ـ غضّ البصر سببٌ للنور في القلب:

شيء آخر، الذي يغض بصره في بقلبه نور، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ(٢٨))

(سورة الحديد)

في قلبه نور.

٦ – غضّ البصر يورث الفِراسة الصادقة:

أيها الإخوة، شيء آخر، غض البصر يورث الفراسة الصادقة التي يميز بها الإنسان بين الحق والباطل، هذا النور في القلب يقذف في قلبك بسبب غض بصرك، هذا النور يفرق لك بين الحق والباطل.

٧ – غضّ البصر يورث الرؤية الصحيحة:

بالمناسبة، ما من عمل، ما من سلوك إلا قبله رؤية، إما أنها رؤية صحيحة، أو رؤية مغلوطة، فكل سعادتك وسلامتك أن تمتلك رؤية صحيحة، والرؤية الصحيحة أساسها غض البصر، ما دام هناك غض البصر فهناك إنابة إلى الله، ونور يقذفه الله في قلبك، يريك الحق حقاً فتتبعه، والباطل باطلاً فتجتنبه.

٨ – غضّ البصر يورث القلب ثباتًا وشجاعة وقوةً:

غض البصر يورث القلب ثباتاً وشجاعة وقوة، فقد يحس الإنسان بقوة، يشعر أن الله معه بقوة قرار، بسداد تفكير، بطلاقة لسان، بشرح، ببيان، هذه المعنويات المرتفعة من أين جاءت ؟ من طاعته لله، إذا كان ممكنًا أن يكون للمعنويات المرتفعة سُلّم قيمي فالمؤمن معنوياته في أعلى درجة، لأنه مطيع لله عز وجل، موصول بالله عز وجل.

كنت أقول لكم دائماً: حال واحد في ألف خير من قول ألف في واحد، فإذا كان الإنسان مقطوعًا عن الله لو أتينا بألف إنسان على غير اتصال بالله معهم علم قوي فالألف متكلم ليس لهم اتصال بالله لا يعادلون مجتمعين إنسانًا موصولاً يقول واحدا في ألف، فألف في واحد لا شيء، وواحد في ألف كل شيء.

لذلك واحد كألف، وألف كأف، لا نقيم لهم يوم القيامة وزنا، لهم صغار عند الله، فابتغوا الرفعة عند الله، غض البصر بينك وبين الله، ما من إنسان يكشفه، وما من إنسان يكشف مخالفته، هذا بينك وبين الله، بإمكانك أن تطرق رأسك في الأرض أحياناً، أن تتشاغل في تصفح كتاب، أنت بهذا تغض البصر، وهناك مواقف محرجة، فالإنسان يتشاغل في تقليب دفتر، يفتح مذكرته أحياناً، يكون قد غض بصره ولا أحد يشعر به.

٩ – غضّ البصر يسدّ على القلب مداخل الشيطان:

غض البصر يسد على الشيطان مدخله على القلب، قال تعالى:

(إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٥٥))

•سورة آل عمران)

إطلاق البصر جعلت للشيطان منفذاً إلى القلب، بغض البصر تغلق هذا المنفذ، بالتعبير العامي هذا كلام على ألسنة العوام، لا عين تشوف، ولا قلب يحزن، بإطلاق البصر ينشغل الإنسان، يتمنى هذه التي أطلق البصر في محاسنها أن تكون زوجته مثلها، دائماً هو في حزن، أما حينما يقطع على قلبه هذا السبيل فكأنه قطع منفذًا كبيرًا جداً للشيطان، ويسد على الشيطان منفذه على القلب.

بإطلاق البصر تحدِث فتحة للشيطان إلى القلب، والشيطان عنده فتحة سالكة ما دام إطلاق البصر متتاليًا، وهذه الفتحة خطيرة جداً، منها ينفذ الشيطان إلى قلب المؤمن، وما من شيء يبقى ثابتًا. يكون بإطلاق البصر بعد إلى كلام معسول، وقد يتطور إلى لمس، وقد تقع الفاحشة، والإنسان لا يدري، لذلك الآية الكريمة:

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (٣٢))

(سورة الإسراء)

ما قال: ولا تزنوا، لا تقربوا الزنا، الزنا له مقدمات، أحد أكبر مقدماته إطلاق البصر، لذلك:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ (٣٠))

(سورة النور)

١٠ــ غضُّ البصر يفرغ الإنسان لمصالحه:

شيء آخر، غض البصر يفرغك لمصالحك، فترى التاجر كل طاقاته في عمله، والطالب كل طاقاته في دراسته، كل إنسان له موقع له عمل، له اختصاص، إذا غض بصر فكل طاقاته مركزة على عمله، أو على دراسته، أو على إنجازاته، أما إذا تمادى في إطلاق البصر تشتت، وأصبح الإنسان ضائعًا .

خاتمة:

أيها الإخوة، علامة قوة الإرادة غض البصر، وأنت في اليوم ممكن أن تنعقد صلتك بالله مئات المرات بل آلاف المرات، كلما غضضت بصرك عن محارم الله، ودائماً وأبداً هناك أدعية رمضان، اللهم أعنا على الصيام والقيام، وغض البصر وحفظ اللسان، لكن بطولتنا أن نتابع هذه العبادة بعد رمضان إلى نهاية العام، وهذا شيء ثابت في حياة المؤمن.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٨هـ - مقاصد الشريعة - الدرس (١٧- ٢٧) : الزواج

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٧-١٠-٠٧

بسم الله الرحمن الرحيم

حقائق عن الزواج:

١ – كلُّ شهوة في الإنسان له قناة نظيفة:

أيها الإخوة الكرام، الحقيقة الأولى: أنه ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا وجعل لها قناة نظيفة تسري خلالها، أي أنه ليس في الإسلام حرمان، ولكن فيه تنظيم، فالله عز وجل حينما قال:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ (١٤))

(سورة آل عمران)

شهوة المرأة قناتها النظيفة الزواج.

بل عن الله عز وجل حينما قال:

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (٢٢))

(سورة الروم)

والسماوات والأرض مصطلح قرآني يعني به الكون، والكون ما سوى الله:

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (٣٧))

(سورة فصلت)

٢ – الزواج آية من آيات الله:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ (٢١))

(سورة الروم)

يعني خصيصَى لكم.

(مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا (٢١))

(سورة الروم)

الزوجة إنسان لها فكر، لها قلب، لها مشاعر، لها كرامتها، لها حاجاتها، تسمو، وتسقط كالرجل تماماً.

(مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا (٢١))

(سورة الروم)

إن الله هو الذي صمم الذكر والأنثى وهما من آيات الله الدالة على عظمته.

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (٣))

(سورة الليل)

٣ – كل من الذكر والأنثى مفتقرٌ إلى الآخر:

خلقهما متكاملين، أي أن كل طرف مفتقر إلى الطرف الآخر، كما أن الرجل مفتقر إلى امرأة، كذلك المرأة مفتقرة إلى الرجل.

(مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا (٢١))

(سورة الروم)

٤ – الزواج سكنى للرجل والمرأة:

علّةُ الزواج السكنى: أيْ أن الرجل يكمل نقصه العاطفي بزوجته، وعلة السكنى للمرأة إلى الرجل أنها تكمل نقصها القيادي به، هي تكمل نقصها به، وهو يكمل نقصه بها، إذاً: هناك تكامل بينهما.

(لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً (٢١))

(سورة الروم)

جعل هنا بمعنى خلق، المودة والرحمة بين الزوجين من خلق الله عز وجل، وهذه المودة والرحمة من آيات الله الدالة على عظمته، لذلك حينما سئل النبي عليه الصلاة والسلام:

((مَن أعظم الرجال حقاً على المرأة ؟ قال: زوجها، فلما سئل: مَن أعظم النساء حقاً على الرجل ؟ قال: أمه))

[الجامع الصغير عن عائشة بسن فيه ضعف]

إنّ أعظم رجل في حياة المرأة زوجها، وأعظم امرأة في حياة الرجل أمه، هذا من توجيهات النبي عليه الصلاة والسلام.

(وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً (٢١))

(سورة الروم)

التعليق: إن لم يكن بين الزوجين المودة والرحمة فهناك خلل كبير في العلاقة الزوجية، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((الحمد لله الذي رزقني حب عائشة))

[ورد في الأثر]

عدّ النبي عليه الصلاة والسلام محبة عائشة رزقًا منه:

((الحمد لله الذي رزقني حب عائشة))

لابد من السعي لأسباب المودة بين الزوجين:

لكنني أقول: الإنسان من دون ما يسعى إلى إقامة هذا الود مع زوجته قد تتطور الأمور إلى بغضاء أو إلى مشاحنة، أو إلى فتور بالعلاقة، فهذا الحب المتأجج يمكن أن يبقى مستمراً، لكن يحتاج إلى جهد يحتاج إلى كلمة طيبة، يحتاج إلى اعتذار، يحتاج إلى هدية يحتاج إلى علاقة طيبة يحتاج إلى رحمة، كما أن الإنسان قادر أن يجعل من حوله ملتفين حوله أيضاً قادر أن يجعل هذه المرأة التي في البيت شريكة حياته تميل إليه وتحبه، ثم حينما تحبه يحبها، يحبها فتحبه، تحبه فيحبها، لذلك من الخطأ الكبير أن تبقى العلاقة الزوجية فاترة بين الزوجين، لأن النبي عليه الصلاة والسلام أوصى المرأة فقال:

((انصرفي أيتها المرأة، وأعلمي من وراءك من النساء أن حسن تبعل المرأة زوجها يعدل الجهاد في سبيل الله))

[ورد في الأثر]

الجهاد ذروة سنام الإسلام.

لقد أوصى الرجال بالنساء فقال:

((أكرموا النساء، فو الله ما أكرمهن إلا كريم، ولا أهانهن إلا لئيم، يغلبن كل كريم، ويغلبهن لئيم، وأنا أحب أن أكون كريماً مغلوباً من أن أكون لئيماً غالباً))

[ورد في الأثر]

أربعة فصول لابد أن يكون الإنسان ناجحًا فيها:

أيها الإخوة الكرام، لذلك أنا أعتقد اعتقاداً جازماً أنه لا يمكن أن أسمي النجاح نجاحاً إلا إذا كان شمولياً، فأنت كرجل عندك أربعة فصول خطيرة، فصل في علاقتك بالله، وهذا أخطر الفصول، وفصل في علاقتك بأهلك وبأولادك، وفصل في علاقتك بعملك، وفصل في علاقتك بصحتك، وأيّ خلل في واحدة من هذه الأربعة تنسحب على الثلاثة الباقية، لذلك أنا لا أسمي الناجح ناجحاً إلا إذا أحكم هذه الفصول الأربعة.

هناك أشياء ثانوية يمكن أن نتساهل فيها، أما صحة الإنسان فهي قوام حياته، وعلاقته مع الله عز وجل أساس نجاحه، علاقته مع بيته أساس سعادته في بيته، علاقته مع عمله أساس كسب رزقه، فالبطولة أن نسعى جاهدين إلى علاقات ناجحة في فصول أربعة.

١ ـ علاقة العبد بربِّه:

علاقتك مع الله أن تتعرف إليه، أن تتعرف إليه خالقاً ورباً ومسيراً، أن تتعرف إلى أسمائه الحسنى وصفاته الفضلى، أن تتعرف إلى منهجه ثم أن تحمل نفسك على طاعته، ثم أن تتقرب إليه بالعمل الصالح، هذا فصل.

ما دمت في استقامة فأنت في ظل الله، وما دمت في استقامة فأنت في توفيق الله، وما دمت في استقامة فأنت في حفظ الله، وهذا المعنى أشارت إليه الآيات الكريمة حينما قال الله عز وجل:

(وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (١٩))

(سورة الأنفال)

قال علماء التفسير: هذه معية خاصة، هناك معية عامة، وهناك معية خاصة، المعية العامة: وهو معكم أينما كنتم، مع الكافر مع الملحد، مع المجرم، معه بعلمه، هذه معية عامة، لكن المعية الخاصة أن الله مع المؤمنين، معهم بالتوفيق، معهم بالتأييد، معهم بالنصر، معهم بالحفظ، قال تعالى:

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا (٤٨))

(سورة الطور)

هذه الآية في الأصل لرسول الله عليه الصلاة والسلام، ولكن أيّ مؤمن بقدر استقامته وإخلاصه له من هذه الآية نصيب، فأنت باستقامتك على أمر الله جعلت الله وليك، قال تعالى:

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آَمَنُوا (٢٥٧))

(سورة البقرة)

باستقامتك على أمر الله جعلت نفسك في ظل الله يوم لا ظل إلا ظله، جعلت نفسك في حماية الله، في توفيق الله، في تأييد الله، في نصر الله، هذا أول فصل.

لابد من طلبِ العلم للنجاح في العلاقة مع الله:

هذا الفصل يحتاج إلى طلب علم، وما مِن شيء يأتي من لا شيء، بل يحتاج هذا الفصل إلى طلب علم، يجب أن تعرف حقيقة الذات الإلهية، كيف أنه خالق، ومربٍّ ومسيّر، وأن تعرف أسماءه الحسنى اسماً اسْمًا، ومنهجه وأحكامه الشرعية.

أنت بالكون تعرفه، و بالشرع تعبده، هذا فصل، فما لم تقتطع من وقتك جزءاً ثميناً لمعرفة الله فالمشكلة كبيرة.

دققوا، هذا الذي يتفرغ لدراسة الطب، هل يعد التفرغ لهذه الدراسة تضيعاً للوقت ؟ مستحيل، يمكن بعد نيل شهادة عليا يملك اختصاصا نادرا فيصير دخل الطبيب فلكيا يومياً، لأنه أمضى وقتا في كسب هذه المعرفة، ثم جاء وقت الاستفادة منها، لذلك أيّ وقت تصرفه في حضور درس علم، في قراءة القرآن، في متابعة سنة النبي العدنان، في السؤال عن أحكام الشريعة، فأيّ وقت تقتطعه من وقتك الثمين.

أنا أسمي هذا استثماراً للوقت، وليس تضيعاً له، وأحيانا يتوهم الإنسان أنه إذا حضر الدرس يضيع نصف ساعة، هنا الخطأ الفاحش، لأن حضور الدرس استثمار للوقت.

أذكر أن إنسانا يقود مركبة ركبت معه امرأة ظاهرها محجبة، لكن الحجاب تجعله مطية لمأربها، ثم سألها: إلى أين تذهب، فأجابته بكلمة أغرته بها: أيّ تريد مكان أذهب معك، فقضى منها حاجته، أعطته ظرفين، ظرفا فيه مبلغ ضخم، وظرفا فيه رسالة، المبلغ الضخم مزور، فدخل من أجله السجن، والرسالة مكتوب فيها: مرحباً بك في نادي الإيدز.

هذا الرجل لو حضر درس علم واحدا لما قالت له: خذني إلى أي مكان تشاء، بل لفتح باب المركبة وركلها بقدمه، ونجا من السجن ومن الإيدز.

مرة قال لي إنسان: زوجتي تخونني، قلت: مع من ؟ قال: مع جاري، كيف عرفها جارك ؟ قال: مرة زارني الجار، وأنا أشفقت عليها أن تبقى وحدها في غرفتها، فدعوتها إلى أن تسهر معنا، أنت لو حضرت درس علم واحدا ما قبلت بهذا الاختلاط.

يا أيها الإخوة الكرام، حضور درس العلم استثمار للوقت، وليس هدراً له، أن تعرف الله استثمار للوقت، أنت كائن متحرك.

إذا كان الشيء ساكنا فما مِن مشكلة، كسيارة واقفة، لكن السيارة ستنطلق بسرعة مئة وعشرين كيلومترا في الساعة، إذا لم يكن لها قائد ماهر، ولا مقود محكم، ولا مكابح، ولا إشارات ضوئية، ولا إرشادات بالسير كان الحادث محققا، أليس كذلك ؟ فما من شهوة أودعها الله فينا جميعاً، وجعل لها قناة نظيفة تسري خلالها.

الفصل الأول: أن تعرف الله، أن تعرف ذاته العلية، أن تعرفه خالقاً مربياً مسيراً، أن تعرق أسماءه الحسنى، ومنهجه، ثم تحمل نفسك على طاعته، ثم تتقرب إليه.

٢ – علاقة العبد بأهله وولدِه:

الفصل الثاني: أهلك أقرب الناس إليك، شريكتك حياتك، بإمكانك أن تصنع الحب بيدك، ولو في سن متقدمة، بالكلمة الطيبة، قال تعالى:

(وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا (٨٣))

(سورة البقرة)

هذه زوجتك، وقد يدخل الرجل إلى البيت ولا يتكلم كلمة طيبة، تفتيش وسؤال فقط، وتدقيق وتمحيص، وتهجُّم، أمّا ابتسامته ورقته ونعومته واعتذاره وانحناء نصفين فهي للغريب، أما هذه التي تخدمه طوال الليل والنهار قلها الكلمة القاسية، لها فقط الاستهزاء بأهلها، يخرب بيته بيده.

إنّ الحب يُصنَع صناعة بالكلمة الطيبة، بإلقاء السلام، الاعتذار أحياناً، والهدية تجعل الود بين الزوجين، والمرأة من السهل جداً أن تكسب قلبها بكلمة طيبة، لأن طبيعتها عاطفية، لذلك الله نهاها أن تخضع بالقول، فيطمع الذي في قلبه مرض، فهي تستجيب لقول طيب من زوجها ومن غير زوجها، فإذا كان زوجها قاسيا جداً وغير زوجها أسمعها كلاماً ليناً فهنا المشكلة.

إذاً: أيها الإخوة:

(وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً (٢١))

(سورة الروم)

هذه مِن خَلق الله عز وجل، أما لما تنجح في علاقتك مع الله فتطبق منهجه، ،من تطبيق المنهج:

(وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ (١٩))

(سورة النساء)

قال علماء التفسير: ليست المعاشرة بالمعروف أن تمتنع عن إيقاع الأذى بها، بل أن تحتمل الأذى منها، وبطولة الزوج أن يكون محسناً.

أخلاقُ الإنسان تظهر حقيقة في البيت مع أهله:

بالمناسبة أيها الإخوة، أنا أصر على هذا المعنى: مقياس الخلق الكريم في البيت فقط، أمّا خارج البيت بالتعبير المعاصر (بزنس)، فمصلحتك تقتضي أن تكون لطيفاً، المصلحة تقتضي أن تكون متواضعاً، المصلحة تقتضي أن تعترف بخطئك، المصلحة تقتضي أن تكون مجاملاً، كل الأعمال التي تفعلها خارج المنزل تنتمي إلى مصالحك، وإلى كسب رزقك، وإلى تعزيز مكانتك.

أما في البيت فما مِن رقابة عليكَ، لذلك كان الخُلق الحقيقي في البيت، الدليل، ولولا الدليل لقال من شاء ما شاء الدليل:

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي))

[الترمذي]

مقياسك الدقيق أن ترحم التي في البيت، أن تعتني بالتي في البيت، أن تكون ودوداً مع التي في البيت، أن تبتسم للتي في البيت، أن تشكر هذه المرأة، وهذا الود بين الزوجين شيء نفيس جداً، البيت يصبح جنة.

هناك الآن من يقول: يجب أن يكون البيت جنة بتصرف بسيط، بإلقاء السلام، بالمودة، بالاعتذار، بالهدية، تجعل هذا البيت الذي هو فيما مضى جحيم لا يطاق تجعله جنة في الأرض.

إذا دخل الإنسان إلى البيت فليسلّم على أهله، ويجلس، ويذكر الله، وإلا استحوذ الشيطان على البيت، مأكلا ومناما وتصرفا، فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ فَذَكَرَ اللَّهَ عِنْدَ دُخُولِهِ وَعِنْدَ طَعَامِهِ قَالَ الشَّيْطَانُ: لَا مَبِيتَ لَكُمْ وَلَا عَشَاءَ، وَإِذَا دَخَلَ فَلَمْ يَذْكُرْ اللَّهَ عِنْدَ دُخُولِهِ قَالَ الشَّيْطَانُ: أَدْرَكْتُمْ الْمَبِيتَ، وَإِذَا لَمْ يَذْكُرْ اللَّهَ عِنْدَ طَعَامِهِ قَالَ: أَدْرَكْتُمْ الْمَبِيتَ وَالْعَشَاءَ))

[مسلم]

يصبح البيت قطعة من الجحيم، فإذا دخلت إلى البيت فهاك دعاء وإذا خرجت هناك دعاء.
أنا الذي ألح عليه أن تهتم بأربع محطات كبرى في حياتك، علاقتك بالله، والمحطة الثانية علاقتك بأهلك وأولادك.

٣ ـ علاقة في عملك:

والمحطة الثالثة: علاقتك بعملك، أحيانا يكون للإنسان مكانة في البيت عالية جداً، وهو ناجح في علاقته مع أهله، وله علاقة مع الله طيبة، لكنه يتأخر عن العمل، وكل يوم يسمع كلمات قاسية تهز كيانه، لأنه قصّر في عمله، فالنجاح الحقيقي نجاح شمولي لا نجاح جزئي، النجاح الجزئي لا يسمى نجاحاً، فالحكمة من الزواج أن تسكن إليها.

الحكمة من الزواج إنجاب الأولاد الصالحين:

لذلك بعض الكلمات قالها سيدنا عمر: << أقوم إلى زوجتي، وما بي من شهوة إلا ابتغاء ولد صالح ينفع الناس من بعدي >>.

الذرية الصالحة لا تقدر بثمن، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ (٢١))

(سورة الطور)

كل أعمال الذرية في صحيفة الأب، إلا في حالات نادرة وقليلة جداً، أحيانا يكون الابن له اختيار معاكس لوالده، ويكون الأب قد بذل كل شيء من أجل ابنه، عندئذ الأب معفى من المسؤولية، وتنطبق عليه الحالة التي ذكرها الله في القرآن الكريم مع سيدنا نوح وابنه، هذه حالة أخرى. أيها الإخوة الكرام، الحكمة من الزواج إنجاب ولد صالح ينفع الناس من بعدك.

كنت أقول دائماً: الإنسان مجبول على حب وجوده، هذه حقيقة، ومجبول على حب سلامة وجوده، وعلى حب كمال وجوده، وعلى حب استمرار وجوده، فسلامة وجوده منوطة باستقامته على أمر الله، والاستقامة سلبية، أنا ما كذبت، ما غششت، ما اغتبت، ما ذكرت إنسانا بسوء، ما أكلت مالاً حراماً، كل بنود الاستقامة تسبقها ما سلبية، الاستقامة كف.

أما العمل الصالح فعطاء، أعطى من وقته، من ماله، أعطى من خبرته، أعطى من علمه، لأنه آمن أنه مخلوق للجنة، فلما آمن أنه مخلوق للجنة بنى حياته على العطاء، وهناك صفة ثابتة في المؤمن؛ أن حياته أساسها العطاء، يعطي من وقته، من ماله، من خبرته، ولا يقبل في بعض الأعمال الصالحة أجراً، ولو قبل أجراً لكان محدوداً جداً.

العمل الصالح أجره أخروي وليس دنيويًا:

أنا أضرب هذا المثل دائماً: كلّف ملِكٌ أستاذ العلوم بتدريس ابنه بعض الدروس، هذا المدرس أُفقه ضيق، لما أصبحت الدروس عشرًا قال له: لابن الملك: أين الأجرة ؟ قال حاضر، أستاذ كم تريد ؟ قال: ألف على الدرس، قال: هذه عشرة آلاف، لكن الأب بنيته أن يقدم له بيت ومركبة، لأنه ملِك، فهذا أخذ عشرة آلاف، وضيع البيت والمركبة، فأنت لما تقبل أن تأخذ أجرا على عمل صالح في الدنيا تكون أخطأت مع الله خطأ كبيرا، قال تعالى

(إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا (٩))

(سورة الإنسان)

بالعكس، الذي يقدم أعمالاً صالحة لوجه الله يعد طَموحاً طُموحاً لا حدود له، لأنه طلب الأجر من الله، وهناك آيات كثيرة بهذا المعنى:

(وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (٣٩))

(سورة الشورى)

(وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ (٤٠))

(سورة الشورى)

أنا أكافئك يا عبدي، وإذا كافأك الله منحك الأمن، والحكمة، والجنة، وحياة أبدية، لذلك الزواج من نعم الله الكبرى.

خاتمة:

صدقوا مرة حضرت تعزية، الأب في سن التسعين، والزوجة المتوفاة في سن الثمانين، وبكى الأب بكاء مذهلا، أردت أن أخفف عنه في نهاية التعزية، قال لي: والله عشت معها خمسًا وخمسين سنة ما نمت يوماً غاضباً عليها، هذا الزواج السعيد، الزواج فيه بركة من الله، فيه معونة من الله، عندك أولاد أبرار، عندك زوجة صالحة تسرك إذا نظرت إليها، تحفظك إذا غبت عنها، تطيعك إن أمرتها، فلذلك فرق كبير بين النكاح والسفاح، الفرق بينهما كالفرق بين قطعة لحم طازجة ومشوية، وأنت جائع جداً، هذا والطعام نفيس جداً، وهناك قطعة لحم متفسخة، الروائح التي تصدر منها تشمها من مسافة خمسين مترًا، كلاهما قطعة لحم، الأولى مشتهاة، والثانية تخرج من جلدك من رائحتها، وكذلك المرأة ؛ إن كانت زوجة صالحة فهي الحسنة الطيبة، قال تعالى:

(رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً (٢٠١))

(سورة البقرة)

قال علماء التفسير: " حسنة الدنيا الزوجة الصالحة "، والعلاقة الآثمة علاقة الزنا، والعياذ بالله علاقة فيها مقتٌ، قال تعالى:

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (٣٢))

(سورة الإسراء)

أنت مخيّر، ولأنك مخير كل شيء في حياتك حيادي، والحظوظ حيادية، والشهوات حيادية، فإما أن تتزوج فترقى إلى أعلى عليين، وإما أن يمارس الإنسان هذه الشهوة بطريق غير مشروع، فيهبط إلى أسفل السافلين.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٨هـ - مقاصد الشريعة - الدرس (١٨- ٢٧) : ليلة القدر

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٧-١٠-٠٨

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة لليلة القدر:

أيها الإخوة الكرام،مع درس جديد من دروس مقاصد الشريعة الإسلامية، والموضوع اليوم ليلة القدر.

١ – العلمُ بخَلق الله والعلمُ بأمر الله والعلمُ بالله:

أيها الإخوة، هناك علم بخلقه وهناك علم بأمره وهناك علم به، العلم بخلقه موضوعات الجامعات في العالم ؛ قسم العلوم، الفيزياء، الكيمياء، الرياضيات، الفلك، الإنسانيات، علم التربية، علم النفس، علم الاجتماع، الحضارات، التاريخ، الجغرافيا.

العلم بخلق الله والعلم بأمره

في الحياة ظواهر، الظاهرة الفلكية موضوع علم الفلك، والظاهرة الفيزيائية موضوع علم الفيزياء، والظاهرة النفسية موضوع علم النفس، هذا علم بخلقه، اختصاص الجامعات في الأرض، والعلم بخلقه أصل في صلاح الدنيا، هذه العلوم فرض كفاية، إذا قام بها البعض سقطت عن الكل، أما إذا لم يقم بها أحد أثم الجميع.

وهناك علم بأمره، اختصاص كليات الشريعة في العالم الإسلامي، الحلال، الحرام، أحكام الزواج أحكام الطلاق، أحكام البيوع، الكفالة، الحوالة، القرض، إلى آخره، وأيّ كتاب فقه بأبوابه التقليدية هذا موضوع العلم بأمره، لكن العلم به موضوع ليلة القدر.

٢ – العلم بالخَلق وبالأمر يحتاج إلى مدارسة:

العلم بالخَلق وبالأمر يحتاج إلى مدارسة

أيها الإخوة الكرام، العلم بخلقه والعلم بأمره يحتاجان إلى مدارسة، ومعنى مدارسة أيْ: لا بد من مدرّس، ومن كتاب، ومن منهج، ومن إلقاء درس، ومن حفظ، ومن مراجعة، ومن أداء امتحان، ومن نيل شهادة، مجموع هذه النشاطات اسمها المدارسة، هذه المدارسة تنتهي بمعلومات في الدماغ، المدارسة في العلم بخلقه، والعلم بأمره تنتهي بمعلومات محشوة في الدماغ، ولا علاقة لها إطلاقاً بسمو النفس، أو طهرها، أو سقوطها، أو انحطاطها، فقد تجد طبيبا يحمل أعلى شهادة في العالم ولا يصلي، بل ويشرب الخمر، وقد يزني، اختصاصه شيء، وسلوكه شيء آخر، وأنت أيها الإنسان لا يعنيك من هؤلاء العلماء في الدنيا سلوكهم إطلاقاً، يعنيك علمهم فقط، فقد تؤثر طبيب متفوق في اختصاصه ليس ملتزماً ولا مستقيماً على طبيب معلوماته محدودة، لكنه تقي، يهمك علمه، لكن أي إنسان على وجه الأرض لا يمكن أن يصغي إلى رجل دين إن لم يكن سلوكه متناسباً مع علمه، وهذا شيء يُدرَك بالفطرة، لأن فاقد الشيء لا يعطيه، ولأن مصداقية الإنسان تتطابق بين أفكاره وأفعاله.

٣ – العلم بالله يحتاج إلى مجاهَدة:

على كلٍّ ؛ العلم به شيء آخر، العلم به ليس طريقه المدارسة، بل طريقه المجاهدة، والفرق كبير بين المدارسة والمجاهدة، فأي إنسان أوتي عقلاً وذاكرة قوية وفهماً وإدراكاً عاماً يسمع الدرس فيحفظه، ويعيده، فالمدارسة لا علاقة لها بالسلوك، لها علاقة بالمعلومات، وإيداعها في الدماغ، أما المجاهدة فاستقامة وغض بصر وضبط اللسان، وضبط الدخل، وتحري الحلال، وضبط الإنفاق، وضبط البيت، وضبط أولاده، جاهد نفسه وهواه، وفي مئات المواقف ينتصر لله ورسوله، ويضع حظوظه تحت قدمه، هذه العملية اسمها المجاهدة.

٤ – الجهاد أنواع:

يا أيها الإخوة الكرام، مشكلتنا أنه ما أن نذكر كلمة جهاد إلا ويقفز إلى الذهن الجهاد القتالي، مع أنه بنص القرآن الكريم هناك أنواع ثلاثة من الجهاد لا علاقة للقتال فيها.

أول جهاد، جهاد النفس والهوى، قال تعالى:



(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩))

(سورة العنكبوت)

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ (١١))

(سورة الرعد)

هناك استقامة وإقبال على الله، وتوكل وثقة بالله في محبة، واندفاع لعمل صالح، وبطولة ومؤاثرة، وتزكية وبكاء، وخشوع وراحة نفسية، وشعور بالأمن وسعادة، هذه المشاعر الرائعة التي تجعل الإنسان بطلاً، تجعله كالمرجل، تجعله طاقة كبيرة جداً، تجعل الواحد كألف، هذا الاتصال بالله هو موضوع المجاهدة، لذلك قيل: جاهد تشاهد، والفرق الكبير بين المجاهدة والمدارسة كما بين السماء والأرض.

٥ – حلاوة الإيمان:

ورد في بعض الأحاديث عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ...))

[متفق عليه]

حلاوة الإيمان شيء لا يوصف، بينما حقائق الإيمان شيء عادي جداً. أنت مثلاً لا تملك كوخا، لكن عندك خارطة لقصر، الغرف ثمانية أمتار على ستة، كل غرفة لها إطلالة وحدائق، هذا ورق، والذي يملك هذا الورق ليس عنده

حلاوة الإيمان شيء لا يوصف

كوخ يسكنه، حقائق الإيمان معلومات، أما حلاوة الإيمان فأن تملك هذا القصر وتسكنه، كم هي المسافة بين من يملك ورق عليه خارطة القصر ومن يملك القصر نفسه، وحلاوة الإيمان تصل بها إلى الله، وإذا وصلت إليه وصلت إلى كل شيء،

((يا ابن آدم اطلبني تجدني فإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء))

[ورد في الأثر]

هذا الذي جاء إلى سيدنا خالد كمدد، سيدنا خالد طلب خمسين ألف جندي مددا ليواجه عدوا من ثلاثمئة ألف، معه ثلاثون ألفا، طلب من سيدنا الصديق خمسين ألفا مددا، أرسل له رجلا واحدا، اسمه القعقاع بن عمرو، قال له: أين المدد يا قعقاع ؟ قال له: أنا المدد، قال له: أنت ؟ قال له: أنا، معه كتاب، قرأ الكتاب، يقول سيدنا أبو بكر: فو الذي بعث محمد بالحق، إن جيشاً فيه القعقاع لا يهزم، الواحد كمليون، والواحد كألف، لأنه ذاق حلاوة الإيمان، لأنه عرف الله، لأنه يملك علماً به. العلمُ بخَلقه شيء، والعلمُ بأمره شيء آخر، فلأنه يملك علماً به، والعلم به لا يأتي من المدارسة، يأتي من المجاهدة، فبقدر استقامتك، بقدر انضباطك، بقدر تحرِّيكَ الحلال، بقدر غض بصرك، بقدر ضبط لسانك، بقدر مجاهدة نفسك وهواك تصل إلى الله.

ليلة القدر:

١ ـ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ

لذلك:

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧))

(سورة الزمر)

٢ ـ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ

لذلك ليلة القدر كما قال الله عز وجل:

(خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ)

لأن هناك تاريخا هجريا وميلاديا، ليلة القدر يمكن أن تكون في أي ليلة من السنة على مدى الأعوام، لأن رمضان ينزلق من شهر إلى شهر، ليلة القدر يمكن أن تكون في أي ليلة في الأرض

على مدى التاريخ، هي حالة مع الله، إلى أن تكون حالة مع الله أقرب إلى أن تكون ليلة معينة، لكن هي في رمضان، ورمضان شهر القرآن:

(إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١))

(سورة القدر)

إن أردت أن تتعمق قليلاً فمتى كان النبي عليه الصلاة والسلام مؤهلاً لنزول القرآن عليه ؟ حين قدر ربه حق قدره، قال تعالى:

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧))

(سورة الزمر)

٣ ـ لَيْلَةُ الْقَدْرِ: أن تقدِّر الله حقَّ قدْره:

إذاً: ليلة القدر الليلة التي تقدر الله حق قدره، تعرف عظمته، تعرف كماله، تعرف أسماءه الحسنى، تعرف صفاته الفضلى، تعرف حلمه، تعرف رحمته، تعرف حكمته تعرف كماله، تعرف ماذا أعد للمؤمن من نعيم مقيم.

حينما يكون الموضوع عن الله عز وجل هو موضوع ليلة القدر:

(إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١))

(سورة القدر)

هذا للنبي عليه الصلاة والسلام وكل إنسان مؤمن بقدر إيمانه، بقدر مجاهدته لنفسه، يتلقى من الله المدد، يتلقى من الله التوفيق، يتلقى من الله النجاح، يتلقى من الله القرب، يتلقى من الله السداد، يتلقى من الله الأمن.

٤ ـ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ

قال تعالى:

(إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣))

(سورة القدر)

الألف شهر تقريباً ثمانون سنة، وهذا العمر أقصى عمر يعيشه الإنسان تقريباً، وهناك حالات نادرة من التسعين إلى المئة، وحالات مألوفة من الستين إلى السبعين، فلو أنك أمضيت عمرك بأكمله تؤدي العبادات أداءً تاماً من دون أن تقدر الله عز وجل، فهذه الليلة تفوق عمراً مديداً يقضيه الإنسان في عبادات ليس فيها تقديراً لله عز وجل.

٥ – الفرق بين العالِم والعابد

لذلك هذا الفرق بين العالِم والعابد، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((فَقِيهٌ أَشَدُّ عَلَى الشَّيْطَانِ مِنْ أَلْفِ عَابِدٍ))

[الترمذي]

وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ قَالَ: ذُكِرَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلَانِ أَحَدُهُمَا عَابِدٌ وَالْآخَرُ عَالِمٌ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ))

[الترمذي]

((وَفَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ))

[الترمذي عن أبي الدرداء]

على الشبكية فقط على سائر الكواكب.

لذلك أيها الإخوة، حينما تقرأ كتاب فقه تبحث في أمرِ الله، وحينما تقرأ كتاب فلك تبحث في خَلقه، لكن إذا تفكرت في خلق السماوات والأرض من أجل أن تعرفه.

ليس الخبرُ كالمشاهَدة:



كلما تفكرت في خلق السماوات والأرض ازددت معرفة بالله عز وجل

أضرب مثلا للتوضيح:

ركب أحدُهم طائرة من بغداد إلى بيروت، وحلقت الطائرة فوق دمشق، وأطلَّ من النافذة، فقيل له: هذه دمشق، فإذا عاد إلى بلده، وسئل: هل رأيت دمشق ؟ يقول: نعم، كنت راكباً بالطائرة، وأطللت من النافذة، فرأيت المدينة، هذه معرفة، وهناك إنسان نزل في مطار دمشق، وأقام ساعة في قسم الانتظار، هل وصلت إلى دمشق ؟ نعم، وهناك إنسان نام ليلة في فندق المطار، هذا أعلى، شاهد الأخبار، سمع بعض التفاصيل، وهناك إنسان أتيح أن يبقى يوماً في المدينة، فتجول فيها، وزار الجامع الأموي، وزار جبل قاسيون، وزار ضريح صلاح الدين، هل رأيت دمشق ؟ وغيرهم كان بمهمة رسمية، أقام فيها أسبوعا، أخذوه إلى أماكن أخرى، إلى

الزبداني، إلى بعض الأماكن الجميلة، وزار بعض الشوارع والأسواق هذا أعلى، ورجل آخر درس في جامعة دمشق أربع سنوات، وسكن في ببيت، وصار له احتكاك مع الناس، وشاهد عادات البلد وتقاليدها، هذا رأى دمشق، وإنسان وُلِد في دمشق، وهو يعرف كل شيء عنها، إن سألت هؤلاء جميعاً: هل تعرفون دمشق ؟ الجواب: نعم، كم هي المسافة بين الذي رآها من الطائرة و الذي وُلِد فيها ؟ المعرفة متفاوتة عند كل من يقول: أنا أعرف الله، لكن معرفتك بالله بقدر تفكرك في خلق السماوات والأرض، كلما تفكرت في خلق السماوات والأرض ازددت معرفة بالله عز وجل، هذه المعرفة هي أثمن رأسَ مالٍ تملكه، هذه المعرفة وراء استقامتك سبب إقبالك، سبب اتصالك، سبب خضوعك، سبب خشوعك، سبب تضحيتك، سبب التزامك، سبب أنك في حالات معينة، وقفت مع النص لا مع مصالحك، الحديث الشهير عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ))

[متفق عليه]

يجب أن يكون الله في قرآنه والرسول في سنته عند التعارض مع مصالحك تقف مع النص ومع الحكم، وتضع مصلحتك المتوهمة تحت قدمك:

((أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ))

٦ ـ التفكر في خلق السماوات والأرض طريق لمعرفة الله:

حينما يفكر الإنسان في خلق السماوات والأرض، ويكاد يكون التفكر الطريق الوحيد لمعرفة الله، والدليل:

(فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨٥))

(سورة الأعراف)

(وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ (٧٤))

(سورة المؤمنون)

فلذلك هذه العبادة التي بقي بها الصحابة الكرام في مكة سنوات طويلة، الآيات المكية في معظمها تدور حول هذا، قال تعالى:

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (٢) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (٤) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (٥) وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا(٨))

(سورة الشمس)

(وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (٤) هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ (٥))

(سورة الفجر)

(وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣) وَلَلْآَخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى(٤)

(سورة الضحى)

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (٤))

(سورة الليل)

السور المكية في معظمها تتحدث عن الكون لماذا ؟

موقف المسلم من آيات القرآني:

١ ــ موقف المسلم من آيات الأمر والنهي:

أيها الإخوة الكرام، حينما تقرأ آية فيها أمر فلك موقف من هذه الآية، ماذا يقتضي موقفك منها ؟ أن تأتمر بما أمر، وحينما تقرأ آية فيها نهي ما موقفك منها ؟ أن تنتهي عما عنه نهى وزجر، وإذا قرأت آية فيها وصف للجنة ما يقتضي موقفك منها ؟ أن تسعى إلى الجنة، وإن قرأت آية فيها وصف لأهل النار ماذا يقتضي منك أن تكون مع هذه الآية ؟ أن تفر من النار، أن تتقي النار ولو بشق تمرة، وإذا قرأت قصة أمة أهلكها الله فيما مضى ماذا يقتضي منك بهذه الآية ؟ أن تتعظ بمن أهلكهم الله بمعاصيهم.

٢ ــ موقف المسلم من آيات التفكر في الكون:

ماذا تفعل بألف وثلاثمئة آية تتحدث عن الكون ؟ ما موقفك منها ؟ التفكر كأن الآيات الكونية التي ذكرها الله في القرآن الكريم هي منهج للتفكر، فإذا قال الله عز وجل وهو يتحدث عن الماء:

(وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (٢٢))

(سورة الحجر)

لو أردت أن تخزن ماء عاما لاحتجت إلى مستودع يساوي مساحة بيتك تماماً، فإذا كانت مساحة بيتك مئة متر ضرب ثلاثة ونصف، فأنت تحتاج ماءا في العام بقدر مساحة بيتك، الله عز وجل

جعله في جبل، وكل يوم يتدفق بضعة أمتار من هذا الماء العذب الزلال في المواسم الشديدة أربعة وثلاثين مترا مكعبا، وفي وقت الصيف ووقت الجفاف أربعة أمتار مكعبة، من خزن لك هذا الماء ؟ فكل آية في القرآن الكريم تقتضي التفكر، لذلك من أجل أن نقدر الله حق قدره، من أجل أن نعيش ليلة القدر يجب التفكر في خلق السماوات والأرض، التفكر في خلق السماوات والأرض.

آية أصلٌ في التفكر:

والآية الأصل في هذا الموضوع، والتي قال عنها النبي عليه الصلاة والسلام : الويل لمن لم يتفكر في هذه الآية.



(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١))

[سورة آل عمران]

هذه الآية أصل في التفكر، والتفكر أرقى أنواع العبادات، التفكر يضعك أمام عظمة الله، التفكر أوسع باب ندخل منه إلى الله، وأقصر طريق إلى الله.

تذكر مَثَل الذي رأى دمشق، هناك إنسان يقول: الله خلق السماوات والأرض، وإنسان عنده مخزون من آيات الله الدالة على عظمته لا ينتهي الحديث عنه بمئات الساعات، طعامه آية، شرابه آية، ابنه آية، الولادة آية، الزواج آية، الطير آية، السمك آية، الشمس آية، القمر آية، الليل آية النهار آية ز

دوران الأرض آية:

للتقريب: هذه الأرض تدور، لو أنها دارت بمحور عامودي على مستوي دورانها لم تكن الفصول، خط الاستواء صيف أبدي، والأطراف العالية والمتدنية شتاء أبدي، من جعل هذا المحور هكذا، هذا الميل سبب الفصول، الأرض هنا والشمس هنا، في الفصل الشمالي لما أصبحت الأرض هكذا، بعد

ستة أشهر صار الصيف هنا، والشتاء هنا، والآن اذهب إلى أسترالية نحن نكون في الصيف في خمسة وأربعين درجة حرارة، أنا سافرت إليها في هذا الوقت، وصلت إليها في درجة خمس تحت الصفر، وصفر وثلاث، لولا ميل المحور لما كانت الفصول، فلو كان المحور موازيا لمستوى دورانها لانتهت الحياة، والقسم المواجه للشمس حرارته ثلاثمئة وخمسين درجة فوق الصفر، والقسم الذي في الطرف الآخر حرارته مئتان وسبعون تحت الصفر، وميل المحور من آيات الله الدالة على عظمته، دورانها على محور ليس موازياً لمستوي دورانها شكل الليل والنهار، أما لو كانت تدور هكذا، والشمس هنا نهار أبدي، وليل أبدي، لم يكن هناك اختلاف الليل والنهار، ولا نهار يعقب الليل.

فكلما تفكرت في آية من آيات الله الدالة على عظمته اكتشفت الحقائق.

نضرب مثلاً من واقع الحياة: جندي غر التحق بالخدمة الإلزامية، قال له عريف: ازحف، لا يزحف، وقد يعترض، وقد يقول له كلمة قاسية، لكن إذا قال له قائد اللواء الأمر نفسه، قال له: ازحف، عند حرف الزاي صار في الأرض، الأمر أمر من جندي، ومن لواء، فكلما عظم الآمر عظم الأمر، لذلك إذا عرفت الآمر، ثم عرفت الأمر تفانيت في طاعة الآمر، أما إذا عرفت الأمر، ولم تعرف الآمر تفننت في التفلت من الأمر، وهذا حال المسلمين، وما مِن معصية في الناس لا يجدون لها فتوى، وهذا شيء غير معقول، كان الرجل المسلم كمكعب حديدي واضح المعالم، ثم أصبح كرة حديدية بأربع نتوءات تلاشت، ثم أصبح كرة مطاطية مرنة، ثم أصبح غازا لا شكل ولا حجم محدد، كل شيء اسمه إسلامي، حفلة مختلطة إسلامية، مولد بمَسبح مختلط إسلامي، تلقى الكلمات فيه، أخذ الإسلام وضعا غير معقول إطلاقاً، لذلك يقول بعض الزعماء الآسيويين: أنا أفتح نوافذ غرفتي لأجدد الهواء فيها، ولكنني لن أسمح للرياح العاتية أن تقتلعني من جذوري.

الإنسان ينفتح على العالم ليعاشر الآخرين، يطلع على الثقافات، أما أن يضيع دينه فهنا الطامة الكبرى.

ليلة القدر أفضل ليلة في الحياة:

يا أيها الإخوة الكرام، ليلة القدر ليلة هي أفضل ليلة على الإطلاق في حياتك، لذلك إذا رجع العبد العاصي إلى الله نادى منادٍ في السماوات والأرض: أن هنئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله.
أفضل ليلة على الإطلاق ليلة القدر، وأفضل يوم على الإطلاق في حياتك يوم العاشر من ذي الحجة، هذا اليوم أفضل يوم، وهذه الليلة أفضل ليلة على الإطلاق.

خاتمة:



لذلك أيها الإخوة الكرام، الإنسان يبدأ بالتعرف إلى الله بالتفكر في خلق السماوات والأرض، أمامه كأس ماء، لو أن هذا الماء ملح أجاج، بل كلفةُ لترٍ البنزين في بعض بلاد النفط واحد من عشرة من كلفة تحلية لتر ماء، الماء العذب الفرات شيء ثمين جداً، قال تعالى:

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ (٣٠))

(سورة الملك)

التفكر في خلق السماوات والأرض يعرفك بالله، كلمة الله للمتفكر كلمة كبيرة جداً، وكلمة الله لغير المتفكر لا تعني شيئاً، لذلك أنا لا أصدق أن إنسانا يسب الذات الإلهية إلا ويكون إيمانه صفرا، أما إذا عرفه فيصبح إنساناً آخر، وكل إنسان تعرف إلى الله كأنه أدرك ليلة القدر، قال تعالى:

(إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣) تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (٤) سَلَامٌ هِيَ (٥))

(سورة القدر)

تصبح حياتك في سلام إلى أن تظهر الحقائق حتى طلوع الفجر، قال تعالى:

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢))

(سورة ق)

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٨هـ - مقاصد الشريعة - الدرس (١٩- ٢٧) : الوقت

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٧-١٠-٠٩

بسم الله الرحمن الرحيم

أهمية الوقت:

١ – الإنسان زمنٌ:

أيها الإخوة الكرام، مع درس جديد من دروس مقاصد الشريعة الإسلامية، والحقيقة أن الوقت يمضي سريعاً، بل إن أهل الآخرة:

(قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ)

(سورة الكهف: الآية ١٩)

لذلك من المناسب أن نتحدث عن الوقت، لأن الإنسان وقت، لأن الإنسان بضعة أيام، كلما انقضى يوم انقضى بضع منه، ولأنه ما من يوم ينشق فجره إلا و ينادي: يا بن آدم، أنا خَلق جديد، وعلى عملك شهيد، فتزود مني فإني لا أعود إلى يوم القيامة.

٢ – الفوز أن نعمل في الوقت المحدّد لنا:

اطلعت على كتاب فيما مضى عن قصص العرب، وهو من أربعة أجزاء، وقرأته، ثم استنبطت أن الأذكياء ماتوا، والأغبياء ماتوا، والأقوياء ماتوا، والضعفاء ماتوا، والأصحاء ماتوا، والمرضى ماتوا، وأن الظلّام ماتوا، والمظلومين ماتوا، وأن الموت ينهي كل شيء، لذلك البطولة أن تعمل في هذا الوقت المحدود الذي يمضي سريعاً عملاً ينفعك بعد مضي الوقت، كيف مضت هذه الأيام سريعاً وكأنها لمح البصر ؟

٣ – لك الساعة التي أنت فيها فقط:

كذلك الوقت يمضي سريعاً، والوقت لا يسترجع، لذلك ما مضى فات، و المؤمل غيب، الماضي لا تملكه، لأنه مضى، والحديث عنه مضيعة للوقت، لأنك لن تستطيع استرجاعه، ما مضى فات، و المؤمل غيب لا تملكه، وكم من إنسان وضع آمالا عريضة لم يحقّقها.

كنت مدرِّساً في ثانوية، نشأت معي ساعة فراغ فجائية، فأمضيتها عند المدير، المدير حدثني عن متاعبه، وعن همومه، وقال لي: حصلت على موافقة إعارة تدريس إلى الجزائر، و المدرس المعار راتبه مضاعَف، قال: سأمضي هناك خمس سنوات، ولن آتي إلى الشام في هذه السنوات الخمس، سأمضي الصيف الأول في بريطانية، والصيف الثاني في فرنسة، والثالث في إسبانية، والرابع في إيطالية، سأطلع على هذه البلاد، وعلى ثقافة هذه البلاد، وعلى تراث هذه البلاد، ومتاحف هذه البلاد، ثم أعود بعد خمس سنوات، وأقدم استقالتي من العمل، وأفتح محلاً تجارياً أبيع فيه التحف، وسيكون هذا المحل منتدى لي ولأصدقائي، القصة طويلة، أنا لا أبالغ حدثني لعشرين سنة قادمة، وكيف سيكبر أولاده، ويريحونه من العمل، ويجعل المحل منتدى فكريا يلتقي فيه مساء كل يوم مع أصدقائه، وهكذا، وأنا أستمع له، خرجت من عنده إلى صفي، ثم إلى بيتي، وفي المساء عندي ساعة تدريس في مركز المدينة، أردت أن أرجع إلى بيتي مشياً، فإذا نعيُه على الجدران، والله الذي لا إله إلا هو في اليوم نفسه، في اليوم نفسه حدثني الذي حدثني عن عشرين سنة قادمة، ما مضى فات، و المؤمل غيب لا تملكه.

ماذا تملك ؟ لك الساعة التي أنت فيها، لا تملك إلا هذه الساعة، فالدنيا ساعة فاجعلها طاعة، اجعلها طلب معرفة، اجعلها عمل صالح اجعلها عبادة، اجعلها نصيحة، اجعلها أمرا بالمعروف، اجعلها نهيا عن المنكر، اجعلها مطالعة كتاب، اجعلها حركة نحو الخير للناس، لأن الدنيا ساعة.

٤ – نحن بين خمسة أيام:

لذلك قالوا: أنت بين خمسة أيام، يوم مفقود هو الماضي، ويوم مشهود، هو الحالي، ويوم مورود، هو الموت، ويوم موعود هو يوم القيامة، ويوم ممدود، يوم مفقود لا جدوى من الحديث عنه، ويوم مشهود هو أخطر أيامك، الساعة التي أنت فيها، ويوم مورود هو الموت، ويوم موعود يوم القيامة، ويوم ممدود إما إلى جنة يدوم نعيمها، أو إلى نار لا ينفذ عذابها.

لابد من التفكُّر في ساعة الموت والإعدادِ لما بعدها:

لذلك من أنت أيها الإنسان ؟ أنت زمن، أنت بضعة أيام، كلما انقضى يوم انقضى بضع منك.
إنسان الله عمره عند الله تسع وسبعون سنة وثمانية أشهر وثلاثة أسابيع وأربعة أيام وخمس ساعات وأربع دقائق وثماني ثوان، انظر إلى ساعتك، كلما تحرك العقرب ثانية واحدة قرّبك من النهاية، والنهاية صفر، النهاية تنهي كل شيء، القوي يموت، والضعيف يموت، والطاغية يموت.
كنت في قصر في استنبول اسمه دولما بهجت، رأيت ساعة ثابتة على التاسعة وخمس دقائق، فسألت عنها، فقيل لي: هذه ساعة وفاة كمال أتاتورك، ثبتوا الساعة في لحظة وفاته، كان قويا،

وأراد ما أراد، ولم يحقق ما أراد، فالإنسان يمضي بضعة أيام، كلما انقضى يوم انقضى بضع منه، وما من يوم ينشق فجره إلا وينادي: يا بن آدم، أنا خَلقٌ جديد، وعلى عملك شهيد، فتزود مني فإني لا أعود إلى يوم القيامة.

وأنا في طريقي إليكم شعرت كيف مضت هذه الأيام العديدة كلمح البصر، وهكذا العمر. قد يقول الإنسان: عمري ستون عاما، أو خمسون، أو أربعون، هذه الأعوام كيف مضت ؟ يقول لك: البارحة كنت طالبا في الابتدائي، الآن أنا في سن الستين، فإذا مضت الستون كلمح البصر ففي الأعم الأغلب السنوات الباقية تمضي أيضاً كلمح البصر، وفجأةً يكتَب النعي، فجأة كان شخصاً فأصبح خبراً، فجأة وضع في النعش، فجأة وضع في القبر، وقف أهله للتعزية، بعد شهرين أو ثلاثة نسي هذا الرجل، وعاشوا حياتهم اليومية، وكأنه لم يكن، فإن أمضى حياته في طاعة الله فلا يعنيه ما الذي سيكون.

حينما يولد الإنسان كل مَن حوله يضحك، وهو يبكي وحده، فإذا وافته المنية، وكان محسنًا فكل مَن حوله يبكي، فإذا كان بطلاً يضحك وحده.

والله أيها الإخوة الكرام، مرة شيّعنا ميتا، وقفت على قبره، والله الذي لا إله إلا هو ما وجدت على سطح الأرض إنساناً أذكى ولا أعقل ممن يعدّ لهذه الساعة التي لا بد منها، الغني يموت، والفقير يموت، والقوي يموت، والضعيف يموت، والوسيم يموت، والدميم يموت، والمحسن يموت، والمسيئ يموت، وكل مخلوق يموت، ولا يبقى إلا ذي العزة والجبروت.

والليل مهما طال فلابد من طلوع الفجر والعمر مهما طال فلابد من نزول القبر

***

كل ابن أنثى وإن طـالت سلامته يوماً على آلة حدباء محمـــول

فإذا حملت إلى القبــور جنازة فاعلم بأنك بعدهــا محمـــول

***

أحد علماء دمشق الصالحين العاملين الربانيين اشترى قبرا في حياته، وقد كتب اسمه على الشاهدة، وكان يزوره كل خميس، يقول لمرافقه: يا ولدي، هنا المقام.

هذه هي فائدة التفكّر في الموت:

التفكير في الموت أيها الإخوة ليس تشاؤماً، لكن له وظيفة إيجابية، التفكر في الموت يجعلك على الصراط المستقيم، تأخذ أعلى شهادة تؤسس معملا، تقيم مشروعا ضخمًا، هذا لا يمنع، لكن التفكر في الموت يمنعك أن تعصي الله، يمنعك أن تنحرف، والتفكر في الموت يسرع الخطى إلى الله. مرة كنت في مطار، ورأيت شريطًا متحركًا، وقفت عليه، وأنا واقف أمشي، شيء جميل، إن مشيت عليه كانت السرعة مضاعفة، وعليه سوران يمنعانك أن تنحرف، شريط متحرك له سوران،

تصورت أن هذا الشريط المتحرك مع السورين يرمز إلى التفكر في الموت، فيسرع الخطى إلى الله، ويمنعك أن تنزلق، لذلك:

((أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَادِمِ اللَّذَّاتِ، يعني الموت))

[الترمذي]

مفرق الأحباب، مشتت الجماعات .

((عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزي به))

[أخرجه الشيرازي، و الحاكم، والبيهقي، عن علي]

قبل عدة أشهر أو بعض السنوات عدد لا بأس به من إخوتنا صلى الفجر في جماعة، وفي صلاة العصر كان مدفونا، ولا يشكو شيئاً، تقريباً في كل شهر أو شهرين حادثة نادرة، أن إنسانا لا يشكو شيئًا إطلاقاً، وصلى الفجر في جماعة وفي المسجد، وفي العصر كان تحت التراب.

لي قريب له سهرة أسبوعية، أحد الجالسين قال هكذا: أنا لن أموت قريباً، هكذا قال، فلما سئل: ما السبب ؟ قال: أنا صحتي جيدة جداً، ووزني ممتاز، وأكلي صحي، أمارس الرياضة كلَّ يوم، وتكلّم عن أسباب طول العمر، كلامه علمي، ما عنده شدة نفسية، ولا وزن زائد، ولا ضغط، ولا أي مرض، ويمارس رياضة يومية، هذا الكلام قاله يوم السبت، السبت الموالي كان تحت الأرض، لذلك: كل مخلوق يموت ولا يبقى إلا ذي العزة والجبروت.

والليل مهما طال فلابد من طلوع الفجر والعمر مهما طال فلابد من نزول القبر

***

حوادث كثيرة لرجال ينام أحدهم فلا يستيقظ، أو يستيقظ فلا ينام بعد ذلك، يخرج من بيته فلا يرجع، أو يرجع فلا يخرج، هذه حقيقة.

لا، ثم لا، ثم لا للإنفاق الاستهلاكي للوقت:

في طريقي إليكم كنت أفكّر كيف مضت هذه الأيام كلمح البصر، إذاً: هو الوقت، الوقت أخطر شيء في حياتك، الوقت هو أنت، بل هو وعاء عملك، بل هو رأس مالك الوحيد، ولا تملك غيره، لذلك هذا الوقت يمكن أن ينفق إنفاقاً استهلاكياً.هؤلاء البشر أمامك يأكلون، ويشربون، ويتمتعون، ولا يعبئون بالمستقبل، يعيشون لحظتهم، هم مع الصرعات، صرعات الأزياء، صرعات الأفلام، صرعات الإعلام، صرعات السياسة، هم معها يتابعون الأخبار، يتسامرون، يغتابون، يأكلون المال الحرام، يطلقون بصرهم في الحرام، لا يضبطون ألسنتهم، لا يؤدون عباداتهم، يعيشون وقتهم، وصحتهم طيبة، وهم في بحبوحة، وعندهم دخلٌ جيد، وكل يوم في نزهة، وكل يوم في سهرة للعب النرد... واختلاط وسرور، وروح مرحة، وفكاهة، وأناقة، وبيت من الدرجة الأولى، يأتي الموت

فجأة لم يكن في الحسابان، لذلك ما هو الذكاء ؟ قالوا الذكاء هو التكيف مع أي شيء ؟ مع أخطر حدث في المستقبل، إنه الموت.

تصور بيتا من خمس غرف، وصالونات، وغرف نوم، وغرف استقبال، ومطبخ، وحمّام، وحديقة، إضافة إلى مركبة، ومكتب تجاري، تصور أنّ هذا الوضع فجأةً ينتهي بقبرٍ عرضه سبعون سنتيمترا، وطوله مئة وثمانون، كله تراب تحت الأرض.

والله أيها الإخوة، إنّ الذي لا يعدّ لِما بعد الموت يجب أن يوصف بأنه غبي.

مرة سأل الإمامُ الغزالي نفسَه فقال: " يا نفس، لو أن طبيباً منعك من أكلة تحبينها، لا شك أنك تمتنعين...".

مرة كنا في سهرة فقدِّم طعام نفيس جداً، لكنّ طبيب قلب رفض أن يأكل، فلما ألحّ عليه قال: والله إني أحب هذا الطعام حباً جما، لكن لكثرة ما أرى الأوعية مسدودة من هذا الطعام كرهته، نظر إلى المستقبل فوجد هذا الطعام الدسم يسبب ضيقا في الشرايين، ثم جلطات، ثم موتا مفاجئا.

لما يعيش الإنسان المستقبل يتكيف معه، والتكيف مع أخطر حدث في المستقبل وهو الموت يكون بالطاعة، وبالصلح مع الله، وبالاستقامة على أمر الله، وبطلب العلم، وبتربية الأولاد، وبإنفاق المال، وبالأعمال الصالحة، هذا هو التكيف، والذكاء هو التكيف.

لذلك أيها الإخوة، إنفاق الزمن إنفاق استهلاكي كما ترون، فالناس يعيشون لحظتهم فقط، يتابعون الصرعات، و يتداولون الأخبار الممتعة، ويرتادون الأماكن الجميلة، و يشترون الأكلات الطيبة، ويتندرون بالأخبار اليوم، كم مات في العراق اليوم ؟ خمسمئة، يقول: العدد كثير، العيار مئة في اليوم، هو مرتاح، والمسلمون ماتوا وقُهروا، وهو مرتاح، تهمّه ولائمه وحفلاته ومُتَعه.

المؤمن ينفق الوقت إنفاقاً استثماريا نفعِيًّا:

أما المؤمن فينفق الوقت إنفاقاً استثماريا نفعِيًّا، يفعل في الوقت الذي سيمضي عملاً ينفعه بعد مضي الوقت، تأتي الآية الكريمة:

(وَالْعَصْرِ (١))

(سورة العصر)

يقسم الله بمطلق الزمن، لهذا المخلوق الأول رتبة، الذي هو في حقيقته زمن، يقسم بهذا الزمن، بمطلق الزمن، فيقول:

(وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢))

(سورة العصر)

نحن بمقاييس الدنيا يقال: بيل غيت حجمه المالي تسعون مليار دولار، شاب بالأربعينات يملك تسعين مليار دولار، يأتي الموت فينهي هذه الثروة، فلا ينفعه إلا عمل صالح، لذلك مر النبي عليه الصلاة والسلام على قبر قال:

((صاحب هذا القبر إلى ركعتين مما تحقرون من تنفلكم خير له من كل دنياكم))

[ورد في الأثر]

إن ركعتين نفلا صلاهما بسرعة كنقر الديك خير له من كل دنياكم، هذا كلام سيد الخلق المعصوم. حديث آخر قاله النبي عليه الصلاة والسلام لعليٍّ:

((فَوَاللَّهِ، لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ))

[البخاري]

((يا علي، لأن يهدي بك الله رجلاً واحداً خير لك مما طلعت عليه الشمس))

[لجامع الصغير عن أبي رافع]

كم شركة عملاقة في الأرض ؟ هناك شركات تصنع من الإبرة إلى ناقلة النفط، شركات يابانية، وهناك شركات الأموال المجمدة التي لم تعثر لها على طريق للاستثمار تفوق ميزانيات دول، لكن هداية رجل واحد خير لك من حمر النعم، وخير لك من الدنيا وما فيها.

حينما يأتي الموت تكشف هذه الحقيقة، قال تعالى:

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢))

(سورة ق)

حجمك عند الله بحجم عملك الصالح، حجمك عند الله بحجم استقامتك، بحجم تضحيتك، بحجم انضباطك، فلذلك المؤمن ينفق الوقت إنفاقاً استثمارياً.

أربعة بنود لتفادي الخسارة:

هناك أربعة بنود:

(وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣))

(سورة العصر)

إن فعلت هذه الأشياء الأربعة فأنت ناج من الخسارة، وما سوى هؤلاء فخاسرون ترك رجلٌ فندقا من ثمانين طابقا في أرقى بلد أوربي، والفندق ممتلئ دائماً، فندق من خمس نجوم، مات الرجل ووضِع في قبر، أين هذه الثروة ؟ ذهبت.

الآية الدقيقة التي كان سيدنا عمر بن عبد العزيز يقرؤها دائماً:

(أفَرَأيْتَ إنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا أغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ (٢٠٧))

(سورة الشعراء)

لذلك هذه الدنيا لا تعدل عند الله جناح بعوضة، ولو أن الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة لما سقى الكافر منها شربة ماء، لذلك اليوم الذي تزداد به معرفة بالله، وتزداد عملاً صالحاً ترقى به عند الله، وتزداد به دعوة إلى الله، وتزداد صبراً على طلبك للحقيقة، وعلى عملك وفقها، وعلى دعوتك إليها، هذا اليوم رابح، وما سوى هذا اليوم فخاسر، لأن الأيام تمضي سريعاً.

الخسارة في إنفاق الوقت إنفاقا استهلاكيًّا:

ما معنى خسارة ؟ لأن مضي الزمن يستهلك الإنسان، يمضى أول عشر سنوات، كلنا نعيش هذه سنوات الستينات، الأخيرة، كنا سنة ستين وتسعمئة وألف، بعد ذلك ثمانينيات، تسعينيات، بعد ذلك سنة ألفين، الآن ألفين وسبعة، كل عقد يمضي سريعاً.

كنت مدير ثانوية في بلد في الجنوب، وكان عندي طالب وصل إلى منصب رفيع، دعاني بعد ثلاثين سنة إلى قريته أين كنت مديرها، قلت: سبحان الله ! مضى على ما كنت مديراً للثانوية في هذا البلد ثلاثون عامًا، كيف مضت ؟ يقول لي طالب: أنت كنت أستاذي سنة ألف وتسعمئة وسبع وخمسين، مضى عليها خمسون سنة، نصف قرن، كيف مضت هذه السنوات ؟ كلمح البصر، لذلك:

ما مضى فات والمؤمل غيب ولك الساعة التي أنت فيها

***

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الطلاق:

١ – الطلاق التعسفي نتائجه خطيرة:

ولكن من لوازم الزواج موضوع الطلاق، ولأن موضوع الطلاق موضوع له أصل رائع، وله تطبيقات مؤسفة جداً، وكأن هذا الزوج الذي أناط الله به قيادة هذه المؤسسة فقال تعالى:

(الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ (٣٤))

[سورة النساء]

كأن هذا الزوج الجاهل يستخدم الطلاق استخداماً تعسفياً، هذا الاستخدام التعسفي يسبب مشكلة كبيرة جداً في المجتمع.

٢ – الطلاق السني باب إلى الخير بين الزوجين:

لذلك الطلاق الذي أراده الله، ويعبر عنه بالطلاق السني، طلاق بإجراءاته وبآليته الشرعية قلّما ينتهي إلى فراق، ذلك أن الإنسان في حالة غضب شديد، أو في سوء تفاهم كبير بينه وبين زوجته قد يحلف عليها يميناً بالطلاق، لكن الله أمرها أن تبقى عنده في البيت، وأن تتزين له، وهو في اليوم التالي، أو الذي بعده، أو بعد أسبوع، أو أسبوعين لعله يرى نفسه قد بالغ في الأمر، والأمر لا يستحق هذا الغضب الشديد، والزوجة صالحة، وأهلها أناس طيبون، يكفي أن يضع يده عليها، أو أن يقول لها كلمة واحدة: راجعتك، فتعود له زوجة، لكن حسبت عليه طلقة.

٣ – لا تخرج المرأة من بيت زوجها في الطلاق الرجعي:

ما مِن مشكلة بين الزوجين تبقى بحجمها إلا وتصغر، وفي ساعة غضب، وفي سوء تفاهم شديد بعد حين رأى ميزاتها، رأى إيجابياتها، رأى أنه بحاجة إليها، رأى أنها ليست كما ظن في ساعة الغضب، فهذا الطلاق الذي بدر منه ما دامت هي في البيت لعلّه يراجعها.

أنا أقول هذه الحقيقة: أكبر مشكلة بين الزوجين إذا بقيت الزوجة في بيت زوجها تتضاءل، وتتلاشى، وأصغر مشكلة بين الزوجين إذا طردها إلى بيت أهلها، أو هي خرجت من بيته غاضبة فهناك تغذية سلبية، عمّتها تغذيها، وخالتها وإخوتها وأخواتها، وقريباتها وجاراتها، الأمر يكون بسيطا جداً ثم يتفاقم، وأصغر مشكلة بين الزوجين إن أخرجها من بيته، أو خرجت هي من بيته، واستقرت عند أهلها قد تنتهي بالطلاق، وأكبر مشكلة بين الزوجين إذا بقيت عند زوجها قد تتلاشى بعد يومين.

الطلاق السنّي:

إذا طبق الزوج الطلاق السني الذي أراده الله عز وجل بقوله تعالى:

(الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ (٢٢٩))

(سورة البقرة)

تقع البينونة في الطلقة الثالثة، فالذي جعله طلقة واحدة بالثلاث شيء عجيب، لأنك بهذا ألغيت القرآن الكريم، والله عز وجل قال:

(الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ (٢٢٩))

(سورة البقرة)

مرتان فيهما رجعة، مرتان بينونة صغرى، مرتان بإمكانك أن ترجعها بلا عقد، وبلا استئذان، وبلا موافقة، وبكلمة، بل بسلوك، وينتهي الأمر، لكن الرجل اليوم لا يحلو له إلا أن يلفظ بالطلاق ثلاثا، وبذلك أنهى الآية الكريمة:

(الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ (٢٢٩))

(سورة البقرة)

وأنهى الآية الثانية:

(لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا (١))

(سورة الطلاق)

أنت ألغيت آيتين بهذا الطلاق البدعي، إذاً: حينما تبقى في بيت زوجها لعل في أسبوع أو أسبوعين أو أكثر تتزين له، وتطبخ له، وتقدم له حاجاته، هي معه في البيت، لعله يندم، لعل هذا الأمر يتلاشى، لعل هذا الغضب يبرد، لعل هذا سوء التفاهم يتضح، وتعود إليه بكلمة، بلمسة، بلا موافقة منها، بلا عقد، بلا مهر، معه ثلاثة أشهر، الطلاق لا ينفذ، وتبين عنه إلا بعد ثلاثة أشهر من الطلاق دون أن يمسها، ودون أن يراجعها، ومعه فرصة ثانية، فلو غضب مرة ثانية، وصار سوء تفاهم بينهما، وطلقها طلقة ثانية أيضاً يبقيها في بيته، وتتزين له، وكأنها زوجته، لكن عليه ألا يمّسها، فإذا مسها فقد راجعها، وعادت إليه زوجة على كتاب الله وسنة رسوله بلا مهر، وبلا عقد، وبلا شيء.

الآن لو تصورنا أنه أصر على طلاقه حتى مضت الأشهر الثلاثة، بمجرد أن مضت الأشهر الثلاثة أو القروء الثلاثة فقد ملكت نفسها، وأصبحت مخيرة، تعود أو لا تعود، لكن بإمكانه بعقد جديد وبمهر رمزي أن يرجعها، إذا ندمت، أو ندم، أو ندما معاً، ثلاثة أشهر وثلاثة أشهر، والثالثة بينونة كبرى، هذا هو الطلاق السني الذي فيه طلقة واحدة، لذلك قال تعالى:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢))

(سورة الطلاق)

بشرى سارّة للزوجين: وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا

هذه الآية يكتب عنها آلاف الصفحات والمجلدات، إلا أنها جاءت في سياق سورة الطلاق، المعنى السياقي المتعلق بالآية في مكانها في السورة: أنك إذا اتقيت الله في تطليق زوجتك جعل الله لك مخرجاً من فراقها، تعيدها بلمسة أو بكلمة، هذا الطلاق من عند خالق السماوات والأرض، هذا النظام من عند رب الأرباب، من عند خالق السماوات والأرض، من عند الخبير، أما حينما يبتعد الأزواج عن الدين، ويركبهم الشيطان أحياناً، ويكون لهم مخالفات كثيرة إذاً: هم مقطوعون عن الله عز وجل، فلا حكمة لديهم، ولا رحمة، ولا تبصر، ولا مصلحة.

الزوجة نعمة مِن نِعم الله:

أيها الإخوة الكرام، مِن نعم الله الكبرى الزواج، فالذي في بيته زوجة تسره إن نظر إليها، تطيعه إنْ أمرها، تحفظه إن غاب عنها، هذه نعمة لا تقدر بثمن، بل إن الله عز وجل حينما قال:

(رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١))

(سورة البقرة)

قال علماء التفسير: " حسنة الدنيا المرأة الصالحة "، قال تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)

(سورة الروم: الآية ٢١)

الطلاق البدعي يلغي الحكمة الربانية من الطلاق:

لذلك يكاد يكون السؤال الأكبر في حياتنا موضوع الطلاق، لسبب تافه، لغضب طارئ، لسلوك بريء، لخلاف مع شريكه، لقضايا لا علاقة لها بالزوجة إطلاقاً، فهذا الذي يطلق بعنف، أو يستخدم هذا السلاح الخطير استخداماً تعسفياً هو الذي يسبب هذا الإرباك الذي في حياة المسلمين. يا أيها الإخوة، الطلاق السني يتيح لك أن ترجعها بأبسط طريقة، بلمسة، بكلمة أما الطلاق البدعي

فهو الطلاق بالثلاث، هذا طلاق ليس من السنة في شيء، وليس الطلاق الذي أراده الله عز وجل، وبهذا الطلاق تلغى حكمة الطلاق، تلغى الآية الكريمة:

(الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ (٢٢٩))

(سورة البقرة)

تلغى الآية الثانية:

(لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا (١))

(سورة الطلاق)

لذلك هذه الزوجة هدية الله لك، وهذا الزوج هدية الله لها.

الطلاق المعلّق:

الآن الطرف الآخر، الزوج غضب، وحلف عليها طلاقاً معلقاً، الطلاق بالمناسبة طلاق معلق ومنجز، فإذا قال لها: أنت طالق فالطلاق وقع، هذا طلاق منجز، أما إذا قال لها: أنت طالق إذا ذهبت إلى بيت أخيك، يبدو أنها كلما تذهب إلى بيت أخيها فلها زوجة أخ متعبة جداً، تعلّمها التطاول على زوجها، فكلما عادت من بيت أخيها نشأت بينه وبينها مشكلة، فغضب، وعزا هذه المشكلة إلى بيت أخيها، فحلف عليها هذا اليمين.

أيها الإخوة، أنا الذي يدهشني، ولا أصدقه أن هذه الزوجة وقد حلف عليها هذه اليمين ليس عندها شيء يحتل الدرجة الأولى إلا أن تكسر يمين زوجها، هذه مشكلة كبيرة، كما أن الزوج يكفر بنعمة الزوجة، فالزوجة تكفر أيضا بنعمة الزوج، لأنك أيتها الزوجة تعرضين حياتك وعلاقتك بزوجك إلى هذا الافتراض، إلى أن يقع في الحرام.

فيا أيها الإخوة، أنا لا أتكلم من فراغ، لأن تسعين بالمئة من الأسئلة التي ترد عبر الهاتف، أو عبر الرسائل متعلقة بالطلاق، ولأيّ سبب، والنبي عليه الصلاة والسلام قال:

((لا تغضب))

[البخاري عن أبي هريرة]

يا أخي اغضب ولا تكلمها، ابتعد عنها، دع كلمة الطلاق،هذه ألغيها، أمرك بيدك، أنت سيد، أنت محترم، ولست مضطر للطلاق، ولستَ مضطرا أن تتسكع على أبواب المشايخ، الشيخ الذي يفتي لك بعودتها تشك في علمه، والشيخ الذي يقول لك: بانت منك، ابتعد عنها، لا طريق إلى إرجاعها تحقد عليه، فلما تلغي من حياتك كلمة الطلاق ترتاح.

الطلاق قرارٌ خطير يجب أن يُتّخذ في رويَّةٍ ودراسة وتفكير عميق:

الطلاق قرار يأخذه الإنسان بشكل هادئ، يجمع، يطرح، يقسم، يضرب، يوازن، يوازن الميزات والسيئات، ويتخذ قرارا هادئا بالطلاق، فإن عزموا الطلاق، قرار متخذ بعد دراسة وتمحيص، وإيجاب وسلب، وتحليل وموازنة ومقارنة، اتخذ هذا القرار، الآن يحلف بالطلاق، أما أن الأكل بارد، الأكل تأخر، ذهبت إلى بيت أهلها، ولم تأت في الوقت المناسب، مثلاً، هذا هو السلوك الأحمق الذي يجر لك الويلات ينبغي أن تبتعد عنه، هذه زوجتك، هذه أم أولادك.

أنا والله أيها الإخوة أقول دائماً: ما من طلاق حل مشكلة إلا بدأت فيه المشكلات، إذا كان بينهما أولاد طبعاً، من دون أولاد القضية سهلة جداً، الله عز وجل يغنيه عنها، ويغنيها عنه، وأنا حينما أشهد طلاقاً ليس فيه أولاد أدعو للزوجين، أدعو للزوجة أن يهبها زوجاً أفضل من هذا الذي طلقها، وأدعو للزوج الذي طلق أن يهبه زوجة أفضل من التي طلقها، أما إذا كان بينهما أولاد فاسمحوا لي بهذه الكلمة القاسية: الطلاق جريمة، لأنك أيها الزوج حطمت هذا الابن، هذه أمه، وأنت أبوه، وضاع بينكما، قلبه معلق بأمه، وإن اتصل بها غضب عليه أبوه، يعيش الطفل في الكذب والنفاق طول حياته ويتحطم.

أنا أقول هذه الكلمة: حينما ينجب الإنسان أولاداً من زوجة ما يجب أن يضع حظه من النساء تحت قدمه، هذا يسمونه زواج مصلحة، أن تبقى هذه مع زوجها فترى أولادها هي المصلحة القصوى، لذلك الطلاق مشكلة كبيرة جداً، ولا سيما عند الأزواج المقصرين، والأزواج الذين شردوا عن الله، والأزواج الذين أكثروا من المعاصي والآثام، عندئذ انقطعوا عن الله، وانقطعوا عن الحكمة، وانقطعوا عن العدل وعن الرحمة.

(الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ (٢٢٩))

(سورة البقرة)

والذي يطلق الطلقات التي أرادها الله أن تكون على التتالي تبقى المشكلة في حجمها الحقيقي، دقق، فإن أكبر مشكلة بينك وبين زوجتك تتلاشى في أيام، بعد ذلك حدث الندم، بعد ذلك أنت بحاجة إليها، وهي بحاجة إليك، بكلمة، بابتسامة انتهى كل شيء.

لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ

أنا أقول هذه الكلمة، قال تعالى:

(لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ (١))

(سورة الطلاق)

والله الذي لا إله إلا هو لو طبقت هذه الآية فإن تسعين بالمئة من حالات الطلاق تتلاشى، لا تخرجوهن من بيوتهن.

بيت الزوجية بيتُ الزوجة:

كلمة (بيوتهن) نسب البيت فيها إلى الزوجة، مع أنه في السجلات الرسمية باسم الزوج ما الحكمة من ذلك ؟ الحكمة أن الإنسان له أماكن كثيرة، ومجالات كثيرة يثبت فيها شخصيته، بعمله، بدراسته، بعلاقاته، هذه كلها مجالات رائعة يثبت بها الزوج مكانته وشخصيته وأخلاقه، أمّا الزوجة فلها مكان واحد تثبت فيه شخصيتها، البيت، فالزوج الصالح والحكيم يدع شأن البيت إلى زوجته، فالله عز وجل نسب البيت إلى الزوجة لا تملكًا، ولكن إشرافًا، لتؤكد به شخصيتها، يقول الله عز وجل:

(لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ (١))

(سورة الطلاق)

لا حق لك أن تطردها و لا حق لها أن تخرج، بل ينبغي أن تقول الزوجة دائماً: هذا بيتي، وهذا بيت أولادي، وأنا لا أفارقه، هذا من حكمة الله عز وجل، ومن الإلهام الذي ينجح به المؤمن أن يكف عن إخراج الزوجة من بيتها.

وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ

لكن سمح الله عز وجل بالهجران وفي غرفة النوم لئلا يعلم الأولاد، قال تعالى:

(وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ (٣٤))

(سورة النساء)

لو هجرها بغرفة أخرى المشكلة بين الزوجين انتقلت إلى الأولاد، والابن ذكر لجدته ذلك، والبنت ذكرت لأختها المتزوجة أن هناك مشكلة بين أبي وأمي، دقق في هذا الملمح الدقيق:

(وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ (٣٤))

[سورة النساء]

يجب أن يكون هذا الأمر المزعج بين الزوجين في غرفة النوم فقط، يجب ألا يخرج عن ذلك النطاق، وفي هذا التوجيه ملمح كبير، أن الطفل لا يهدُّه، ولا يعقده، ولا يمرضه، ولا يشوه نفسيته إلا خلاف بين الأم والأب، لذلك الأب العاقل المؤمن لا يمكن أن يسمح لمشكلة بينه وبين زوجته أن تصل على الأولاد، هذا الذي ينبغي أن يكون.

(وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ (٣٤))

(سورة النساء)

معالجة مشاكل الزوجية قبل الوقوع:

أيها الإخوة الكرام، أنت مع كلام معجز، النشوز لم يقع، له بوادر، والبطولة أن تعالج الشيء لا بعد استفحاله، لا بعد وقوعه، لا بعد الشرخ الذي لا يرأب، أن تعالج الشيء من بوادره الصغيرة، هناك بوادر نشوز، دخلت إلى البيت وهي تتكلم بالهاتف، فلما دخلت فجأة أغلقت السماعة، هذه بادرة فيها مشكلة، أي إنه اتصال هاتفي ينبغي ألا أطلع عليه، قال تعالى:

(وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ (٣٤))

(سورة النساء)

في هذه الآية ملمح خطير، يقظة الزوج، فطنته، تتبعه للأمور.

والله أيها الإخوة، بحكم عملي في الدعوة تأتيني مشكلات البيت يكاد ينهار، والزوج لا يعلم، فيه خيانة، والزوج لا يعلم، فيه انحراف من البنت، والزوج لا يعلم، أين البنت ؟ نامت عند صديقتها، هل تحققت ؟ والله هناك قصص تصلني تكاد لا تصدق، زوج جاهل بعيد عن إدارة البيت، غارق بعمله، يخرج قبل أن يستيقظ أولاده، ويعود الساعة الواحدة في الليل، الغياب الطويل عن البيت، وعدم الاهتمام بالأولاد، بتربيتهم يُحدث انحرافًا خطيرًا، قال تعالى:

(وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ (٣٤))

(سورة النساء)

لما دخلت إلى البيت كانت تتكلم بالهاتف، فأغلقت السماعة فجأة، معنى هذا أن هناك مشكلة، يجب أن تكون صاحياً، البنت تأخرت، العذر غير مقبول، أو أنت ما تحققت منه، أو وقع منكَ تساهلٌ. في بعض المواقع المعلوماتية (بي بي سي) وضعوا برنامجا حواريا حول التحرش بالصغار، الواحد لا يتوقع أن هناك ألف حالة، كل هذه الحالات بين الأقارب، وبسذاجة من الأب والأم، حالات تحرش بالبنات والصبية الصغار من قِبل أقربائهم، والأب والأم في غفلة عن ذلك، هم في نزهة في بستان، كله تم والأب والأم في سذاجة وغفلة عن تربية أولادهم، فلذلك أنا أقول لكم دائماً: لا يمكن أن تنجح في الحياة إلا إذا نجحت مع ربك أولاً، ومع أهلك ثانياً، ومع أولادك، ومع عملك، ومع صحتك.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٨هـ - مقاصد الشريعة - الدرس (٢١- ٢٧) : صلة الرحم

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٧-١٠-١١

بسم الله الرحمن الرحيم

صلة الرحم:

١ – صلة الرحم نوع من الضمان الاجتماعي:

أيها الإخوة الكرام،مع درس جديد من دروس مقاصد الشريعة الإسلامية، والموضوع اليوم صلة الأرحام، والعيد من أبرز ما فيه التواصل بين الأقرباء.
أيها الإخوة الكرام، بالمصطلح المعاصر بما يسمى الضمان الاجتماعي، الضمان الاجتماعي في الإسلام أساسه النسب والجوار، فالأحاديث التي تتعلق بحقوق الجار لا تعد ولا تحصى، والأحاديث التي تتعلق بصلة الأرحام كثيرة جداً، بل إن صلة الأرحام من أبرز الطاعات لله عز وجل، وقد وعد الله من يفعل هذه الطاعة برزق وفير وعمر مديد.

٢ – حقيقة صلة الرحم:

لكن الذي يتوهمه بعض الناس أن صلة الأرحام تعني أن تطرق بابه في العيد، وكم تتمنى أن لا يكون موجوداً، فتضع بطاقة، وانتهى الأمر، ليست هذه إطلاقاً من صلة الأرحام، الصلة تبدأ باتصال ولو بالهاتف، وأعلى منه الزيارة، وأعلى منها التفقد، هذا قريبك، أنت أقوى منه، أو أغنى منه، أو أعلم منه، ففي الحياة علم وقوة ومال، إما أنك أغنى منه، أو أعلم منه، أو أقوى منه، فالقوي يأخذ بيد الضعيف، والغني يعين الفقير، والعالم يعلم غير العالم، فبمجرد أنك تصل الأرحام، أي أنك بعد الزيارة لا بد من تفقد هؤلاء الأقرباء، اسأله عن صحته، عن أولاده، عن دراستهم، عن أعمالهم، عن معيشتهم، عن أوضاعهم، هذا نوع من الصلة.
الآن كشفت نقطة ضعف على الابن، لا يملك سداد القسط الجامعي، وأنت غني، لو دفعت عنه هذا القسط لكنت في أفضل حال.
والله الذي لا إله إلا هو مَن يعلم أن له قريباً لا يكون بينه وبينه صلة إطلاقاً، وأراد أن يطيع الله عز وجل، وأن يصل هذا القريب، والقريب وضعه المالي جيد، فزار القريب، فلم يجده، ووضع له بطاقة، هذا القريب دقيق في علاقاته، اتصل به هاتفياً، وحدد موعدا وزاره، وجد بيته تحت الأرض

شماليا رطبا، عنده خمسة أولاد، ما قبل هذا الوضع، قال له: ابحث عن بيت جيد، وبحث عن بيت، والآن يسكن في بيت في ثالث طابق باتجاه الجنوب، الشمس تدخله من كل أرجائه، قال: والله ما خطر في بالي إلا أنني وصلت رحمي، لكن هذا الذي وصله إنسان كريم قريب له سيجده في هذا المكان.

تصور التعاون والتواصل والتراحم والتناصح، تنصحه، تعينه، تعلمه، تتبنى أحد أولاده، تقدم له بعض المساعدات، الصلة تعني التواصل الاجتماعي، والتواصل المادي، والتعاون، والمساعدة، والبذل، لكن أعلى صلة الرحم أن تأخذ بيده إلى الله.

لك جامع، وأنت مرتاح بالجامع، هذا القريب بعيد عن الدين، قل له: تعال معي اليوم الفلاني، سمع الدرس مرة ثانية، تفقده، إلى أن يتابع حضور هذه الدروس، بعد حين تحجبت زوجته، بعد حين ضبط بيته، بعض حين ترك بعض المعاصي والآثام، أعلى أنواع الصلة أن تأخذ بيده إلى الله، أقلّ أنواع الصلة اتصال هاتفي، الذي قد يذكر الأخ بأخيه.

نحن بشكل أو بآخر لابد لكل واحد منا أن يتعهد قريبا له، لك أقرباء كثر، اختر قريبا واحدا من سنك، قريبا من بيتك، قريبا من عقليتك، بنيته العامة تقترب منك، اتخذه أخاً لك، قريبا وأخا، قريبا نسباً، وأخا في الله إيماناً، حاول أن تتفقده، تسأل عنه في الأسبوع مرة، دعوته للدرس، لكنه تخلف، لعله مريض، لابد أن أتصل به، هذا التواصل يخلق الود، يحس الإنسان أنه مع مجموع، أنه عضو بأسرة، وله مكانة في أسرته .

تفقّد الأحوال المعيشية للأقارب مهمٌّ جدا في الدعوة:

اقتراح آخر: لو تعهدت أخا في المسجد، اختر من كل الإخوة الكرام أخا أقرب إنسان لك، إما نسباً، أو إيماناً، أو عقلية، أو سناً، أو مكاناً، أو جواراً، اجعله أخاً لك في الله، النبي عليه الصلاة والسلام قال: تآخيا، وآخى بين أصحابه أخاً أخاً، فأنت بعبادة لا تكلفك إلا يقظة، تكلفك مذكرة هاتف، عاهدت نفسك كل أسبوع أن تتصل به لتطمئن عليه، هل صحتك طيبة ؟ هل أنت بحاجة إلى مساعدة ؟ نحن مع بعضنا.

دائماً إذا خرج الإنسان من ذاته ينجح في علاقاته، لكن كل الناس اليوم بلا استثناء نشاطه كله من أجل مصالحه، يقول أحدهم: هذا يفيدني، وهذا ينفعني، تفكير مادي محض، أما أنت أيها المؤمن المستقيم فاخرج من ذاتك إلى خدمة الخلق، ولا يمنع أن يكون عندك دفتر مذكرات الاتصال بفلان وفلان وهذه الصلة تبدأ باتصال هاتفي، ثم ترقى إلى زيارة، ثم ترقى إلى تفقد الشؤون المعاشية، الوقت قريب من الشتاء، وتكلفة الوقود السائل مبلغٌ لا بأس به، وأنت ميسور، إذا عاونت قريبك بالوقود السائل، عاونته بثياب أولاده في أول العام الدراسي فقد ملكت قلبه.

أحد إخواننا الكرام يقول: لي أخت مرة ذهبت لزيارتها، فإذا بينها وبين زوجها خصام، وصوت مرتفع في البيت، لما دخلت سكتوا، وقال لهم: هل أستطيع أن أعاونكم ؟ الزوج موظف دخله محدود، وطلبت منه زوجته مبلغا من المال، القصة قديمة، ثلاثمئة ليرة بالشهر كسوة لبناتها، ولحاجاتهم الخاصة، هو رفض، لما رفض رفعت صوتها، وهو رفع صوته، فكان هذا القريب أخو الزوجة يطرق الباب، الوضع المادي وسط، قال لها: لك مني ثلاثمئة ليرة كل شهر، أحب أن يكون هو الفداء، قال لي: أول الشهر طرقت الباب، هذه الثلاثمئة، زرت أختي كل أول شهر مع ثلاثمئة، قال لي: سادس شهر قالت: يا أخي خصِّص لنا درسا، هو له التزام بجامع، وهي عندها أربع بنات، فوافق، قال: أنا صرت أحضِّر، آية أو حديثا أو قصة قبل يومين أكتبها عندي، وأجلس معهم وأبلغهم، قال: أول بنت تحجبت، الثانية تحجبت، الأولى زوجناها، الثانية زوجناها، قال: والله الثلاثمئة ليرة خرج منها خير لا يعلمه إلا الله، أربع بنات التزمن وتحجبن وتزوجن، لأن هذا خالهم قال: علي ثلاثمئة ليرة بالشهر.

لا نعرف كم من الممكن أن تزور أختك فتحس بانتعاش ؛ أن أخاها زارها أمام زوجها وأولادها، هذه الصلة شيء ثمين جداً.

لابد أن تكون الزيارة لله وفي الله:

أحيانا يهتم الإنسان بأقربائه الأغنياء فقط، وفي الحياة الراقية إذا سافر يتصل به، وإذا رجع يهنئه، وإذا عطس يقول له: يرحمك الله، ويكون له أخت ساكنة في آخر الدنيا، ولا يسأل عنها، بل تمضي سنة لا يراها، لذلك زيارة الأغنياء والأقوياء من الدنيا من حبك للدنيا، أما أن تزور أخًا قريبًا بعيدا ساكنا في حي بعيد فقير، ليس له شأن، فهذه الزيارة من الآخرة، وهناك فرق بين زيارة الدنيا وزيارة الآخرة.

تخصيص العيد لبعض الأقرباء ولا سيما الفقراء الضعفاء:

هذه الصلة أيها الإخوة، كنت أقول دائماً: الإنسان في العيد له أقرباء يراهم كل يوم بحكم التواصل، هؤلاء الأقرباء الذين يراهم كل يوم فلا داعي تزورهم في العيد، ولكن هناك داعٍ في أن تجتمعوا كلكم في يوم واحد، إنسان له أصهار، له بنات، له إخوة ذكور يجتمعوا في يوم واحد في بيت واحد، وسهرة طويلة أفضل من تراشق الزيارات، فالجلسة المشتركة لمن تراهم كل يوم، ودع العيد للقريب الذي لا تزوره إلا يوماً في العام، وهؤلاء اكتبهم في قائمة، وليس القصد أن لا تجده، القصد أن تجده، اتصل به هاتفياً رغبة في أن تراه، اجلس معه ساعة، واسأله عن أولاده، عن دراستهم، أحوالهم الدينية، لهم جامع يرتادونه، عن وضعهم العام، عن صحتهم، لك صديق قريب

طبيب مختص بهذا المرض دلّه عليه، انفع الناس، ولما تفكر في الخروج من ذاتك إلى خدمة الخلق تكون عند الله مقدسًا.

إذا أردتم رحمتي فارحموا خلقي، وأسعد الناس من يدخل السعادة على قلوب الناس، إذا أردت أن تكون أسعد الناس فأسعد الناس.

الذي أتمناه من هذا الموضوع أن تكون صلة الأرحام، لأن الأقربين أولى بالمعروف.

لي كلمة أقولها دائماً: الآخرون أنت لهم، وغيرك لهم، أما أقربائك فمَن لهم غيرك ؟ فأنا أتمنى أن نكتب قائمة لمَن نطل عليه مِن أقربائنا الذين لا نراهم إلا مرة في العام، يوم العيد لهؤلاء، أما الأقرباء الذين نعيش معهم طوال العام فهؤلاء نلتقي بهم لقاء مطولا كل عيد في بيت مثلاً.

على كل ؛ هذا التواصل الاجتماعي ينعش النفس، وأحيانا يكون الرجل الغني له قريب فقير، أنت لا تعلم كم تدخل على قلبه من السرور لو زرته في البيت، وسألته عن أحواله.

إذا كنت بمنصب رفيع، ولك قريب بأدنى منصب، كاتب، وأنت معاون وزير، مثلاً، زرته، يمضى هذا الفقير شهرين أو ثلاثة أشهر لا ينسى هذه الزيارة، يقول: زارني فلان، ما هذا التواضع ؟ هذا هو الإيمان.

سيدنا رسول الله سيد الخلق، وحبيب الحق، لما أراد سيدنا عمر العمرة:

((أيْ أُخَيَّ، أَشْرِكْنَا فِي دُعَائِكَ، وَلَا تَنْسَنَا))

[الترمذي]

هذا الكلام اللطيف التواصل، هذا التحابب، لذلك ورد في بعض الأحاديث:

((وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ، وَالْمُتَجَالِسِينَ فِيَّ، وَالْمُتَزَاورينَ فِيَّ، وَالْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ))

[أحمد]

((الْمُتَحَابُّونَ فِي جَلَالِي لَهُمْ مَنَابِرُ مِنْ نُورٍ يَغْبِطُهُمْ النَّبِيُّونَ وَالشُّهَدَاءُ))

[رواه الترمذي]

إذا كان الإنسان لا يهتم بك إطلاقاً، ولا يقيم لك وزناً فأنا أقول لك بصراحة: لا تصاحب من لا يرى لك من الفضل مثل ما ترى له، وإذا كان الإنسان متكبرا عليك بكثير، ولا يلتفت إليك فلا داعي أن تتذلل أمامه، أما إن كان الإنسان أضعف منك وأقلّ منك شأنا لما تزوره تنعشه، لذلك أنا أقول لك دائماً: الذي يعطيك كتفه أعطه ظهرك، والذي يعطيك جنبه أعطه قلبك، والذي أقبل عليك زره وتلطف معه.

على كلٍ، هذا الموضوع ورد فيه أحاديث كثيرة أكثر من ثلاثين حديثا صحيحا تؤكد أن الذي يصل رحمه ينسأ الله له في أجله، ويرزقه من حيث لا يحتسب.

أعرف أناسا كثيرين، منهم أخ كبير له أخوات بنات كثر، وإخوة، كأنه أب لهم، له من الرزق ـ ما شاء الله ـ ما يفوق حد الخيال، لأنه يتفقد أخواته البنات وَاحدةً واحدةً، كل أخت يسألها ماذا تحتاج، فإن كان زوجها وضعه المادي سيئ يدعمها، ولم تدعم أقرباءك فقد وعدك الله عز وجل بمكافأة في الدنيا قبل الآخرة، وعدك برزق وفير، وعمر مديد، وخيركم من طال عمره، وحسن عمله.

الدعوة إلى الله أساسُ صلة الأرحام:

أنا الذي أراه أن أعلى مستوى في هذه الصلة أن تأخذ بيده إلى الله، وبالمناسبة هناك وهمٌ عند معظم الناس: الدعوة إلى الله للدعاة، لا فرض عين على كل مسلم، لكن لماذا تصلي ؟ لأن الصلاة فرض، ما قولك لو أقنعتك أن الدعوة إلى الله فرض كالصلاة ؟ الدليل: قال تعالى:

(وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا (٣))

(سورة العصر)

عندنا أربعة أركان للنجاة، ربع هذه الأركان الدعوة إلى الله، وهي من النجاة:

(إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣))

(سورة العصر)

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي (١٠٨))

(سورة يوسف)

فإن لم تدعُ إلى الله على بصيرة فلست متبعاً لرسول الله.

هناك آية مخيفة، قال تعالى:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي (٣١))

(سورة آل عمران)

فإن لم تتبع رسول الله فأنت لا تحب الله، لأن الدعوة إلى الله فرض عين على كل مسلم. أنا لا أكلفك أن تلقي محاضرة بأفصح لغة، ولا أن تعالج موضوعا في الفقه عميقا جداً، هذا ربما فوق طاقتك، لكن إذا سمعت درسا، وتأثرت به، سمعت خطبة فتفاعلت معها، قرأت قصة عن صحابي هزت مشاعرك، هذه القصة اروِها، هذا النص الذي سمعته في الجامع، وتأثرت به تأثرا بالغا انقله إلى أصدقائك.

هل هناك إنسان ليس له في الأسبوع لقاء أو لقاءان ؟ هناك جلسات دورية، وسهرات، وزيارات، تزور أخواتك، أقرباءك، صديقك، زميلك بالعمل، جارك في المحل التجاري، الحديث عن ماذا ؟

الحديث كلام فارغ، شاهدت المسلسل الفلاني، كم خيانة زوجية فيه مثلاً، هذه موضوعات الناس اليوم، اسمع الآية، الحديث، القصة، الموقف، قصة الصحابي، ثم حاول أن تنقل للآخرين الذي سمعته في المسجد فقط.

((بلغوا عني ولو آية))

[أخرجه أحمد والبخاري والترمذي عن ابن عمرو]

لذلك أيها الإخوة، صلة الأرحام أساسها أن تأخذ بيد أقربائك إلى الله، وأساسها إن كنت الأغنى فخذ بيد الأفقر، إن كنت الأقوى فخذ بيد الضعف، إن كنت الأعلم فخذ بيد الذي هو أقلُّ منك علماً، قال تعالى:

(انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا (٢١))

(سورة الإسراء)

إياكم والتكبّرَ على الأقارب:

لا نريد صلة جوفاء، صلة فارغة، صلة فيها غيبة ونميمة، صلة فيها استعلاء، تقول: والله أنا قضيت قبل رمضان أيامًا في المكان الفلاني، كلفني السفر مئتي ألف، لكن سررنا كثيرا، وهذا القريب ما علاقته بسرورك الكثير، لكنه الاستعلاء، وهناك أشخاص دون أن يشعروا يكون حديث أحدِهم عن ذاته، عن مصروفه، عن بيته، عن أولاده، أين ذهب ؟ من أين جاء ؟ هذا الحديث يسبّب جفاء وكسرًا للخاطر أحياناً.

ذكرُ الله أساسُ المجالس:

أنت ذهبت إلى قريب يجب أن تأخذ بيده إلى الله، اذكر له آية أو حديثا أو قصة عن صحابي، عن موقف إسلامي رائع جداً، عن معالجة لمشكلة اجتماعية، وحينما تذكر الله عز وجل فإنك لك كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى:

((أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً))

[متفق عليه]

الشيء المألوف عندنا أن في العيد زيارات، والحديث المألوف عن الأسعار، الحمد لله الطقس تحسن، فإما طقس، أو أسعار العملات، الدولار نازل، ما هذه القصة مثلاً ؟ ما عندنا إلا الدولار

والطقس وأسعار الطعام والشراب والفواكه ؟ وأين ذهبنا ؟ وما أكلنا ؟ هذا الكلام كلام فارغ لغو، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣))

(سورة المؤمنون)

حتى إن بعض المفسرين قال: كل ما سوى الله لغو، فأنت بهذه الزيارة دائماً اضبط الموضوع، أحيانا تدخل في متاهة تسمى جلد الذات، تقول: نحن متخلفون، نحن ما نفهم... فتبرك على ركبتيك، لا تستطيع أن تقف، هذه الأمة العريقة العظيمة هذه آخرتها ؟ لا تتشاءم كثيرا، فإن الله لا ينسانا، والأمر بيد الله عز وجل، وهناك تطورات في العالم تؤكد هذه الحقيقة، الله عز وجل لا يسمح لأمة إلى أبد الآبدين أن تكون قوية، بل لكل أمة أجل، بالعكس الآن الأمم القوية في هبوط مريع، والله عز وجل لحكمة بالغة أوجدَنا في هذا الزمان.

خاتمة:

أتمنى عليكم أن نفهم هذه الصلة لا على أنها زيارة جوفاء، ووضع بطاقة استعلاء، وغيبة ونميمة، لا، هذا الذي زرته هذه زيارة تسجل لك الكلمة اللطيفة، التفقد العام، الوضع المعيشي، الوضع المادي، الوضع التربوي الديني، أين تصلي الجمعة ؟ مثلاً، فالصلة لا بد فيها من حديث عن الله عز وجل.

أيها الأخوة، إن شاء الله إذا كان هذا آخر درس كل عام وأنتم بخير.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٨هـ - مقاصد الشريعة - الدرس (٢٢- ٢٧) : الله أكبر

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٧-١٠-١٢

بسم الله الرحمن الرحيم

حقائق عن كلمة (الله أكبر):

أيها الأخوة الكرام، مع درس جديد من دروس مقاصد الشريعة الإسلامية.

في القرآن الكريم آيات الصيام، منها قوله تعالى:

(وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٨٥))

(سورة البقرة)

في نهاية هذا الشهر الكريم، شهر الصيام يظن أن الإنسان اهتدى إلى الله، لذلك لا بد من أن يقول في صبيحة يوم العيد: الله أكبر، هذا الدرس حول كلمة (الله أكبر)

١ – لا يعرف حقيقة الله أحد، فاللهُ أكبر مما عرفتَ:



الحقيقة الأولى: أن الله عز وجل لا يعرفه إلا الله، مع أن النبي عليه الصلاة والسلام هو المخلوق الأول الذي عرف الله المعرفة الحقيقية، لا يمكن أن تكون لبشر، لذلك الله أكبر مما عرفت، بأي مرتبة، بأي مقام، بأي درجة، مهما توسعت في معرفة الله، مهما تبحرت في معرفة الله، مهما تعمقت في معرفة الله، مهما تفوقت في معرفة الله، مَن أنت أمام سيد الأنبياء والمرسلين ؟ هو كبشر لا يعرف الله المعرفة الكاملة.

أول معنى من معاني (الله أكبر) أن الله أكبر مما عرفت، والنبي عليه الصلاة والسلام الذي بلغ سدرة المنتهى، والذي بلغ مقاماً ما وصله مخلوق، ومع ذلك لا يعرف الله المعرفة الكاملة، معرفته نسبية، لأنه بشر، إذاً: لا يعرف الله إلا الله، هذا هو المعنى الأول.

٢ – لابد من تطبيق حقيقة (الله أكبر):

لسانُ حال المسلمين التكذيب بمعاني (الله أكبر)

لكن المعنى الثاني: هو الذي يعنينا كثيراً، هناك ما يسمى لسان المقال، وهناك ما يسمى لسان الحال، لا بد من التوضيح.

قد تزور طبيبا، وأنت لبق وذكي، وعندك مرونة اجتماعية، فتكتشف أن الطبيب دون المطلوب في اختصاصه، لكن بعد أن ينتهي من معالجتك تصافحه، وتثني عليه، وتشد على يديه، وتقدم له المبلغ الذي تراه مناسباً، وتشكره، لكنك اكتشفت أن علمه لا يكفي لمعالجتك، لسان مقالك الثناء عليه، لكن لسان حالك أنك لا تشتري الوصفة، بل تبحث عن طبيب آخر، فلسان الحال التكذيب، لكن لسان المقال الشكر والثناء.

لسانُ حال المسلمين التكذيب بمعاني (الله أكبر)

" الله أكبر " شعار المؤمنين

الآن مليار وخمسمئة مليون مسلم لا أشك أن واحداً منهم في أيام العيدين لا يقول: (الله أكبر)، هذا لسان المقال، ولا قيمة له إطلاقاً، وحينما تقدم للمسلمين طعاماً مغشوشاً يسبب لهم أمراضاً وبيلة من أجل هامش ربح كبير فأنت ما قلت: (الله أكبر) ، ولا مرة، ولو ردتها بلسانك ألف مرة، لأن هذا المبلغ الذي حصلته من بضاعة غذائية فاسدة، لك أساليب في إدخالها، هذا المبلغ عندك أكبر من الله.

أنا أقول كلاما صريحا، حينما تقدم للمسلمين غذاء فاسدا، واحتلت على إدخاله، وجعلته صالحاً للاستهلاك البشري، وهو ليس بصالح، وحققت ربحا كبيرا فصلاتك وصيامك وحجك وزكاتك خسرتها كلها، وأبطلت عباداتك كلها، لأن هذا المبلغ رأيته أكبر من الله، ومن طاعته، ومن رضوانه.

لا أخصص حرفة من الحرف، كل الحرف التي يمتهنها الناس يمكن أن تكون محكاً لإيمانهم. حينما توهم مريضا بشيء من أجل أن يجري عندك تحليلات وفحوصا على أجهزة غالية جداً، وهو

لا يحتاجها، فما قلت ولا مرة: (الله أكبر)، ولو ردتها بلسانك ألف مرة، لسان المقال لا قيمة له إطلاقاً هنا، قال تعالى:

(أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ (٥٤))

(سورة التوبة)

هذا الحال، مشكلتي ليس مع القال، هذا الذي يطيع زوجته، فيسمح لها أن تتبرج، وأن تتزين في الطريق، وأن تبرز كل مفاتنها ويتباهى بها، ويرتدي ثوباً أبيض يوم العيد، ومعه مسبحة، ومتعطر، وكل مظهره إسلامي، هذا ما قال: الله أكبر، ولا مرة، لأنه رأى إرضاء زوجته أكبر من الله، هذه الحقيقة.

كلمة (الله أكبر) تنهد لها الجبال، هذا الذي رأى أن استقبال مندوب شركة هو وكيلها، ودعوته إلى مطعم، فطلب مشروبا، فمن أجل مصلحته، من أجل بقاء الشركة معه، من أجل ربح فلكي كبير قدم له المشروب، هذا ما قال: (الله أكبر)، ولا مرة، ولو ردده بلسانه ألف مرة.

هذا الذي يطيع مخلوقاً، ويعصي خالقاً يرى أن هذا المخلوق أكبر من الله، لأن طاعته أغلى عنده من طاعة الله، فيطيعه ويعصي الله.

كَتَبَ مُعَاوِيَةُ إِلَى عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنْ اكْتُبِي إِلَيَّ كِتَابًا تُوصِينِي فِيهِ، وَلَا تُكْثِرِي عَلَيَّ، فَكَتَبَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إِلَى مُعَاوِيَةَ: سَلَامٌ عَلَيْكَ، أَمَّا بَعْدُ ؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((مَنْ الْتَمَسَ رِضَا اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللَّهُ مُؤْنَةَ النَّاسِ، وَمَنْ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ وَكَلَهُ اللَّهُ إِلَى النَّاسِ))

[الترمذي]

كلمة (الله أكبر) يجب أن تكون معك في كل دقيقة، فحينما تحلف على كتاب الله أن البضاعة لم تربح فيها، ورأس مالها أغلى من ثمن بيعها، والأمر ليس كذلك، وأقسمت بالله فأنت رأيت أن الربح الناتج عن هذا الكذب أكبر عندك من الله.

لذلك إذا قلت: مؤمن فأعني إنسانا فذًّا، إنسانا منضبطا أخلاقياً، منضبطا عقدياً منضبطا جمالياً، لا يبيع دينه ولا بمليار، ولا بمئة مليار، المؤمن رقم صعب، لا يباع ولا يشترى، ولا يساوم، لا ترهبه سياط الجلادين اللاذعة، ولا تغريه سبائك الذهب اللامعة.

٣ – حقيقة (الله أكبر) صمودٌ عند الإغراءات:


المؤمن لا يقبل المال الحرام

إن لم يستوِ عندك التبر والتراب فلست مؤمناً، المئة مليار مثل الليرة، الحرام حرام، تركله بقدمك.

كنت أقول دائماً: في معامل الإسمنت في كل طبخة تصب مكعبات، هذا المكعب يوضع على جهاز بسيط جداً يمسك المكعب من أعلاه، وفي أسفله كفة ميزان، توضع فيه أوزان، على أي وزن كسر هذا المكعب فهذه مقاومة الإسمنت، كل طبخة لها مقاومة، وأنا أقول: قد تترفع عن ألف ليرة، وتقول: أعوذ بالله، لا آكل الحرام، لكن مليون ليرة تقول: هذه بلوى عامة، وأنا عندي أولاد، لماذا على الألف كنت عنيفا جداً، والذي قدم لك الألف أقمت عليه الدنيا، لكن المليون سكتت، لماذا سكتت ؟ لان قلبك، لماذا بحثت عن تبريرات، إنك لم تقل: (الله أكبر)، ولا مرة، ولو رددتها بلسانك ألف مرة، هذا الكلام الصريح، هذا الكلام المزعج، هذا الكلام الذي لا يحابي أحداً، هذا المظهر الديني مظهر فقط، لما تعامله تفاجأ، تسافر معه فتفاجئ، تجاوره تفاجَأ، تزوجه فتفاجأ، أين صلاحه ؟ أين دينه ؟ في النواحي المادية يتنكر لكل شيء، فلذلك حينما تقول: (الله أكبر)

يجب أن تعلم أن هذه الكلمة خطيرة جداً، وحينما تفوتك عبادة من أجل عرض من الدنيا قليل فما قلت: (الله أكبر)

٤ – حقيقة (الله أكبر) قولُ الحق من غير خشية الناس:

مرة إنسان كان لا يصوم في بعض السنوات، أراد أن يصوم، فصام، هو موظف في دائرة، دخل إلى رئيسه، قال له: أنت صائم ؟ قال: لا، أعوذ بالله، لست صائما، قال: هاتوا له القهوة، شرب، خاف أن يتهم أنه صائم، رأى رضاء رئيس الدائرة أكبر عنده من إرضاء الله عز وجل. قد يكون الإنسان في مكان، ويقدَّم على الطاولة الخمر، يقول: أنا معي قرحة، ما جرأت أن تقول: أنا لا أشرب الخمر، لأني مسلم، ولأن الدين يمنعني أن أشرب الخمر، ما قدرت أن تقولها، رأى أن هذا الذي على الطاولة أكبر من الله، فكذب إرضاءً له.

هذا حال وواقعُ المسلمين، وللأسف:

أيها الإخوة، أنا أقول كلاما ليس من فراغ، حينما أرى مسلما في الصف الأول يرتاد المساجد، وحينما تتعرض مصالحه للخطر يصبح إنساً آخر، أو حينما تأتيه إغراءات شديدة يتخلى عن كل مبادئه، مِثْلُ هذا المسلم لا وزن له عند الله إطلاقاً، ومِثل هذا العدد الغفير مليار وخمسمئة مليون لا وزن لهم عند الله، لذلك لما يرى الإنسان ما يحل بالمسلمين قد لا يصدق، لقد هان الله عليهم فهانوا على الله.

والله حدثني أخ توفي ـ رحمه الله ـ هو رجل من الدعاة إلى الله، ومن أصل ألباني، سافر إلى بلده، وألقى خطبة في أضخم مسجد هناك، قال: أمامي عشرون ألفا، ومن شدة تأثرهم بخطابه بكوا بكاءً شديداً، قال: العجيب أن كل واحد في جيبه زجاجة خمر، يشرب في المسجد لتأثره بالخطبة، والله هذه القصة سمعتُها من فمه إلى أذني بغير وسيط، حتى لا تقول: إنها قصة مبالغ فيها، قال: وأنا أخطب تسحب من الجيب قوارير الخمر، تأثروا، لأن خطبة مؤثِّرة .

المسلمون بهذا المستوى لا يفرق أحدُهم بين الخمر وغير الخمر، عندنا معاهد شرعية، طلاب جاءوا من بلاد بعيدة، معهم قوارير خمر في المعهد الشرعي، هذا عادي جداً، الإسلام شكل، لم يبق من الإسلام إلا اسمه، ولم يبقَ من القرآن إلا رسمه، هان أمر الله على الناس فهانوا على الله.

كلمة (الله أكبر) تهدّ لها الجبال، تعمل وتكسب المال، وتتزوج، وتؤسس عملا، وتأخذ الدكتوراه، وتكون أستاذا كبيرا، لكن هناك إله سيحاسب.

والله أيها الإخوة، لا شيء يدهش ويوقع في الحرج، كأن ترى إنسانًا حسن السيرة في التعامل اليومي، ما عنده دقة إطلاقاً، وكم مِن بائع له ديون كبيرة جداً على الناس.

هناك إنسان قرأ السيرة قراءة واعية، فلما رأى النبي عليه الصلاة والسلام يريد أن يصلي على أحد صحابته، صحابي جليل عاش مع النبي خاض معه غزوات، قال: أعليه دين ؟ قالوا: نعم، قال: صلوا على صاحبكم، إلى أن قال أحدهم: علي دينه يا رسول الله، فصلى عليه، سأله في اليوم التالي: أأديت الدين ؟ قال: لا، سأله في اليوم الثالث أأديت الدين قال لا سأله في اليوم الرابع أأديت الدين قال نعم، قال: الآن ابترد جلده.



أنا لا أصدق أن تاجرا في هذا البلد، أو بأي بلد إسلامي ليس له مع الناس مئات الألوف، بل ملايين دينا ذهبت عنه، والذي أخذ هذا الدين يصلي في المسجد، أين النصوص ؟ كيف سوّلت لك نفسك أن تأخذ هذا المال ؟ إنسان اشترى

بضائع بكميات كبيرة، وباعها، وقبض ثمنها، وزوج أول ولد، والثاني، واشترى بيتا وسيارة لكل واحد، وبدأ يماطل بهذه الديون، وهي مبالغ فلكية عليه، وهو من رواد المساجد، وهو يماطل سنين متعددة، أين الدين ؟ أين حرمة الدين ؟ دققوا: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((يُغْفَرُ لِلشَّهِيدِ كُلُّ ذَنْبٍ إِلَّا الدَّيْنَ))

[مسلم]

الشهيد قدم حياته، هل هناك أغلى من الحياة ؟ حياته التي قدمها في سبيل الله لا تشفع له عند الله إذا أكل المال الحرام.

سبعمئة ألف دعوى كيدية في قصر العدل، اغتصاب شركات، اغتصاب بيوت، ديون ميتة، بعضهم من رواد المساجد، ويصلون في أول صف، والجميع يرتدي ثيابا إسلامية، ويتعطر يوم الجمعة، ومعه مسبحة، يسبح بها الله عز وجل، وكل أموره دينية،

(إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِينًا)

الإسلام ليس مجرد مظاهر

ومصحف في السيارة، والديون التي عليك !!! صار الإسلام فلكلوريا ومظهرا في محله التجاري، أول شيء آية قرآنية:

(إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِينًا)

في سيارته مصحف، حتى إذا كلمته بالهاتف تسمع القرآن على الخلوي، أو نشيدا، مسلم من كل نواحيه، والديون التي عليك ؟!! التناقض المريع بين هويتك ومعاملتك هو الذي أوصل المسلمين إلى ما هم عليه الآن، هان أمر الله على الناس فهانوا على الله، كل المظاهر إسلامية صارخة، مظاهر إسلامية، فن إسلامي، بطاقة إسلامية، كل شيء إسلامي، أما الإسلام الحقيقي، إسلام الورع، ركعتان من ورع خير من ألف ركعة من مخلط، الذي خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، من لم يكن له ورع يصده عن معصية الله إذا خلا لم يعبأ الله بشيء من عمله.

حقوق العباد مبنية على المشاحة، بينما حقوق الله مبنية على المسامحة.

على مستوى النساء، إن جلس النساء مع بعضهن كانت الغيبة والنميمة، وفلانة وعلانة، وشكلها، وبيتها، وزوجها، وأولادها، يُشرّح الإنسان تشريحا كاملا في غيبته.

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: حَكَيْتُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلًا فَقَالَ:

((مَا يَسُرُّنِي أَنِّي حَكَيْتُ رَجُلًا، وَأَنَّ لِي كَذَا وَكَذَا، قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ صَفِيَّةَ امْرَأَةٌ، وَقَالَتْ بِيَدِهَا هَكَذَا، كَأَنَّهَا تَعْنِي قَصِيرَةً، فَقَالَ: لَقَدْ مَزَجْتِ بِكَلِمَةٍ لَوْ مَزَجْتِ بِهَا مَاءَ الْبَحْرِ لَمُزِجَ))

[الترمذي]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ:

((يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ فُلَانَةَ يُذْكَرُ مِنْ كَثْرَةِ صَلَاتِهَا وَصِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا، غَيْرَ أَنَّهَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا، قَالَ: هِيَ فِي النَّارِ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَإِنَّ فُلَانَةَ يُذْكَرُ مِنْ قِلَّةِ صِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا وَصَلَاتِهَا، وَإِنَّهَا تَصَدَّقُ بِالْأَثْوَارِ مِنْ الْأَقِطِ، وَلَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا، قَالَ: هِيَ فِي الْجَنَّةِ))

[أحمد عن أبي هريرة]

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((عُذِّبَتْ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ حَبَسَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ جُوعًا، فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ، قَالَ: فَقَالَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ: لَا أَنْتِ أَطْعَمْتِهَا، وَلَا سَقَيْتِهَا حِينَ حَبَسْتِيهَا، وَلَا أَنْتِ أَرْسَلْتِهَا، فَأَكَلَتْ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ))

[مُتَّفَقٌ عَلَيْه]

هذا ما تعنيه كلمة (مؤمن):

أيها الإخوة، كلمة مؤمن، مرتبة كبيرة، ومن حياتنا المعاصرة كلمة دكتور معه وثيقة إتمام مرحلة قطعاً، معه شهادة إعدادية، معه شهادة ثانوية، معه ليسانس، معه دبلوم أول، دبلوم ثان، ماجستير، دكتوراه، ثلاث وثلاثين سنة دراسة، من أجل حرف (د) إلى جانب اسمه، معه كل هذه الشهادات، ما معنى مؤمن ؟ يعني المستقيم، الصادق، الأمين، العفيف، الرحيم، المنصف، المتواضع، كلمة مؤمن مرتبة أخلاقية، ليس هناك مؤمن مخادع، ولا مؤمن كاذب:

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((يُطْبَعُ الْمُؤْمِنُ عَلَى الْخِلَالِ كُلِّهَا إِلَّا الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ))

[أحمد]

فالذي يخون، أو يكذب ليس مؤمناً قطعاً.

والله هناك آية تنهد لها الجبال، يقول الله عز وجل:

(وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ (٢٤))

(سورة ص)

قد يستأثر الشريك بالشركة لنفسه، لأن الشركة باسمه، والخبير ما أدخل اسم الشريك الثاني، وبعدما أخذ خبرته، وتمكن بدأ يضايقه بأسلوب ذكي جداً، ضايقه وأهمله فأخذ قرارا من دون رأيه حتى ضجر، فانسحب واستأثر بالشركة، هذا الشريك بغى على شريكه.

(وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ (٢٤))

(سورة ص)

زوج له زوجة ثرية، هددها بالطلاق، إن لم تكتب له أحد البيوت، فكتبت له أحد البيوت، ثم طلقها، قال تعالى:

(وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ(٢٤))

(سورة ص)

ماذا استنبط الإمام الشافعي من هذه الآية ؟ قال: إن الذي يبغي على خليطه ليس مؤمناً، هو صائم مصلٍّ، وله ثماني عشرة حجة، وثلاث وثلاثون عمرة، واغتصب شركة، وأكل مالا ليس له، هذا ليس مؤمناً، فكلمة مؤمن مرتبة أخلاقية، كلمة مؤمن مرتبة جمالية أذواقه الخاصة.

المرأة التي وضعت خمارا تعني أنها محجبة، لكنها تلعب النرد، والأغاني تصدح، والطاولة الثانية فيها خمر، زوجها محافظ وزوجته محافظة، هل هذا المكان لكم ؟ هل هذا مكان المؤمنين ؟ هذا مكان عام فيه خمور تدار، والأغاني تصدح، ولعب النرد... هل هذا مكان مؤمن ؟ المؤمن مرتبته جمالية، وله أذواق خاصة، لقاءاته خاصة، عنده انضباط، عنده منهج، المؤمن مرتبة علمية وأخلاقية وجمالية.

خاتمة:

لذلك أيها الإخوة الكرام، أختم هذا اللقاء الطيب بالقول: إن الذي يطيع مخلوقاً، ويعصي خالقاً، يغش المسلمين، ويطيع زوجته، ويعصي ربه، ما قال: (الله أكبر)، ولا مرة ولو رددها بلسانه ألف مرة.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٨هـ - مقاصد الشريعة - الدرس (٢٣- ٢٧) : العمل-١

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٧-١١-٠٢

بسم الله الرحمن الرحيم

الفرق الصارخ بين عمل المؤمن و عمل غير المؤمن:

الله عز وجل في القرآن الكريم حضنا على العمل، العمل حركة، أي إنسان يعمل لأن الله أودع فيه حاجة إلى الطعام، وأي إنسان يعمل لأن الله أودع فيه حاجة إلى الجنس، يريد الزواج، أن يعمل لأن الله أودع فيه حاجة إلى تأكيد الذات، من دون اتجاه ديني، من دون معرفة الله عز وجل الإنسان يعمل، والعالم كله متحرك، الستة آلاف مليون على سطح الأرض كلهم يعملون، يعملون مقهورين، من أجل أن يأكل، من أجل أن يؤسس أسرة، من أجل أن يؤكد ذاته، هذا العمل بدافع الطعام والشراب، ودافع الجنس، ودافع تأكيد الذات، ولكن المؤمن يعمل بدوافع أخرى.

لا بد من أن يكون هناك فرق صارخ بين عمل المؤمن، وعمل غير المؤمن.

(أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ)

(سورة السجدة)

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

(سورة القلم)

(أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص)

أول مقصد من مقاصد الشريعة أن الجنة ليست بالتمني ولكن بالعمل:

أيها الأخوة، لا بد من أن يكون الفرق صارخاً بين المؤمن في عمله، وغير المؤمن في عمله، فإذا كان موضوع الدرس مقاصد الشريعة من العمل أي من العمل الذي أراده الله من المؤمن، أول مقصد من مقاصدالشريعة أن الجنة ليست بالتمني ولكن بالعمل الدليل:

(وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا)

(سورة الإسراء الآية: ١٩)

ارتبطت الآخرة بالعمل.

(ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

(سورة النحل الآية: ٣٢)

(وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ)

(سورة التوبة الآية: ١٠٥)

إذاً العمل حياة، وقد جاء الله بك إلى الدنيا من أجل أن تعمل، بل من أجل أن يكون عملك سبباً للجنة، مجمل عملك.

حجمك عند الله بحجم عملك الصالح بعد أن تتعرف إلى الله و تستقيم على أمره:

أيها الأخوة، أنت من خلال العمل ترقى إلى الله، لأن الله عز وجل يقول:

(وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ)

(سورة فاطر الآية: ١٠)

ولأن الله عز وجل يقول:

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ)

(سورة الأنعام الآية: ١٢٣)

والعمل أيها الأخوة، يرقى بصاحبه، بل إن حجمك عند الله بحجم عملك الصالح بعد أن تتعرف إلى الله، وبعد أن تستقيم على أمره، الآن تقيّم جملة وتفصيلاً عند الله من خلال عملك.

العمل لا يقيّم إلا في ضوء نيته ومدى انطباقه على منهج الله:

الحقيقة الأولى: أن العمل يقيّم في ضوء نيته، وضوء مدى انطباقه على منهج الله، العمل الصالح لا يُقبل إلا إذا كان خالصاً وصواباً، خالصاً ما ابتغي به وجه الله، وصواباً ما وافق السنة، لأن الله عز وجل يقول:

(وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ)

(سورة النمل الآية: ١٩)

قد تعمل عملاً صالحاً في مقاييس أهل الأرض، لكن الله لا يرضاه، وقد تعمل عملاً صالحاً في مقاييس الدين ولكن النية ليست خالصة لوجه الله، فالعمل لا يُقبل إلا بشرطين متلازمين، إلا إذا كان خالصاً، وصواباً، خالصاً ما ابتغي به وجه الله، وصواباً ما وافق السنة.

أخطر شيء في حياة الإنسان عمله فعليه أن يختاره مطابقاً لمنهج الله عز وجل:

الآن أبرز عمل تعمله هو حرفتك، العمل الذي ترتزق منه، العمل الذي تمتهنه، العمل الذي هو سبب رزقك، هذا العمل البطولة أن تحسن اختياره، لأنه إذا كان هذا العمل غير مشروع حُجبت عن الله عز وجل، فالمؤمن أخطر شيء في حياته زوجته وعمله لأنهما ألصق شيء به، البيت يتغير، المركبة تُباع، أما العمل، أضرب على هذا مثلاً:

إنسان حضر بعض الدروس وتأثر بها تأثراً بالغاً، لكن كل خبرته في الحياة وطبيعة عمله أنه يبيع الأشرطة التي فيها الغناء، هذه خبرته، وأتقنه إتقاناً بالغاً، يحضر ويغيب، بعد هذا أخذ قراراً ألا يحضر إطلاقاً، قال لي: عملي لا يتناسب مع حضور درس علم، وخبرته في هذا العمل، طبعاً كان هناك حلّ، لكن هو ما اختار الحل الأصعب، اختار أن يبقى في عمله.

هناك أعمال أيها الأخوة، تُبنى على إيذاء الآخرين، هناك أعمال تبنى على إلقاء الرعب في قلوب الآخرين، هناك أعمال تبنى على ابتزاز أموال الآخرين، هناك أعمال تبنى على إفساد الآخرين، هناك أعمال تبنى على إلقاء القلق في نفوس الآخرين.

((إن روح القدس نفثت في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستوفي رزقها فاتقوا الله عباد الله تعالى، وأجملوا في الطلب، واستجملوا مهنكم))

[حديث صحيح بشواهده، ابن ماجه وأبو نعيم في الحلية والحاكم وابن حبان..]

على الإنسان ألا يقيس عمله بدخله بل بمطابقته لمنهج الله تعالى:

أنا أخاطب الشباب، أي أخطر شيء في حياتك عملك، إذا كان عملاً صحيحاً وفق منهج الله، مشروعاً، عملاً طاهراً، طيباً، التعليم مثلاً أقدس عمل، بين يديك طلاب أطهار على الفطرة، كالعجينة، يمكن أن توجههم إلى الله، يمكن أن تحليهم بالكمال، فالتعليم عمل شريف. أحياناً العمل العلمي عمل شريف، تتعامل مع العلم، والعلم شيء مقدس، يعني أتمنى أن يدخل في حساباتك أن أخطر شيء تختاره في الدنيا هي حرفتك.

((إن روح القدس نفثت في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستوفي رزقها فاتقوا الله عباد الله تعالى، وأجملوا في الطلب، واستجملوا مهنكم))

[حديث صحيح بشواهده، ابن ماجه وأبو نعيم في الحلية والحاكم وابن حبان..]

ابحث عن حرفة ليس فيها إيذاء الآخرين، ليس فيها بث الرعب في قلوب الآخرين، ليس فيها ابتزاز أموال الآخرين، ليس فيها إفساد أخلاق الآخرين، تجد من مكان لمكان تسعين ملهى، لماذا ؟ الأرباح طائلة جداً، يأتي براقصة وبمغنٍّ، ويأتي بخمر، ويستقبل هؤلاء السكارى، والحيارى،

والذين شردوا عن الله، هم في غيبوبة، يدفعون المبالغ التي تطلب منهم، ويستمتعون استمتاعاً محرماً بنساء كاسيات عاريات، يحاسبهم الله عز وجل يوم القيامة، هذا عمل دخله كبير. في أعمال فيها إفساد، يفتح أحياناً دكاناً للانترنيت، يأتي الشباب ويفتحون مواقع إباحية، يعيشون بالوحل، هو ربح، ربح وفتح محلاً، إياك، ثم إياك، ثم إياك أن تقيس العمل بدخله، إياك، يجب أن تقيس العمل بمدى موافقته لمنهج الله، يعني أعلى تجارة في الأرض المخدرات، يأتي بعدها السلاح، تأتي بعدها الأسمدة الكيماوية، هناك أعمال أصحابها كالمجرمين.

من اختار عملاً مشروعاً دخله قليل يتولاه الله بالصحة و العافية:

لذلك أنت درس العلم ماذا يفيدك ؟ يفيدك أن تختار عملاً يرضي الله، هذا العمل سيلازمك حتى الموت، في إنسان ينصرف إلى عمل لا يرضي الله، يكتشف بعد فوات الأوان أنه أخطأ خطأً استراتيجياً، حينما اختار حرفة لا ترضي الله، أنا أعني ما أقول وأنا أخاطب الشباب بالذات، إياك ثم إياك أن تختار عملاً لا يرضي الله، ولو كان دخله كبيراً العمل المشروع قد يكون دخله أقل، لكن هذا الدخل الأقل فيه بركة، معه رضوان الله عز وجل، الله عز وجل حينما تختار عملاً مشروعاً دخله قليل يرزقك بما يسميه العلماء رزقاً سلبياً، يعني أقل غلطة بالجسم تحتاج إلى ملايين، يتولاك بالصحة التامة، اختر عملاً يرضي الله، اختر عملاً فيه نفع للآخرين، تعليم، تجارة مشروعة، شيء متعلق باللباس.

أحياناً يقول إذا ما صنعت اللباس وفق أحدث صرعات الأزياء الفاضحة التي تبرز كل مفاتن المرأة لا أبيع.

مرة في بلد التقيت مع أخ سألته عن عمله، قال لي: ألبسة نسائية، أنا سكت ، سكت إشفاقاً عليه، ثم قال لي: أثواب نوم، قلت له: هذه ما فيها شيء، هذه تلبس في البيت، تلبسها الزوجة لزوجها، قلت له: بارك الله بك، لقد أفرحتني، في ألبسة أخرى مشكلة.

أحد أسباب السلامة مع الله أن تختار عملاً مشروعاً يرضي الله:

أريد من هذا الدرس أن تكتشفوا أن أحد أسباب السلامة مع الله أن تختار عملاً مشروعاً، عملاً طاهراً، عملاً فيه عطاء للأمة.

مرة التقيت مع كاتب عدل، قلت له: والله عملك رائع:

(وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ)

(سورة البقرة الآية: ٢٨٢)

أنت مهمتك الأولى حفظ الحقوق، شيء مريح، أو الذي يكتب عقود الزواج شيء رائع جداً، يعني كل يوم عنده أعمال صالحة لا تعد ولا تحصى، سجل عقداً بين زوجين، وفي تجارة مشروعة، تجارة الغذاء ما فيها شيء، القماش ما فيها شيء، في أنواع منوعة من التجارة ترضي الله عز وجل، تبيع سلعة جيدة يحتاجها المؤمنون، لكن طاولات النرد عليها طلب كثير، أرباحها جيدة، سيدي الله يغفر لنا ماذا نعمل ؟

((من لعب بالنرد فكأنما غَمَسَ يده في لحم خنزير ودمه))

[رواه أبو داود عن بريدة بن الحصيب]

حديث صحيح عن النبي الكريم.

اختر بضاعة ترضي الله، اختر بضاعة مشروعة، اختر بضاعة تنفع الناس ولا تؤذيهم.

من كان عمله مشروعاً كان كسبه حلالاً:

أيها الأخوة، الحقيقة الدقيقة أن عمل الإنسان حرفته إن كانت في الأصل مشروعة، تجارة أخشاب، تمام، تجارة أقمشة ما فيها شيء، دائماً في عندنا قاعدة:

(فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا)

(سورة الأعراف الآية: ١٩)

يعني كُلْ من مئة شجرة.

(وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ)

(سورة الأعراف الآية: ١٩)

نسبة المحرمات إلى المحللات نسبة تكاد لا تذكر، الآن عفواً، ادخل إلى محل لبيع المشروبات، كم نوع من المشروبات التي سمح الله لنا بها ؟ والله في مئات، حرم عليك الخمر فقط، كم شراب مسموح به ؟ كم شراب عصير فاكهة مسموح به ؟ بالمئات، بل بالألوف، حرم عليك الخمر، كم نوع من اللحم مسموح به ؟ حرم عليك الخنزير، كم نوع من الكسب أحلّه الله ؟ مئات ألوف الأنواع، حرم عليك الربا فقط،

(فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ)

من تألق بعمله الصالح شعر بسعادة لا توصف:

إذاً أنا أخاطب الشباب مرة رابعة: ابحث عن عمل يرضي الله، ابحث عن عمل ليس فيه إيذاء المسلمين، ليس فيه ابتزاز أموالهم، ولا بث الرعب في قلوبهم، ابحث عن عمل يرقى بك إلى الله، ابحث عن عمل تسعد به.

والله حدثني طبيب، رأيته في أمريكا، ألقيت دروس عديدة أحض الأخوة الكرام هناك أن يعودوا إلى أوطانهم، قلت لهم: لأن لحم كتفكم من خيرات هذا الوطن، ردوا له الجميل، الآن أنت معك دكتوراه، معك بورد، يعني أمتك في المشرق بحاجة إليك، أنت إذا أتيت إلى الشام كأن أمريكا أتت إلى الشام، الإنسان يذهب إلى بلاد بعيدة يدفع ملايين حتى يعالج على يد طبيب درس في أمريكا، فإذا جئت أنت إلى بلدك تكون قد رددت الجميل إلى وطنك، وعالجت أمتك، أمتك المسلمة عالجتها. والله أنا فوجئت طرق بابي أخ أعرفه في ديترويت في أمريكا، طبيب تفضل إلى البيت، وأنبأني أنه استجاب إلى دعوتي، وعاد إلى دمشق، وأسس عيادة، العيادة زرته فيها كأنك في أمريكا، ست، سبع عيادات، عيادة قلبية، عيادة صدرية، عيادة هضمية وأتى بأجهزة حديثة جداً، أقسم لي بالله، قال لي: وأعالج المرضى المؤمنين أبناء بلدي أبناء أمتي، أشعر بسعادة لا توصف، أحياناً تتألق بعملك، في أعمال صالحة رائعة جداً.

من كان عمله مشروعاً كان طريقه إلى الله سالكاً:

لذلك أيها الأخوة، عد للمليار قبل أن تختار عملاً، هذا العمل ألصق شيء بك ، إن كان هذا العمل مشروعاً كان الطريق إلى الله سالكاً، وإن كان غير مشروع كان الطريق إلى الله مقطوعاً، تكون خسرت خسارة كبيرة جداً، مرة ثالثة:

((إن روح القدس نفث في روعي أن نفسا لن تموت حتى تستكمل أجلها وتستوعب رزقها، فاتقوا الله عباد الله، وأجملوا في الطلب واستجملوا مهنكم))

والله هو الرزاق، ودرهم تكسبه من طريق مشروع خير لك من مئة ألف درهم تكسبه في طريق غير مشروع.

من تحرى الحلال أتته البركة من الله عز وجل:

الله عز وجل قادر على شيئين، قادر على أن يبارك لك في هذا الدخل القليل، بالآلة الحاسبة فيها ذاكرة، فيها زائد، ناقص، تقسيم، جمع، ضرب، لكن ما فيها زر بركة، عند الله في بركة، والله معي

مئات القصص الواقعية، في دخل محدود الله عز وجل أودع في هذا الدخل البركة لأن المال حلال، أحياناً بدخل فلكي ينزع الله منه البركة حادث يقول لك كلف كذا !.

والله قال لي أخ: ابني استأجر سيارة وعمل فيها حادث غالية كثير، قال لي: ثمانمئة ألف تصليحها، دقائق ثمانمئة ألف.

أحياناً اشتباه بالتهاب سحايا كلفتني سبعين ألفاً.

طبعاً كما أن الله قادر على أن يبارك لك في هذا الدخل القليل قادر على أن يتلف مالك الكثير.

لذلك حينما تتحرى الحلال تأتي البركة من الله عز وجل، أقول لكم دائماً:

((مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا))

[أخرجه البخاري والترمذي وابن ماجة عن عبد الله بن محصن]

أقول لكم مرة ثانية: من هو الملك ؟ الملك هو الذي له بيت يؤويه، وزوجة ترضيه، ورزق يكفيه، ابحث عن عمل يرضي الله، ابحث عن عمل تقدم به للأمة خبرات.

قبل أن يختار الإنسان أي عمل عليه الانتباه إلى آثاره السيئة:

لذلك حرفة الإنسان إذا كانت في الأصل مشروعة، وسلكت بها الطرق المشروعة، الإعلان رائج جداً، تمام، هل تستطيع أن ترد إعلاناً لامرأة شبه عارية ؟ لا أستطيع، إذا لم تستطع دعك من هذا العمل، دار نشر ! دار النشر إذا نشرت كتاباً فيه ضلالات لو تبت مليون توبة الكتاب لم يتب، لأنه بيع .

لذلك هناك مفسر، كان عنده انحراف في عقيدته، وألّف تفسيراً، فلما كان على فراش الموت تاب إلى الله من أفكاره التي بثها في كتابه، فعلق بعضهم على أنه تاب ولكن تفسيره لم يتب.

والله يا أخوان، لأن يرتكب الإنسان الكبائر أهون من أن يكون صاحب دار نشر ينشر كتباً فيها ضلالات، الكتب الضالة تطبع منها الآن عشرات الطبع، مريحة لأنه مطبعة تطبع كل شيء، قصص فاضحة، أدب مكشوف، كتاب ضلالات، كتاب فيه إلحاد أنا ما لي علاقة، لا، لك علاقة، أنت السبب.

(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآَثَارَهُمْ)

(سورة يس الآية: ١٢)

قبل أن تختار دار نشر انتبه، هل أنت متأكد أنك لن تنشر إلا كتاباً فيه الحق قبل أن تختار أعمالاً لا تعد ولا تحصى، فيها معاصٍ وآثام.

في مطعم صغير، جيد، لكن قال لي: مستوى رفيع جداً، خمس نجوم أين ؟ قال: بأرقى أحياء دمشق، والإضاءة خافتة، من له علاقة مع فتاة يأتي إلى عنده، الله يعطيك العافية على هذا العمل، عملت المطعم وكراً للقاءات الغير مشروعة، أليس كذلك ؟ أنا صريح معكم، لعل كلامي يكون محرجاً، ابحث عن عمل لا شبهة فيه، لا شائبة فيه.

الحكمة من جعل الحلال صعباً و الحرام سهلاً:

دائماً وأبداً الحرام دخله كبير، والحلال دخله صغير، الحلال متعب، والحرام سهل جداً، الآن تدخل امرأة للبيت تعمل ثمان ساعات أعمال شاقة يعطوها خمسمئة ليرة، في امرأة تأخذ هذا المبلغ بعشر دقائق، ترتزق من ثدييها.

دائماً الله جعل الحلال صعباً، والحرام سهلاً، أحياناً حتى تجمع مصروف السنة تعمل عملاً مخيفاً، يأتي إنسان يغض بصره عن مستودع يأخذ خمسة ملايين، فقط غض بصره، هذا العمل غير مشروع، بضاعة ممنوعة، لماذا مُنعت ؟ لأنها ضارة، فأنت أتيت بها، وعملت طريقة أن تبيعها بخلاف تعليمات القانون التي هي لصالح المواطنين.

من كان عمله حلالاً انقلب هذا العمل إلى عبادة:

لذلك العمل إذا في الأصل مشروعاً، وسلكت به الطرق المشروعة، صدق وأمانة، وصراحة، وأسعار واضحة، ومواصفات صحيحة، ما في تدليس، ما في كذب ما في غش، ما في إيهام، ما في، ما في، إذا كان العمل في الأصل مشروعاً وسلكت به الطرق المشروعة، وابتغيت منه كفاية نفسك وأهلك، وخدمة الأمة.

السلف الصالح إذا فتح محله التجاري يقول: نويت خدمة المسلمين.

وما شغلك لا عن فريضة ولا عن واجب انقلب العمل إلى عبادة، أنت في عبادة وأنت في دكانك، أنت في عبادة وأنت في عيادتك، أنت في عبادة وأنت في مكتبك، أنت في عبادة وأنت في صفك، أنت في عبادة وأنت في حقلك، لذلك قالوا: عادات المؤمن عبادات وعبادات المنافق سيئات، لذلك قال تعالى:

(وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ)

أيها الأخوة الكرام، من أبرز مقاصد الشريعة في العمل: أن يكون العمل سلماً ترقى به إلى الله، وحجمك عند الله بحجم عملك.

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

المؤمن عمله عبادة يرقى بها إلى أعلى عليين:

تحدثنا في الدرس الماضي عن المقصد الكبير من عمل الإنسان في الدنيا، قال تعالى:

(وَقُلِ اعْمَلُوا)

(سورة التوبة الآية: ١٠٥)

وكيف أن هذا العمل لا بد من أن يكون بسبب دوافع ثلاثة، الدافع إلى الطعام والشراب، والدافع إلى الجنس، والدافع إلى تأكيد الذات.

ولكن المؤمن في ضوء هذه الدافع يمكن أن يجعل عمله عبادة يرقى بها إلى أعلى عليين في الدنيا والآخرة، فالعمل لابدّ منه، هناك دوافع بالعمل، إما أن يكون مرشداً وفق منهج الله، تنتفع به في الدنيا والآخرة، إما أن يكون سلماً ترقى به إلى أعلى عليين، أو أن يكون دركات يهوي بها الإنسان إلى أسفل سافلين.

من خرج عن منهج الله عز وجل كان عمله لا يرضي الله تعالى:

الآن الحديث عن عمل آخر، عمل لا يرضي الله، ما حقيقته ؟ وما نتائجه ؟ وما مضاره ؟ وما أخطاره ؟.

أولاً: الله عز وجل جبلنا جبلة راقية، أن الإنسان إذا خرج عن منهج الله، إذا عمل عملاً سيئاً، إذا عمل عملاً آذى به إنساناً، أو مخلوقاً، إذا عمل عملاً استغل به إنسان ابتز ماله، غشه، احتال عليه، أخذ منه فوق ما ينبغي، أعطاه أقل مما ينبغي، كلمة العمل توصف بكلمة جامعة مانعة، عمل صالح، في عدل، في إنصاف، في جمال، في خيرية في صدق، في حكمة، في رحمة، في انضباط. وعمل يوصف بكلمة واحدة أيضاً: سيء، في كذب، في احتيال، في ابتزاز في إيهام، في إيذاء للمخلوقات.

فالإنسان يعيش عمراً مديداً، هذا العمر المديد اشتغل، وأسس شركات، وتاجر وسافر، وتزوج، وأنجب، وزوج أولاده، هذا العمر المديد يضغط بكلمة واحدة، إما أن يقال بعد موته: الله يرحمه، أو أن يقال بلسان الحال: الله لا يرحمه.

فأنت أحد إنسانين، إما أن يكون لك عمل صالح، صالح يبدو في بيتك، زوج صالح، زوج وفيّ، زوج مخلص، أب رحيم، أب عطوف، أب منصف، أب مربٍّ، ابن بار، بنت وفية لأمها وأبيها، منضبطة، محجبة بالبيت، بالطريق في غض بصر، في ضبط لسان، في ضبط جوارح، بالعمل في صدق، في إخلاص.

يعني كلمة عمل صالح تنسحب على كل أعمالك في الدنيا، بدءاً من كونك زوجاً أو أباً، أو ابناً، أو أخاً، أو بنتاً، أو زوجة، ثم إلى الحركة بالطريق، ثم إلى وضعك المهني في الحياة، تاجر، طالب، طبيب، مهندس، عامل، مزارع، ثم بأوقات لهوك يمكن أن تمضي وقت اللهو بطاعة لله، بتأليف للقلوب، بسهرة بريئة، بنزهة نظيفة، أو بنزهة غير نظيفة، بعلاقات غير صحيحة، بكلمات غير منضبطة.

المؤمن لا يتقرب إلى الله إلا بالعمل الصالح:

تصور كل حركتك بالحياة من طعامك، إلى شرابك، إلى دراستك، إلى عملك، إلى تأسيس عملك، إلى علاقاتك الاجتماعية، كل هذا الكم من الحركة قد يوصف صفة واحدة، عمل صالح، العمل حركة.

هذه الطاولة ليس لها عمل صالح، لأنها سكونية، لماذا هي سكونية ؟ ما فيها شهوات، لا تشتهي طاولة أنثى، لا تشتهي أن تأكل، ولا تسافر، جماد، أما أنت مركب فيك شهوات، الشهوات كالمحرك تتحرك، خرج من بيته بالتعبير العامي يريد أن يسر، في مؤمن يسر، لكن نظيف، يأخذ أهله وأولاده لمكان جميل، يأكل طعاماً طيباً، يمازحهم ، يلاطفهم، يرجعون مسرورين، في إنسان يطلق بصره في الحرام على من لا تحل له، يتكلم كلاماً مؤذياً، غارق في شهواته، غير منضبط في حركاته وسكاناته.

هي النقطة كلها الله يقدرني أشرحها، المؤمن لا يتقرب إلى الله إلا بعمل صالح تجد من الصعب أن تجد مؤمناً كاذباً، مؤمناً محتالاً، مؤمناً دجالاً، مؤمناً متكبراً، لا تستطيع أن تجد، لأنه منضبط مع الله عز وجل، المؤمن متواضع، المؤمن رحيم، المؤمن منصف.

المؤمن رحيم و منصف للآخرين:

والله حدثني أخ أبكاني، راكب سيارته دهس طفلاً، جاء الأب، أخو الطفل همس في أذن الأب، قال له: السيارة تمشي على العشرة، وعلى اليمين، وما في خطأ من السائق أبداً أما أخي قفز إلى أمامها ودُهس، جاءت الشرطة، قال لهم: أنا دهسته خطأ، هذا ابني وضع كل وزنه بحيث ألا يجر السائق، لأنه سمع أنه لا علاقة له إطلاقاً، هذا منصف يستطيع أن يبتز مال هذا السائق، أليس كذلك ؟.

أحياناً إنسان يسترخي أمام السيارة، وكأنه أغمي عليه، والسائق لم يعد ينتهي منها بخمسين ألف العملية، يكون السائق ما مسه إطلاقاً.

والله سمعت قصة في الحج، أن إنساناً راكب مركبته، يمشي بسرعة اعتيادية واجه شاحنة من طريق فرعي، فخفف السرعة إلى أقل درجة، سائق الشاحنة ما تحرك، قام أسرع، بعدما أسرع تحرك أمامه جاء، معه زوجة وثلاثة أولاد، توفي ولدان وزوجته وقعت القصة أيام فريضة الحج، والمقتول بحادث سير ديته مئة ألف في الأيام العادية، في أيام الحج مئتا ألف ريال، مئتا ألف بثلاثة، ستمئة بخمسة عشر، ١٢ مليون، جاءت الشرطة هذا البدوي قال لهم: الحق عليّ ما له علاقة، نظرت إلى هذه الكلمة ؟ خسر فيها ١٢ مليون، لكن والله أنا أقول: لو لم يكن له إلا هذا العمل لكفى، بريء الثاني.

الإنصاف، مؤمن ؟! تتبلى الناس ؟ مؤمن ؟! تأخذ ما ليس لك ؟ مؤمن ؟! تدعي أنه مغمى عليك ؟ والسائق لم يفعل شيئاً إطلاقاً، الله كبير، الله كبير وموجود، وما في إلا الله عز وجل.

العمل إما أن يكون صالحاً أو سيئاً و قد يخلط الإنسان العمل الصالح مع السيئ:

فيا أيها الأخوة، صدّق يضغط عملك كله بكلمة واحدة، عملك بالبيت كزوج، عملك كابن، عملك كزوجة، عملك كأم، يضغط حركتك بالطريق، عملك بالعمل، ممكن أن تجد فأرة في تنكة الزيت، ممكن، تستطيع أن تبيعها كمؤمن ؟ تبعثها إلى الصابون، إذا ما في إيمان، يبيعها، ما في جهة تكشفه إطلاقاً.

أنا أقول: بالنهاية إما أنه لك عمل صالح، أو عمل سيء، في حالة ثالثة الحالة الثالثة: خلطت عملاً صالحاً مع آخر سيئاً، هنيئاً، وأثني على من كان عمله صالحاً ودائماً وأبداً:

(الَّذِين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ)

(سورة الفتح الآية: ٢٩)

الصفة الأولى الصارخة، الكلمة واسعة جداً، أنت أردت أن تقتل عقرباً في قتل مع إحسان ضربة واحدة، لا يتسلى فيه.

مرة كنت بمسكمة، صاد السمك أمامي بالشبكة، والسمك مضطرب اضطراباً مذهلاً، يرد أن يفتح بطنها لينظفها من أحشائها، قلت له: قف، قال لي: يأخذون وقتاً طويلاً ليموتوا، قلت له: أنتظر ساعة، قف، لا أستطيع، في شرع، والله مضى ساعة حتى سكنوا، المرة الثانية أخذتهم معي بالسيارة، تحركوا بالسيارة، لأن الساعة طويلة، لا أستطيع.

((إِنَّ الْإِيمَانَ قَيْدُ الْفَتْكِ، لَا يَفْتِكُ مُؤْمِنٌ))

[مسند أحمد عن ابن الزبير]

الدين ليس بالمسجد و إنما بالبيت و العمل:

انتبه الدين ليس بالجامع، الدين أن توصف بأن لك عملاً صالحاً، تنصح مواطناً جاء من حلب، له معاملة وإنجازها يتم بدقيقة، تعال غداً، لأنه يتكلم مع واحدة، هذا عمل سيء، طبيب مناوب إسعاف جاء شخص سوف يموت، انتظروا دقيقة، لاحقين اعملوا لنا كأس شاي، مات، عمل سيء، هذه الكلمة تدور معك أينما ذهبت، تدور معك ببيتك، بالطريق بمكتبك الهندسي.

ما شهدت صبّ السطح، هناك عمال جهلاء، مشوا على الحديد، نزل للأسفل لما صبّ صار مكانه غير طبيعي ما عاد إسمنت مسلح، هو بناء جامعي، صار في جريمة بالجامعة، الفتيات هجموا على الشرفة ليروا تمثيل الجريمة وقعت الشرفة، لأن المهندس ما أشرف على الصبة، فمشوا على الحديد، الحديد تغير مكانه بالصبة لم يعد مقاوماً، فلما جاءت عشرون طالبة على الشرفة وقعت. ركب الصحن، موضوع الصحن موضوع ثانٍ، لكن الآن موضوع ركب صحناً، عوضاً عن ستة براغي برغيين، هبت رياح شديدة وقع الصحن فوق بنت صديقي أرداها ميتة، بالصف الثامن مثل الوردة، هذا العمل سيء.

الذي يأكل ما ليس له سقط من عين الله:

صدقوني أقل مكان يظهر فيه دين الإنسان هو المسجد، لا تراه يرتدي كلابية بيضاء، وواضع عطر زيتي مسك، هذا عطر العود غالٍ جداً، مسبحة جميلة جداً، وسيدي الله يخلينا إياكم، وأنتم بركتنا، ليس هذا، انظر إليه بالعمل في خطأ ؟ في غش ؟ في مادة مسرطنة وضعها بالمادة الغذائية؟ في مادة غذائية غير صالحة للاستخدام البشري دبرها، وسوقها، وباعها، وربح أرباحاً طائلة ؟ هناك الدين، صدقوني لا ممكن أن ينصرنا الله إذا ظننا الدين بالمسجد، ليس بالمسجد، بالحقل، تبخ هرمونات ؟ تخرج الفاكهة كبيرة، وازنة، وغالية، كلها مسرطنة، ممنوعة الهرمونات بالقطر، تأتي تهريب لا يخاف من الله، المزارع في مجال يغش، والتاجر.

قال لي: عما آخذ كأس عصير، وضع برتقالة عبأت الكأس كله، غير معقول واضع لها مئة سيرنك ماء.

((أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة))

[أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس]

والله زرت إنساناً والد صديقي، عمره ٩٦ سنة، قال لي: يا عم أنا عملت تحليلاً البارحة كله ظهر طبيعي، كله، ٩٦، كله طبيعي، قال لي: والله ما أكلت قرشاً حراماً بحياتي، ولا أعرف الحرام النسائي، لا هذا ولا هذا، قال له: يا بني حفظناها في الصغر فحفظها الله علينا في الكبر، من عاش تقياً عاش قوياً.

والله في عندي ألف قصة، الذي يأكل ما ليس له سقط من عين الله، انتهى عند الله، بتعبير آخر: ألغى صلاته، وصيامه، وحجه، وزكاته، تؤذي مسلماً، تضر مسلماً، تبيع دواء انتهى مفعوله، تطلب تحليلاً ليس بحاجة له المريض، تطلب تصويراً ليس بحاجة له، من سيحاسبك ؟ إذا كنت جراح قلب وضعت دساماً صيني ثمنه ٣٠ ألف وبالفاتورة أمريكي ثمنه ٦٥، هذا الذي كان مخدراً يستطيع أن يكشف الخطأ ؟ ما في قوة تكشفه موضوع ثقة وذمة.

المؤمن شخصية فذة يعلم أن الله يراقبه في كل أفعاله:

لذلك المؤمن شخصية فذة، لا يهم أن يكون مراقباً أو غير مراقب، الله يراقبه المؤمن شخصية فذة. والله في هذا البلد نسي شخص بسيارة عمومي عشرين مليون ليرة، بحث عن صاحبها أربعة أيام حتى وصل إليه وقدمها له، عشرين مليون، لكن ظهر صاحب المال ذا ذوق عال، اشتر له مركبة بمليونين، هذا الدين.

نحن لا نرى ديناً، لو ترون الدين الحياة جنة يا أخوان، لو ترون الدين.

الأمير عبد القادر الجزائري بالجزائر هو الاسم الأول، كان ساكناً بالشام، له جار فقير، اضطر أن يبيع بيته، جاءه مبلغ بخس، انزعج، قال له: والله لا أبيع جيرة الأمير بثلاثمئة ليرة ذهب، جاء شخص أوصلها للأمير، بعث وراءه وقال له: هذه ثلاثمئة و لا تترك بيتك، قال: وأنا لا أبيعك. الآن من أين يؤلمه الجار ؟ ما الذي يؤلمه ؟ والله يا أخوان ما لكم يمين بيت أرضي له وجيبة داخلية، أراد شخص أن يزوج ابنه، يوجد بهذا البيت دكان أغلق الباب، وعمر حائطاً، وعملها غرفة نوم، دكان بالوجيبة، عمل له حمام مترين بمترين، جاره الذي فوقه اشتكى عليه، لا حجبت الشمس، ولا آذيتك، البيت أرضي، والديار له والوجيبة له، وداخلية وعمّر لابنه فقط حمام ليزوجه، الجار الذي فوقه اشتكى عليه، أين آذاك ؟ هذا المجتمع الذي يؤذي بعضه ساقط من عين الله، احفظها هذه الكلمة، عملك صالح أم سيء ؟ واسعة جداً، ببيتك، بعملك، بالطريق، بالنزهة، عملك صالح أم سيء؟.

زوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين:

أيها الأخوة، القضية تحتاج إلى حركة أخرى، المجيء للمسجد وحده لا يقدم ولا يؤخر، لكن إذا تعلمت، طبقت، واستقمت، والله الذي لا إله إلا هو أنا أخاطب الشباب الآية الكريمة:

(وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا)

(سورة الطلاق)

والله زوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين، لا يوجد عمل، هناك بطالة، فرص عمل لا يوجد، الشهادة ما لها قيمة، الشركات كبيرة وعملاقة كالحيتان يأخذون كل شيء، هذا كله كلام عند الله غير مقبول، المقبول

(وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا)

أنت شاب بحاجة إلى بيت، بحاجة لزواج، بحاجة لمهر، بحاجة لعمل اتق الله وانظر

(وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ)

هذا كلام خالق الأكوان، ليكن عملك صالحاً.

مرة جلس إلى جانبي شخص بوليمة، وضع بصحنه طعاماً فيه لبن، أخذ قطعة خبز ومسح الصحن، مسح كأنه غُسل، بقدر ما هو أديب مع الله عز وجل، لا يبقي بصحنه شيء ولا مسحة لبن، مسحها بخبزة، أديب مع الله كثيراً، أحياناً يدعو خمسة آلاف، ستة آلاف كل سنة (توفي رحمه الله) بيوم واحد يدعوهم للغوطة، يعمل لهم هريسة، هذا الإنفاق يقابله الأدب مع الله في الطعام والشراب.

تخلق بأخلاق الأنبياء، تخلق بأخلاق المؤمنين، كن صادقاً، كن أميناً، كن ورعاً.

طريق الله سالك وكل إنسان بإمكانه أن يسلكه:

توفي عالم، والله سمعت عنه قصصاً أقسم بالله تأخذ بالألباب من تواضعه وحكمته، وفضله، وعلمه، هكذا الإنسان، أنت إنسان وهو إنسان، لمَ لا تكن بطلاً ؟ لمَ لا تكن شيئاً مذكوراً، وهذا شيء بيد كل إنسان، طريق الله سالك، وكل إنسان بإمكانه أن يسلكه، أبداً، والطاعة سهلة جداً.

(وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)

(سورة الأحزاب)

أريد أن أقول لك: إن كلمة عمل صالح واسعة كثير، حتى بالقيادة في عمل صالح، يمشي بسرعة معتدلة، شخص اضطر أن يتجاوزه، يرفع السرعة، يرفع، أحرجه، جاءت سيارة ثانية، هذه بطولة؟

أنت تمشي بسرعة بطيئة، أراد أن يتجاوزك مستعجل ماذا فعل ؟ في غلظة بالقيادة، في غلظة بالبيع والشراء، هذا الحاضر لم يعجبك اتركها، طول بالك، أخي هكذا السعر، أتمنى أن أراعيك لكن لا أقدر، عندنا تسعير رسمي، نفس الكلام يحكى، هناك كلام قاسٍ، وهناك كلام لطيف، هناك مشية بأدب، مشية بكبر، أحياناً يقود مركبته جنابي، كتلة كبر، اجلس جلسة طبيعية، واشكر الله عليها، الله أعطاك مركبة.

العمل الصالح ليس بالخارج فقط بل بالبيت أيضاً:

أيها الأخوة، الذي أتمناه عليكم أن العمل ألا يكون سيئاً، وصدقني أنه بفطرتك تكتشف الخطأ من الصواب، تقدر إذا دخلت للبيت أن تقول السلام عليكم، أن تبتسم، كيف الصحة ؟ إن شاء الله مرتاحين ؟ الله يعطيكِ العافية، ما تكلفك هذه ؟ تنشأ مودة بينك وبينها لا يعلمها إلا الله، يدخل، الأكل جاهز ؟ لا سلام، ولا كلام، ومشغول بالأخبار، وهاتي الجريدة، والآن لا وقت لدي، وابتعدي عني، طول بالك، تنتظرك من ثماني ساعات، ما لها أحد غيرك.

أنا لا أقول لكم العمل الصالح بالخارج، وبالبيت ما في مشكلة، العمل الصالح شمولي، من بيتك، لجلستك مع أولادك، ابنك هذا آنسه، ضمه، قبله، شمّه كان النبي الكريم حينما أنجب فاطمة، ضمها، وشمها، وقال:

((ريحانة أشمها وعلى الله رزقها))

دع دخولك إلى البيت عيد، هو لا بد من عيد إما بالخروج أو بالدخول، إذا شخص شرس العيد عندما يخرج من البيت، راح، خلصنا، بابا عندك موعد تأخرت على الموعد، يصرفه لأبيه لأنه شرس، وهناك أب لطيف.

فيا أخوان الأمر بيدك.

(لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا)

(سورة البقرة الآية: ٢٨٦)

((ليس منا من وسع الله عليه ثم قتر على عياله))

[الجامع الصغير عن جبير بن مطعم بسند فيه ضعف]

على كل إنسان أن يكون عمله صالحاً يلقى الله به و يسعد به في الدنيا والآخرة:

أعيد مرة ثانية: بيتك جانب، بيتك يعني زوجتك وأولادك، وأمك وأبوك بيتك ، وعملك جانب آخر، لا كذب، ولا غش، ولا رفع سعر، ولا ابتزاز، ولا ذم بضاعة الآخرين، يأتي بظروف بذور من

شركات أخرى، يطلب زبوناً لشركة غير شركته، يقول له: هذا بلا نقود لا أريده، هذا للرمي زبالة، هو لماذا اشتراه ؟ من أجل أن يشوه سمعته حرام لا يجوز، وقد يكون أحسن من بذرتك، حتى يبيع بذرته يشتري نوع ثانٍ.

هذا اللون ما كان يمشي معه فأخاط بنطالاً منه، أنا لابس منه انظر، لماذا لبست منه ؟ من أجل أن تبيعه، أساليب البيع والشراء إذا مبنية على الكذب لا يجوز، أبداً.

فيا أخوان، أنت بالنهاية لك حركة بالحياة، تخرج من البيت تعمل، تركب سيارة إما أن يكون عملك صالح، بدءاً من بيتك، أنا أقول: منهج الإله عز وجل يبدأ من فراش الزوجية وينتهي بالعلاقات الدولية.

أرجو الله سبحانه وتعالى أن يكون عملنا جميعاً صالحاً نلقى الله به، ونسعد به في الدنيا والآخرة.

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٨هـ - مقاصد الشريعة - الدرس (٢٥- ٢٧) : كسب المال-١

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٧-١١-٠٩

بسم الله الرحمن الرحيم

كسب الرزق عبادة لأن المال قوام الحياة:

إن كسب الرزق عبادة، لأنه قوام الحياة هو المال، طلب الحلال فريضة بعد الفريضة، لا تقدر تشد ابنك لك، ويسمع كلامك، وينصاع، إذا كل شيء بابا ما معي، ما معي، ما معي، يأتي رفيق له غني يأخذه مشوار، يدخله لمطعم، يريه كل شيء، يكون ابنك قد انتهى، من كلمة ما معي، أنا أعترض فقط على فقر الكسل، سامحوني، على فقر الكسل.

هناك فقر القدر، صاحبه معذور، و فقر الإنفاق، أنا أعترض على فقر الكسل مهمل لا يتقن عمله، إرجائي، تأخير.

حتى مع الأسف الشديد بعض البلاد الغربية يصفون الإنسان الشرقي بكلمة أي بي إم، ما معناها ؟ أي ؛ إن شاء الله، بي ؛ غداً، إم ؛ لابأس، أي، بي، إم، أي إن شاء الله، لا يريد أن يدفع، إن شاء الله أعطيك، إن شاء الله آتي ولا يأتي، استخدم إن شاء الله على غير ما أرادها الله، الله أراد أن تقولها وأنت عازم على المجيء.

(إلاَّ أن يُحَاط)

(سورة يوسف الأية: ٦٦)

أراد أن تقولها وأنت عازم على دفع الذمة

(إلاَّ أن يُحَاط)

تستخدمها أنت بخلاف ما أرادها الله، بي، غداً، إرجاء، إرجاء.

ورد في بعض الأقوال المأثورة:

((أن هلك المسوفون))

وإن ؛ لابأس ماذا حصل ؟ اللامبالاة، هذه صفة التخلف.

من ابتغى بعمله خدمة الناس كان عمله صالحاً:

لذلك أيها الأخوة، كسب المال عمل صالح، ولكن بشرط ألا يصرفك عن طاعة وعن أداء واجب، أقول لكم هذه الحقيقة: صنعتك، حرفتك، دكانك، عيادتك، مكتبك الهندسي، مكتب المحاماة، حقلك، عملك، حرفتك، مهنتك، إذا كانت في الأصل مشروعة وسلكت بها الطرق المشروعة تخدم الناس، تكرم، تكرم، سهلة جداً، يقوم معه أحياناً يمشي المعاملة، يقول: الله يجزيك الخير، الله يحفظك، الله يديمك، الله يقويك، إذاً يمتن المواطن.

والله يا إخوان ممكن أن تجعل عملك جنة إذا ابتغيت به خدمة الناس، وكان العمل صالحاً.

أكثر معاصي الإنسان تكون من كسب ماله:

أيها الأخوة، الحياة قصيرة، والدروس بليغة، والموت ! إنسان يكون ببيت، أو راكب بمركبة، أو في تجارة، بثانية بقي في النعش، تحمله إلى القبر، ماذا يوجد بداخل القبر ؟ لا في سيراميك، ولا في دهان، ولا في ثريات، ولا في شيء، إن كنت كريماً أكرمك القبر، وإن كان العبد لئيماً القبر أصبح حفرة من حفر النيران.

يا أيها الأخوة، أكثر المعاصي تكون في كسب المال، تسعة أعشار المعاصي في كسب المال، في كذب، في تدليس، في غش، في كذب بالمواصفات، في بضاعة انتهى مفعولها، أصبحت لا تفيد، تباع، الحديث عن الأخطاء في البيع والشراء يكاد يكون البيع والشراء أكبر مجال، أي إنسان ولو ما كان تاجراً، موظف يبيع ويشتري، ينفق راتبه، كيف تنفق هذا المال ؟.

فلذلك أيها الأخوة، الموضوع الآن هو كسب المال، المؤمن يتحرى الحلال ودائماً وأبداً المال الحرام يذهب هو وأهله، الحلال يذهب، قال والحرام ؟ يذهب وأهله ، يذهب بالإنسان، المال يذهب وصاحبه يذهب معه.

الكسب الحلال والكسب الحرام:

قاعدة كبرى: أي منفعة بنيت على مضرة الكسب حرام، أي منفعة متبادلة فالكسب حلال، أوضح مثل:

معك مال لكنك لا تحسن التجارة، كبير في السن، أو شاب صغير، أو مريض لا سمح الله، معك مال، يأتي شاب كتلة نشاط، وحيوية، وفهم، وخبرة، ما معه مال المال منك، تصنع شركة، المال منك والجهد من الشاب والربح بينكما هذه المضاربة التي أقرها النبي بل مارسها في أول حياته مع

السيدة خديجة، المضاربة منفعة متبادلة، إنسان معه مال لا يحسن استثماره، إنسان معه خبرة لا يملك المال الكافي لها، هذه منفعة متبادلة أما السرقة منفعة بنيت على مضرة، هذه قاعدة كبرى.

أحد إخواننا يعمل بدائرة جانب جامع، فكان يحضر الدرس، دخل لعند المدير العام وقال له: أريد ستة أيام إجازة، المدير العام عصبي، لا يوجد وقت، والآن عندنا موسم، قال له: أنا مستهلكها، كيف مستهلكها ؟ قال: أصلي الظهر كل يوم بالجامع جمعتهم كل يوم ربع ساعة، فكانوا ستة أيام حتى آكل معاشي حلالاً، يقول هذا الأخ: المدير بعيد عن الدين جداً، عمل له صدمة، قال له: أنت أين جامعك ؟ يقسم بالله العظيم أن هذا الإنسان أبعد إنسان أن يدخل لجامع، وجده الأسبوع القادم بالدرس هنا، هذا الإنسان حاسب نفسه على ربع ساعة، جمعهم فكانوا ستة أيام قدم إجازة حتى يأكل مالاً حلالاً.

((أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة))

[رواه الطبراني عن أبي رزين العقيلي]

هذا الرجل الذي علّم ثمانين سنة، وكان منتصب القامة، حاد البصر، أسنانه في فمه، مرهف السمع، على كل خد وردة بالتعبير العامي، لما سُئل يا سيدي ما هذه الصحة ؟ قال: يا بني حفظناها في الصغر فحفظها الله علينا في الكبر، من عاش تقياً عاش قوياً.

الدين النصيحة:

هل تحب أن تكون قوياً ؟ الله يسلمك من كل مرض ؟ أطب مطعمك، انصح الناس، انصحهم الدين النصيحة، لأن أكبر المعاصي تتأتى من كسب المال، وألف كسب مال حرام لست مداناً في الأرض، ممكن أن تعمل عملاً سيئاً، لكن صعب كشفه، بعد ذلك يكشف، الله يتولى كشفه، أما الإنسان لا يقدر، نريد اثني عشر تحليلاً ! هل تستطيع أن تناقش الطبيب ؟ هو يريد واحد، ممكن، مثلاً هذه الدعوى رابحة، هي ليست رابحة، ليست رابحة أكيد، في اجتهاد محكمة النقد، يمنع أن تربح الدعوى، معك ثماني سنوات، من الصلح، للاستئناف، للتميز، ومماطلة، وتأجيل ثمان سنوات، تأخذ منه خير الله.

أنا أقول كلاماً أعني ما أقول، هناك سؤال كبير لماذا تخلى الله عنا ؟ كأنه في تخلي نحن وضعنا سيء جداً، ما كنا كذلك، كنا في الأمم الراقية، كنا قادة للعالم، كنا قبل الإسلام رعاة الغنم بعد الإسلام أصبحنا قادة للأمم، بعد الإسلام بسبب الاستقامة.

لما عبد الله بن رواحة أرسله النبي الكريم لتقييم تمر خيبر، أعطاه اليهود حلي نسائهم كرشوة، فردها، وقال: جئتكم من عند أحبّ الخلق إلي ولأنتم أبغض إليّ من القردة والخنازير، ومع ذلك لن أحيف عليكم، فقالت اليهود: بهذا قامت السماوات والأرض وبهذا غلبتمونا.

والله الذي لا إله إلا هو لو فهم الصحابة الإسلام كما نفهمه نحن الآن لما خرج من مكة المكرمة، ما في التزام، ما في انضباط، ما في تحري الحلال.
شخص يصلي في الصف الأول ساكن ببيت أجرة لواحدة من تركيا فقيرة جداً تعيش على أجرته، بأساليب ذكية جداً، بأساليب فيها احتيال باعته إياه بسبعمئة ألف يساوي سبعة ملايين، وعامل حاله شاطر، لا لست شاطراً أبداً.

التيسير سببه الاستقامة على أمر الله:

والله يا إخوان عندنا أخطاء لا يعلمها إلا الله، هذه تمنع النصر، فإذا استقام في فراغ جماعي، إذا الجميع ما استقاموا، إذا إنسان استقام لوحده في فَرَج فردي، أما لا بد من أن تقدم شيئاً لله عز وجل.
إذاً:

((أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة))

[رواه الطبراني عن أبي رزين العقيلي]

(وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا)

(سورة الطلاق)

(وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا)

(سورة الطلاق)

في تيسير، يا إخوان التيسير شيء مريح جداً، التيسير:

(فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى * وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى)

(سورة الليل)

التيسير مريح جداً سببه الاستقامة على أمر الله.

التيسير سببه الاستقامة على أمر الله:

أيها الأخوة، بالدرجة الأولى العمل أحد أربع أخماس دينك، أقول لكم بصراحة: عندنا شهوتان إذا انضبطتا نجوت، شهوة المال، وشهوة النساء، لذلك الفضائح بالأرض كلها من آدم إلى يوم القيامة إما فضيحة أخلاقية جنسية، أو فضيحة مالية، هناك غير هذا ؟ الأحكام الشرعية تسعة أعشارها لتنظيم علاقتك بالمرأة، وعلاقتك بالمال، أكبر ثغرتين كبيرتين في شخصية الإنسان ضعفه أمام المال وأمام المرأة، فإذا قويت همته صار محصناً، والمستقيم ملك لا يستطيع إنسان ينال منه إطلاقاً.
فيا أيها الأخوة، هذا من أعماق أعماقي أقوله لكم، الدين ليس في المسجد، في بيتك، في عملك، في كسب مالك، في إنفاق مالك، في ضبط عينك، في ضبط لسانك ، في ضبط أذنك، هذا هو الدين،

الدين الاستقامة، والاستقامة عين الكرامة، والاستقامة هي نتيجة العلم، فإذا أردت الدنيا فعليك بالعلم، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم، اقرأ القرآن:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

(سورة النحل الآية: ٩٧)

حياة طيبة.

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

(سورة طه)

النجاح لا يسمى نجاحاً إلا إذا كان شمولياً:

يا أيها الأخوة، جانب كبير من حياتك عملك، وجانب كبير آخر من حياتك زواجك، إن صحّ زواجك وصحّ عملك بقي أن تعرف الله، وأن تعتني بصحتك، أصبحوا أربعة، علاقتك مع الله بند، وعلاقتك مع أهلك وأولادك بند آخر، وعلاقتك مع عملك بند ثالث، وعلاقتك مع صحتك بند رابع. وصدقوا لا يمكن أن يسمى النجاح نجاحاً إلا إذا كان شمولياً، علاقتك مع الله جيدة، عرفته، وأطعته، وخضعت له، وتقربت إليه، وخدمت عباده، وعلاقتك مع أهلك جيدة، زوجة صالحة، أولاد أبرار، وعلاقتك مع عملك منضبطة، وعلاقتك مع صحتك جيدة في عناية بالصحة.

مثلاً: إنسان دينه قوي جداً، ورع جداً، مستقيم جداً، لكن فقط يتأخر عن العمل أول تأخر، ثاني تأخر، خامس تأخر، تسمع من المعلم كلمة قاسية جداً، يجب أن يتحملك أمام أشخاص عينوك، يبقى معطلاً شهراً، يقول جرحني، أنت جرحت حالك، لا تستطيع أن تقول لي أنا ببيتي رائع، أريدك ببيتك رائع، وبالعمل رائع، وبصحتك رائع، وبعلاقتك مع الله رائع، لا يسمى النجاح نجاحاً إلا إذا كان شمولياً.

من استقام على أمر الله و اصطلح معه أصبح له معاملة خاصة من الله تعالى:

فيا أيها الأخوة:

((من أصبح منكم آمنا في سربه، معافى في جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها))

[أخرجه البخاري، والترمذي وابن ماجة عن عبد الله بن محصن]

الملك الذي سأل وزيره من الملك ؟ قال له: أنت، قال: لا، الملك رجل لا نعرفه ولا يعرفنا، له بيت يؤويه، و زوجة ترضيه، و رزق يكفيه، إنه إن عرفنا جهد في استرضائنا، وإن عرفناه جهدنا في

إحراجه.

فدقق بعملك، عملك واسع جداً، عملك منذ أن تستيقظ.

((من أصبح وأكبر همه الآخرة جعل الله غناه في قلبه، وجمع عليه شمله وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن أصبح وأكبر همه الدنيا جعل الله فقره بين عينيه، وشتت عليه شمله ولم يؤتيه من الدنيا إلا ما قدر له))

(أخرجه ابن ماجة عن الترمذي]

لما المؤمن يفتح مع الله صفحة جديدة ويتوب إليه حكمة ربنا عز وجل يشجعه، يعمل له معاملة طيبة جداً، يوفقه، ييسر أمره، أنا أقول كلمة دقيقة جداً: ما الذي يشدك إلى الدين ؟ سؤال، أحياناً تشد إلى الكمبيوتر، إلى مشاهدة مباراة فرضاً، أنا أسالك هذا السؤال، ما الذي يشدك إلى الدين ؟ قد يقول أحدكم: أفكار الدين عظيمة، صح، قد يقول أحدكم: أن الدين قدم تفسيراً عميقاً جداً، دقيقاً جداً، شمولياً، متناسقاً للكون والحياة والإنسان، تمام، لا يكفي.

المؤمن شخصية فذة و صاحب مبدأ لا يضعفه شيء:

إخوانا الكرام، الذي يشدك إلى الدين أنك حينما استقمت على أمر الله واصطلحت مع الله صار في معاملة من الله جديدة، لما أنت تقرب، تستقيم، والله القصص بهذا المعنى لا تعدّ ولا تحصى، لما أنت اصطلحت مع الله، ضبطت أمورك.

أنا حدثني أخ يلف محركات، هكذا قال بالضبط: أنا بالجاهلية، بيدي محرك يحتاج إلى لف، أجرته خمسة آلاف، يكون هناك خط خارجي مقطوع، قال لي: يكلفني دقيقة أصلح الخط اشتغل، يأتي صاحبه بعد خمسة أيام يعمل له تمثيلية، شغل، شغل، اشتغل اشتغلت، الله يعطيك العافية، ما شاء الله حولك، يعطيه خمسة آلاف، قال لي: بعد ما عرفت الله، جاءت مثل تلك الحالة، قال له: خمس و عشرين ليرة، من خمسة آلاف إلى خمس و عشرين.

يا إخوان دقق فيما سأقول: إذا لم تتبدل مقاييسك ١٨٠ درجة يكون إيمانك فيه خلل، يسعدك أن تعطي لا أن تأخذ، يعني المليون والله مثل الليرة أمام شرع الله عز وجل الله الغني، تركل مليون بطرف قدمك إذا فيهم شبهة، أو معصية، شخصية المؤمن شخصية فذة، مرتبة علمية، ما اتخذ الله ولياً جاهلاً، مرتبة أخلاقية، مرتبة جمالية، أذواقه عالية جداً.

أنا لا أريد مسلماً ليس مطبقاً، محسوباً على الإسلام ولا يقدم شيئاً، كن شخصية فذة، كن شيئاً مذكوراً، كن رقماً صعباً، في رقم سهل، معروف ثمنه، يبدأ متشنجاً، رافضاً، لا يوافق، لا يجوز، مصلحة عامة، بمئتي ليرة يوافق بعد ذلك، كل ثمنه مئتي ليرة، كله، هو وقيمه ومبادئه، وكلامه

طويل عريض، لا تكن رقماً سهلاً، كن رقماً صعباً، أي صاحب المبدأ لا تضعفه سبائك الذهب اللامعة، ولا سياط الجلادين اللاذعة، صاحب مبدأ، كبير، عند الله كبير، عند الناس كبير.

الأمة الإسلامية بحاجة إلى من يتقن عمله في سبيلها:

أنا هذا الذي أتمناه، الأمة الآن تحتاج إلى أعلام، إلى أشخاص كبار، إلى شخصيات فذة، شخصيات من أصحاب المبادئ، بيدكم الأمر، أنا أخاطب الشباب، نحن قربنا أن نكون بالماضي، وإذا كان أصغر قليل الحاضر، أما الشباب المستقبل، الآن الشاب المستقبل، الأربعين الخمسين الحاضر، السبعين الثمانين الماضي، إذا جلست مع شخص فوق الثمانين، هكذا كنت، وكنا بالقائم المقامية الفلانية، ما عنده شيء يتكلم عن الماضي الرجل المتقدم بالسن ماضي، بالأربعين خمسين حاضر، بالسابعة عشر والثامنة عشر مستقبل.

لماذا النبي الكريم عين أسامة بن زيد قائد جيش ؟ سبعة عشر عاماً، من الجنود ؟ سيدنا الصديق، أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، جنود عنده، يعطي للشباب حماس، ماذا تفعل ؟ تفوق بدراستك أول شيء، يأتي خبير قد يكون متآمراً، يأخذ مبالغ فلكية.

أقسم لي بالله إنسان على اطلاع، عندنا جهاز معقد جداً، قال لي بقدرة قادر يتعطل كل سنة مرة، مبرمج، في فيوزات معينة، ويصلح بالملايين كل سنة، يتعطل شهراً، مرة تعطل حسب الخطة المرسومة له، صار في تلكؤ بإصلاحه، قال لي والله طالب بثانوية صناعية بالشام أصلحه، و مجاناً.

تفوق بدراستك، نستغني عن الخبراء، دراستك دفاع، أتقن عملك، حسن إنتاجك الزراعي، حسن تجارتك، اختر مواد جيدة، سعرها معتدل، مدروس، وحد سعرك، كل واحد منا يطور نفسه، ببيته، بعمله، بصحته.

الدين هو الحياة:

أنا أتمنى أن لا يكون موضوع الدين شيء ثانوية، الدين هو الحياة، كنت أقول دائماً: كما أن هذه الأمة بحاجة إلى من يموت في سبيلها، هي في أمس الحاجة إلى من يعيش في سبيلها، لا تكن رقماً سهلاً، لا تكن معروفاً سعرك، الأسعار متفاوتة، في ألف في خمسمئة، في ملايين، لكن كله له سعر، أما المؤمن:

((والله يا عم لو وضعوا الشمس في يمين والقمر في شمالي، على أن أترك هذا الأمر ما تركته، حتى يظهره الله أو أهلك دونه))

[السيرة النبوية]

والحمد لله رب العالمين

أحاديث رمضان ١٤٢٨هـ - مقاصد الشريعة - الدرس (٢٦- ٢٧) : كسب المال-٢

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٧-١١-١٦

بسم الله الرحمن الرحيم

كسب المال من أوسع نشاطات الإنسان في الدنيا:

أيها الأخوة، الكلمة الرائعة التي قالها بعض العلماء: الشريعة عدل كلها، رحمة كلها، مصلحة كلها، حكمة كلها، وأية قضية خرجت من العدل إلى الجور، من المصلحة إلى المفسدة، من الحكمة إلى خلافها، فليست من الشريعة ولو أدخلت عليها بألف تأويل وتأويل.

لعل من أوسع نشاطات الإنسان في الدنيا كسب المال، لأن فيه حاجة للطعام والشراب، هو يعمل ليأكل، ويعمل ليتزوج، ويعمل ليؤكد ذاته، فإذا أردت أن تنسب عدد الأحكام الشرعية في الفقه الإسلامي إلى مجموع الأحكام الشرعية، أو إذا أردت أن تنسب عدد الأحكام الشرعية المتعلقة بكسب المال إلى مجمل الأحكام الشرعية، لرأيتها في أعلى نسبة، بل إن تسعة أعشار الأحكام الشرعية تتعلق بكسب المال، وتتعلق بالعلاقة مع النساء، لأنهما شهوتان، عميقتان، متغلغلتان، صارختان في حياة الإنسان.

المال قوام الحياة:

أيها الأخوة، الشيء الأول: المال قوام الحياة، هذه حقيقة جاء بها القرآن.

(جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ قِيَاماً)

(سورة النساء الآية: ٥)

بدخل من أي نوع، وبأي حجم تتزوج، يهيئ لك زواجاً، بيتاً، طعاماً، شراباً، إنجاب أولاد، فالمال قوام الحياة، لكن هذا المال قوة حيادية، يمكن أن يكون سلماً ترقى به إلى أعلى عليين، أو دركات تهوي به إلى أسفل سافلين، قوة حيادية.

المال قيمة حيادية تتحدد قيمته بحسب إنفاقه أو كسبه:

من الخطأ الفاحش أن تتوهم أن الله إن لم يعطك المال فهو لا يحبك، قال تعالى:

(فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ)

(سورة الفجر)

هذه مقالته.

(وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ)

(سورة الفجر)

(وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ)

و هذه مقالته،

(رَبِّي أَهَانَنِ)

(كَلَّا)

(سورة الفجر الآية: ١٧)

جاء الرد الإلهي ردّ ردع، كلا، ليس عطائي إكراماً، ولا منعي حرماناً عطائي ابتلاء، وحرماني دواء، بناءً على هذا الكلام هل يعد المال نعمة ؟ الجواب: لا هل يعد نقمة ؟ الجواب: لا، شيء يحير، ما هو إذاً ؟ هو نعمة إذا أنفق وفق منهج الله ونقمة إذا أنفق بخلاف منهج الله، إذاً هو قيمة حيادية، تتحدد قيمته بحسب إنفاقه، أو بحسب كسبه، وبحسب إنفاقه، أول حقيقة المال قوام الحياة.

الحقيقة الثانية: المال قوة حيادية، يمكن أن يكون سلماً ترقى به، أو دركات تهوي بها.

تداول المال بين جميع الناس:

الحقيقة الثالثة: في أصل التشريع، وإن صحّ التعبير في أصل التصميم، كيف أراد الله أن يكون المال بين الناس ؟ كيف أراده أن يكون ؟ أراد الله أن يكون المال بين الناس متداولاً، يعني يتعامل به جميع الناس، ميسوراً لكل الناس، الدليل على ذلك حينما قال الله عز وجل:

(كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ)

(سورة الحشر الآية: ٧)

عندنا حالتين، الحالة الأولى أن يكون متداولاً بين الجميع، والحالة الثانية أن يكون بأيدي فئة قليلة، وأن تحرم منه الكثرة الكثيرة، الحالتان الصارختان التي يكون فيهما المال بين الناس متداولاً أو محصوراً بأيدٍ قليلة.

الآن أي تشريع يجمع الأموال بأيدٍ قليلة، ويحرم منه الكثرة الكثيرة، هذا المجتمع الذي يكون المال فيه بأيدٍ قليلة وقد حرمت منه الكثرة الكثيرة، صار في سرقة، صار في احتيال، صار في كذب، صار في غش، صار في دعارة، صار في فسق، صار في فجور، صار في قتل، صار في ثورة، ثورة بدافع الفقر، هذا المعنى أورده الإمام علي رضي الله عنه حينما قال:

" كاد الفقر أن يكون كفراً ".

أنا أضيف على ذلك من باب القياس: وكاد الفقر أن يكون إرهاباً، وكاد الفقر أن يكن سرقة، واختلاساً، وتدميراً، وتخريباً، وقتلاً، ودعارة.

لذلك يمكن بشكل أو بآخر أن ترجع مشكلات المجتمع الكبرى إلى الفقر.

الكسب المشروع يجعل المال متداولاً بين الناس:

لذلك أيها الأخوة، ما التشريعات التي تجعله متداولاً بين الناس ؟ وما التشريعات التي تجعله بأيدٍ قليلة، وتحرم منه الكثرة الكثيرة ؟ التشريع الذي يجعله متداولاً هو الكسب المشروع، هو أن تلد الأعمال المال.

عندك مؤسسة، تشتري الأرض، الأرض لها مالك، اشتريتها من مالك الأرض وربح فيها، صار معه مال، جزء من مالك ذهب إلى صاحب الأرض، بنيت فوق هذه الأرض منشأة، اجتحت إلى بناء، وإلى اسمنت، وإلى حديد، وإلى بناء، والحديث عن البناء طويل تحتاج إلى كهرباء، وإلى تمديدات صحية، وإلى طلاء، وإلى، وإلى، وإلى جزء من هذا المال أنعشت به مئتي حرفة، بالمناسبة مئتي حرفة متعلقة بالبناء، لما فكرت تعمل مؤسسة، واشتريت أرض انتفع صاحب الأرض، وانتفع عدد كبير من أصحاب الحرف المتعلقة بالبناء، الآن اشتريت أجهزة، في معامل تعمل بصنع الأجهزة والأدوات تحتاج إلى أثاث، إلى مكاتب، إلى تكييف، تحتاج إلى مستندات، إلى آلات كاتبة، إلى كمبيوترات، هواتف، تحتاج إلى ضيافة، تحتاج إلى موظفين، تحتاج إلى موظف كبير ومدير مبيعات، ومحاسب، ومدير محاسبة، تجد نفسك نصف هذا المال المودع في المشروع توزع بين شريحة كبيرة، فصار المال متداولاً بين الجميع.

في معمل سيارات في فرنسا، قال يشتري من مئتي ألف معمل، معمل تجميع حينما أنشأ هذا المعمل يحتاج إلى مئتي ألف نوع من البضاعة، يشتريها من هذه المعامل.

الاقتصاد عجلة، فإذا بني على الأعمال، الأعمال عادت بالنفع على كل المجالات.

تداول المال بين الجميع إذا ولدته الأعمال:

أول حقيقة في هذا الدرس: يكون المال متداولاً بين الجميع إذا ولدته الأعمال يعني المضاربة، يعني التجارة، يعني الصناعة، يعني الزراعة، يعني المشاريع، يعني الخدمات، لمجرد أن تفكر بتأسيس عمل أنت ضمن منهج الله عز وجل، تأسيس عمل بالعمل سوف تستفيد وتنفع وتسبب رزقاً للآلاف.

تجد محلاً صغيراً فيه أربعة موظفين، على الشبكية أربعة موظفين، أما بالحقيقة هناك خمسمئة

إنسان ينتفعون من هذا المحل، كيف ؟ ألا تحتاج إلى دفتر فواتير، هناك مطبعة، حبر مطبعة، حروف مطبعة، هناك تغليف، هناك تجليد، كل هذه المصالح انتفعت من اقتنائك دفاتر فواتير، ألا تحتاج إلى تكييف ؟ إلى تدفئة ؟ ألا تحتاج إلى محاسب ؟ إلى مدير محاسبة ؟ ألا تحتاج إلى مستودع؟ لو دققت حينما تلد الأعمال المال يتوزع المال بين أكبر شريحة في المجتمع، بين أكبر شريحة.

أما حينما تضع المال في مصرف ربوي، يعطيك فائدة، هذه الفائدة أخذتها من دون جهد، من دون تعب، من دون مغامرة، من دون قرار، التجارة قرار، قد تربح بهذا القرار وقد تخسر، من دون أن تنفع الناس إطلاقاً، وحينما تلد الأعمال المال توزع الأموال بين أكبر شريحة في المجتمع، وحينما تلد الأموال المال يتجمع الأموال بأيدٍ قليلة، وتحرم منه الكثرة الكثيرة.

النظام العالمي نظام استغلالي يقوم على تجمع الأموال في أيدٍ قليلة:

أحياناً إنسان يقول لك: يا أخي الخمر حرام، الإنسان حينما يشرب الخمر تجده ملقى في الطريق، يتقيأ، منظر كريه، يخلط، يتكلم كلاماً بذيئاً، يتكلم شيئاً لا يمكن أن يقوله عاقل عند الغيبوبة، كأن الخمر واضح جداً أخطاره، والإنسان حينما يسرق يودع في السجن، على الشبكية ترى نتائج السرقة، نتائج الاحتيال، نتائج شرب الخمر، نتائج القمار ينتحر.

شخص معه اثنان ونصف مليون دولار بأمريكا من أصل لبناني، مسلم، لعب قمار خسر المبلغ كله، كل ثروته اثنان ونصف مليون دولار، فجاء للبيت فأطلق النار على زوجته وعلى أولاده الخمسة، ثم أطلق النار على نفسه، يئس من الحياة، القمار واضح.

هو الداء الذي لا بُرأة منه وليس لذنب صاحبه اغتفار

تُشاد لـه المنازل شاهقات وفي تشييد ساحتها الـدمار

نصيب النازلين بها سهـاد فإفلاس فيأس فـــانتحار

***

القمار واضح، والخمر واضحة، لكن البنك بناء فخم جداً، مكيف، استقبال، موظفات أنيقات، كمبيوترات، أوامر، على الشبكية لا ترى شيئاً، ترى مؤسسة حضارية على الشبكية، لكن هذه المؤسسة ماذا تفعل ؟ هذه المؤسسة تسهم في تجميع الأموال بأيدٍ قليلة وتحرم منها الكثرة الكثيرة، هنا المشكلة، لذلك قال تعالى:

(كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ)

حتى لا يكون بأيدٍ قليلة، والآن صدقوا ولا أبالغ مشكلات أهل الأرض بالدرجة الأولى أن عشرة بالمئة من أهل الأرض يملكون تسعين بالمئة من ثروات الأرض.

أنا ذهبت إلى بلاد كثيرة غنية، يعني ممكن لوحة صدقوا اشتراها صاحبها بثمانية و خمسين مليون دولار، تأخذ عشرة أنت تضعهم بالبيت ؟ ٥٨ مليون دولار، كم هي الأموال طائلة ؟

كنت في مدينة في ألمانيا بفران فورد، قال ميزانية النظافة أحد عشر مليار يورو النظافة فقط. أموال لا تأكلها النيران، لأنه حينما يكون النظام العالمي نظام استغلالي الأموال تجمع في أيدٍ قليلة، وتحرم منها الكثرة الكثيرة.

في استراليا تمّ إعدام عشرين مليون رأس غنم بالرصاص، ثم دفنوا، حفاظاً على السعر المرتفع، في إحدى السنوات أتلفوا محصول الزبدة في أوربا يساوي ثلاثة أهرامات بالقاهرة حجمه، أتلفوا المحصول حفاظاً على سعره المرتفع.

هناك دول تتلف محصول البرتقال، كامل المحصول، وضعوه بمكان حتى يفسد وينتهي، الزنوج تسللوا من تحت السور وبدؤوا يأخذون ما يأكلون، في العام القادم الذي أرادوا إتلافه سمموه، لئلا يأكله الزنوج الفقراء، ماذا أقول لك ؟ العالم المتطور متوحش والعالم الغير متطور حضاري، حضاري بأخلاقيته، عشرون مليون رأس غنم ما كان من الممكن أن يقدموهم هدية للمجاعات العالمية، بالسودان، ببنغلادش، بإفريقيا، يموتون من الجوع الصغار، جلد وعظم فقط، أليس كذلك؟.

من طبق منهج الله عز وجل عاش في بحبوحة و يسر:

حينما تكون الأموال بأيدٍ قليلة، وتحرم منها الكثرة الكثيرة ما الذي يحصل ؟ تنشأ الثورات، وجزء كبير كبير من الإرهاب وراء الفرق الطبقي الكبير، شعوب بأكملها لا تجد ما تأكل، شعوب بآسيا، تأتي من بلد بعيد تبعد عنا عشرة آلاف كم من أجل أن تأخذ مئة دولار بالشهر، تعمل ليلاً نهاراً كي تطعم أولادها، كم هو الفقر هناك ؟ الفقر لا يحتمل.

يا أيها الأخوة، حينما يسلك الناس منهج الله، حينما يلغى الربا، حينما تلغى وسائل الكسب الغير مشروع، تعيش البشرية في بحبوحة وفي يسر، وأنا رأيي الشخصي ميزان التقدم في أية أمة المسافة بين الأغنياء والفقراء، والأقوياء والضعفاء، كلما قلّت هذه المسافة نكون نحن عندنا تحضر، وكلما ابتعدت هذه المسافة كان التخلف، ما معنى بلاد متخلفة ؟ أي في مسافة كبيرة جداً جداً بين

الأغنياء والفقراء، في بلاد أخرى متحضرة لا تجد فرقاً كبيراً بين الغني والفقير، والقوي والضعيف.

تحريم الربا لأنه يجمع المال في أيدٍ قليلة و يحرم منه الكثرة الكثيرة:

على كلٍ موضوع الربا هو أن يلد المال المال، الآن عندنا شيء شكل هندسي هو الموشور، هذا الموشور عبارة عن دوائر متناقصة، هذا الشكل يشار به إلى السعر، السعر كلما ارتفع الدائرة المنتفعة منه ضاقت، أوضح مثل:

في أحد الأعوام كان كيلو الكرز بخمس ليرات، الشام فيها خمسة ملايين، كم بيت يشتري كرز ؟ أعتقد أربعة ملايين بيتاً، صح ؟ إذا كان الكيلو بخمسين ليرة يشتري مليونان، إذا الكيلو بمئة يشتري مليون، إذا بمئة وخمسين نصف مليون، كلما السعر ارتفع الشريحة المنتفعة من هذه السلعة تضيق، واضح تمام ؟.

الآن لمجرد وجود مؤسسة تعطي ربحاً ثابتاً من دون جهد، الذي معه مئة مليون وضعهم بمصرف ربوي، افرض تسعة بالمئة، عشرة بالمئة، المئة مليون بالسنة مليون، صح ؟ تقسيم اثني عشر شهراً، تقريباً بالشهر مئة ألف، قاعد بالبيت تصرف مئة ألف لا تذهب، ولا تأتي، ولا في استراد، ولا في تموين، ولا في جمارك، ولا في تأمينات صحية، ولا في موظفين مالية ولا طوابع، في أكبر من مئة هم بحياة التجار، مرتاح، لا في ضرائب، ولا في شيء أبداً.

فحينما يلد المال المال تجمع الأموال بأيدٍ قليلة، وتحرم منها الكثرة الكثيرة.

الربا سبب أساسي من أسباب المتاعب في المجتمع:

الآن ما دام في مؤسسة ربوية، تعطي ربحاً ثابتاً وبلا مجهود، ما عاد الإنسان مستعد أن يضع المئة مليون بمشروع، المشروع في مغامرة، قد يخسر، وفي ضرائب، في مسائلة، كل متاعب التجارة تظهر في وضع المال في العمل التجاري، أو الصناعي، أو الزراعي.

حدثني أخ: جاؤوا بمعمل لطبع السيديات، يعني كلفة القرص مثلاً سبع ليرات الكلفة إذا باعوه بعشرة ربح ثلاثة من عشرة، يأتي جاهز من الصين بخمس ليرات، وقف المعمل، لا يستطيع أن يعمل، هناك بالتجارة مغامرة، هناك قرار جريء أو غير جريء، مدروس أو غير مدروس، في ضرائب، في تموين، في مالية، في متاعب لا يعلمها إلا الله، لماذا هي حلال ؟ لأنه فيها متاعب، ليس التعب هو الأصل في الدين، لا، لكن في جهد، لماذا هي حلال ؟ لأنك مضطر أن تدفع نصف

أرباحك مصاريف، شغلت الناس كلها، أنا لا أبالغ مؤسسة متواضعة جداً، فيها ثلاثة موظفين يمكن أن ينتفع منها خمسمئة إنسان، دون أن يشعر بالمصاريف كلها.

إذاً إذا في مؤسسة ربوية تعطي ربحاً ثابتاً بلا جهد، الإنسان ما عاد يغامر بمشروع إلا بربح عالي، ما عاد يقبل عشرة بالمئة لو تخيلنا افتراضاً أنه ما في مؤسسة تعطي ربحاً ثابتاً بالمئة عشرة، أو تسعة بلا جهد، عندئذٍ يقبل الذي معه مئة مليون يوظفهم بالمئة عشرة، إذاً بوجود مؤسسة ربوية تعطي ربحاً ثابتاً، ما عاد في إمكان أن تطرح أموالاً، تطرح عملاً زراعياً، أو صناعياً، أو تجارب إلا بربح عالٍ، بماذا ساهمت المصارف الربوية ؟ برفع الأسعار، واضحة تمام ؟ لا يوجد إنسان عقله برأسه استثمر ماله بمتاعب كبيرة وربح قليل، إلا الربح يكون مجزياً، لأنه هناك مؤسسة تعطي ربحاً محدوداً بلا جهد، لما السعر ارتفع الشريحة ضاقت صار في حرمان، الحرمان أدى إلى متاعب في المجتمع.

لذلك الربا قد لا تجد على الشبكية آثار الربا، لكن قد تجد الآثار في المرابي.

توعد الله عز وجل مرتكب الربا بالحرب:

أخوانا الكرام، ما من معصية توعد الله مرتكبها بالحرب إلا الربا:

(فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ)

(سورة البقرة الآية: ٢٧٩)

وبالسنة الحرب على من عاد أولياء الله.

سبب المشكلات في المجتمع توزيع الأموال بشكل غير متناسب مع حاجات الناس:

إذاً: مقاصد الشريعة من تحريم الربا: ألا تكون الأموال بأيدٍ قليلة، وألا تحرم منه الكثرة الكثيرة، طبعاً هناك أشياء كثيرة تسهم أيضاً في تجميع الأموال بأيدٍ قليلة، احتكار مثلاً، كل معاصي البيع والشراء تساهم في تجميع الأموال بأيدٍ قليلة.

أحياناً إنسان يحتكر مادة بوسائل غير مشروعة، يستطيع أن يبيعها بربح أربعمئة بالمئة، ستمئة بالمئة يجمع أموالاً مخيفة، فلكية، أما إذا في تنافس لا يستطيع أن يبيعها إلا بسعر معتدل، غيره يبيعها أقل، فالاحتكار يسبب تجميع الأموال بأيدٍ قليلة، الكذب والتدليس، ممكن أن تأتي ببضاعة مكتوب عليها مصنوعة في بلد متطور جداً هي بالحقيقة في بلد متخلف جداً، أصبح تزويراً، تباع بأسعار عالية جداً، الغش يعمل أرباحاً عالية جداً، تبيع بضاعة بمواصفات عالية هي بالحقيقة ليست كذلك، تستغل جهد الناس.

فكل معاصي البيع والشراء تسهم بتجميع الأموال بأيدٍ قليلة، وتحرم منها الكثرة الكثيرة، وحينما يكون توزيع الأموال ليس متناسباً مع حاجات الناس تنشأ المشكلات، تنشأ السرقة، والاحتيال، والدعارة.

هناك إنسانة تحضر دكتوراه في الدعارة، مكتوب بأطروحتها: أنه أكبر سبب حقيقي وراء الدعارة تستغربون، ليس الفساد، الفقر، الفقر الشديد، كاد الفقر أن يكون كفراً، وكاد الفقر أن يكون دعارة، وكاد الفقر أن يكون إرهاباً، وقتلاً، ونهباً، وسلباً، وتخريباً.

أية منفعة بنيت على مضرة فالعلاقة محرمة:

لذلك الفقر يأتي من تجمع الأموال بأيدي قليلة، وأن تحرم منه الكثرة الكثيرة، أنا أعتقد كل معاصي البيع والشراء، كل المعاصي المالية التجارية ليس الربا فقط تسهم في تجميع الأموال بأيدٍ قليلة منها أيضاً هناك الاحتكار.

أذكر قصة من ثلاثين سنة، كان يباع كيلو الحلو الدرجة الأولى بخمس ليرات الآن ثمنه ثمانمئة ليرة، أنا أعرف ذلك، عاصرت، كيلو الحلويات بخمس ليرات، أصلحهم الله عشرين ثلاثين تاجر فستق اتفقوا، وجمعوا أموالهم مع شخص واحد، هو استورد، يأتي أصحاب معامل الحلويات إلى هؤلاء، والله السنة السعر غالي جداً، والسعر الغالي يسود الوجه، نحن ما أتينا بفستق، يمكن فلان أحضر، هم معه شركاء كلهم، ٢٣ تاجر فستق اتفقوا مع بعضهم على رفع المادة، رفع السعر، كان ثمن الكيلو عشر ليرات، رفعوه للعشرين، كلهم بدلوا بيوتهم وسياراتهم بسنة، صار الكيلو بعشر ليرات، الآن بثمانمئة ليرة، كلما صار احتكار يرتفع السعر، كلما صار غش يرتفع السعر، تدليس يرتفع السعر، كذب يرتفع السعر.

فلذلك لو استقام التجار وفق منهج الله صار في قانون طبيعي العرض والطلب، أنا أذكر كان السكر ممنوع استيراده، كان الكيلو بأربعين أو خمسين ليرة (الحر طبعاً)، لما سمح استيراده أصبح سعره ثماني عشرة ليرة، كان طن الحديد بأربعين ألفاً، لما سمح استيراده صار بثمانية عشر ألفاً، فوراً ينزل السعر، هناك قوانين ثابتة، إذا ألغيت الاحتكار، والغش، والكذب، والتدليس، و عندنا مئة معصية بالبيع والشراء، تجد السعر صار طبيعياً، وضمن إمكان الناس جميعاً.

فلذلك أية منفعة بنيت على مضرة فالعلاقة علاقة محرمة، وأية منفعتين متبادلتين فالعلاقة مشروعة.

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الجماعة رحمة والفرقة عذاب:

الحقيقة أن موضوع اليوم الجماعة.

((الجماعة رحمة والفرقة عذاب))

[أخرجه عبد الله، والقضاعي عن النعمان بن بشير]

((عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة، فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد))

[أخرجه أحمد في مسنده والترمذي والحاكم في المستدرك عن عمر]

((فإنما يأكل الذئب من الغنم القاسية))

[رواه أبو داود عن أبي الدرداء]

في القرآن الكريم:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ)

(سورة التوبة)

كأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لن تستطيعوا أن تتقوا ربكم إلا إذا كنتم مع الجماعة، أي إلا إذا كنتم في أجواء الإيمان، في أجواء الطهر، في أجواء البطولة، في أجواء الورع، في أجواء الحب لله عز وجل، في أجواء الصدق، في أجواء الأمانة، في أجواء العفة، الإنسان ابن البيئة التي يعيش فيها.

من أراد أن يسير إلى الله سيراً حثيثاً عليه أن يكون مع الجماعة:

بشكل أو بآخر اجلس مع التجار، واستمع إلى حديثهم، وإلى دخولهم، وإلى أرصدتهم، وإلى سفرهم، تشتهي أن تكون واحداً منهم، لا سمح الله ولا قدر لو جلست مع أهل الفجور والعصيان، واستمعت إليهم، ورأيت أنهم غارقون باللذائذ، ربما اشتهيت أن تكون معهم، أكيد.

لذلك وطن نفسك لن تستطيع أن تسير إلى الله سيراً حثيثاً إلا إذا كنت مع الجماعة.

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ)

(سورة الكهف الآية: ٢٨)

معنى

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ)

الجلسة على الأرض، ضيافة لا يوجد، والدرس طويل، لزيارة صديق في فلم، في فضائية، في موقع....إلخ، في جلسة وثيرة، في ضيافة.

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا)

(سورة الكهف)

علاقات العمل أو علاقة الإنسان برئيس عمله ليس مؤاخذاً عليها:

إخوتنا الكرام، إخوة كُثر يشتكون إليّ هذه الظاهرة أنه في ساعة من ساعات اتصاله بالله يتألق، قال لي: ثم أنتكس، قلت له: هل مع النكسة معصية ؟ قال لي: نعم ، أين وقعت هذه المعصية ؟ قال لي: أجلس مع أناس لا عهد لهم، ولا استقامة لهم، ولا عقيدة لهم، ولا ورع عندهم، هذا السبب. لذلك لا بد من حمية إيمانية.

((لا تصاحب إلا مؤمنا، ولا يأكل طعامك إلا تقي))

[أخرجه، وأبو داود والترمذي وابن حبان، والحاكم،عن أبي سعيد]

علاقات العمل لست مؤاخذاً عليها إطلاقاً، أنت مدرس بمدرسة، فيها من جميع الأطياف، فيها الملتزم، والغير ملتزم، والمستقيم، والغير مستقيم، والصادق، والغير صادق، والمتصل بالله، والغير متصل، فيها من جميع الأطياف، أنت علاقتك بعملك دخلت إلى صفك ألقيت درسك، في غرفة المدرسين سلمت على إخوتك وزملائك فقط، سألك عن صحتك ؟ الحمد لله، صار في مطر، الحمد لله، كم ميلي ؟ معلومات محدودة جداً علاقات العمل لست مؤاخذاً عليها إطلاقاً.

بل علاقتك برئيس العمل، أنت بجامعة لها رئيس ، أنت بمؤسسة لها مدير، أنت بوزارة لها وزير، علاقة الاحترام والأدب، أنت مؤدب، مستقيم، غير مستقيم، عقيدته سليمة هذا ليس من عملك، عملك أن تحترم هذا الذي يقع على رأس هذه المؤسسة، تدخل تسلم عليه، إياكم، ثم إياكم، ثم إياكم أن تفهموا من كلامي أنك إذا تعاملت مع إنسان ليس مستقيماً عليك أن تهاجمه، لا.

عرض الإسلام بشكل منطقي وحضاري لا بشكل قمعي ليقبل الناس عليه:

صدقوا أيها الأخوة ما من مقالة قرأتها في مجلة وجعلتها منهجاً لي في الدعوة كهذه المقالة، مقالة بمجلة تموينية، قد تستغربون ما علاقة التموين بالدعوة إلى الله ! لا يوجد أي شيء يجمع بين التموين والدعوة إلى الله، تقول المقالة:

لو أن الغش انتشر في البلد، باعة يكذبون، يغشون، يدلسون، يرفعون الأسعار ، يبيعون بضاعة سيئة، بسعر عالٍ، يستغلون جهل المشتري، ماذا على وزير التموين أن يفعل ؟ قال: أمامه طريقان، طريق القمع، قمع الغش، يرسل جيشاً من الموظفين يفاجئون أصحاب المحلات، يأخذون البضاعة، يحللونها، يدققون في الأسعار، يطلبون الفواتير، فإذا كان هناك مخالفات كتبوا الضبوط، وأغلقوا المحل، وساقوا أصحابها إلى السجن، هذا أول أسلوب، ماذا اسمه هذا الأسلوب ؟ القمع.

قال في طريقة أخرى أرقى بكثير، لا أدري إن طبقت أم لم تطبق، يفتح وزير التموين مؤسسة استهلاكية، يبيع فيها أفضل بضاعة، بأرخص سعر، بأطيب معاملة، فكل الناس يقبلون على هذه المؤسسة، ويدعون الباعة الغشاشين، الباعة الغشاشون إن لم يقلوا المؤسسات ماتوا من الجوع، تمام ؟ الموضوع تمويني محض، أنا جعلته منهجاً بالدعوة.

لا تتهم أحداً، لا تنتقد أحداً، لا تكفر أحد، دعك والناس، اعرض الإسلام عرضاً واضحاً، مؤيداً بالأدلة، وطبقه فقط، الناس بفطرتهم، بعفويتهم، يقبلون عليك ويدعون هؤلاء الذين اتخذوا الدين تجارة، فقط لا انتقدت، ولا اتهمت، ولا تراشقت التهم مع أنداك، هذا الأسلوب الآن الأمثل، اسم هذا الأسلوب التدخل الإيجابي في السوق، أي التدخل الإيجابي في الدعوة، اعرض الإسلام بشكل منطقي، حضاري، واضح، مع الأدلة وطبقه، وانتهى الأمر، لست مضطراً أن تدخل بمهاترات، ولا أن تنشئ فتناً، ولا أن تستعدي الناس، والناس ليسوا أغبياء.

من كان مع الجماعة عاش بأجواء إيمانية:

أخوانا الكرام، من ظن أن الناس أغبياء فهو أغباهم، الناس يعرفون الحقائق يرون الصادق من الكاذب، يرون المستقيم من المنحرف، يرون الأمين من الخائن، أبداً وضح كل شيء.

فلذلك أنت حينما تكون مع الجماعة تعيش بأجواء إيمانية، تعيش مع الحق تعيش مع النص الصحيح.

يعني إذا في عدد كبير جداً من الأحاديث الصحيحة، في كم كبير جداً جداً من الأحاديث الموضوعة، من يعلمك أن هذا الحديث موضوع، وهذا صحيح ؟ العلماء، أما لوحدك تقرأ مقالة بمجلة، تقرأ كتاب كله ضلالات، ينطوي عليك ما فيه، لو أن الأمر ممكن أن نستغني عن المدرس لوفرت الدولة مليارات ميزانية التربية والتعليم، لو كان الموضوع كتاب فقط، نوزع كتباً، ونجري امتحانات، فقط، العلم لا يؤخذ إلا من معلم وفي الدين لا يؤخذ إلا من عالم تقي ورع، متحقق، متحقق صفة عقلية، ورع صفة سلوكية، في شبهات، في ضلالات، في مداخلات، في تناقضات.

من لم يأخذ العلم عن الرجال انتقل من محال إلى محال:

يقول لي: والله يا أخي شيء يحير.

((احثوا التراب في وجوه المداحين))

[رواه مسلم عن المقداد بن الأسود]

واضح الحديث، لا تمدح، يأتي حديث آخر:

((إذا مدح المؤمن في وجهه ربا الإيمان في قلبه))

[أخرجه الطبراني في الكبير والحاكم في المستدرك عن أسامة بن زيد]

اجمع بينهما، سهل جداً، إن مدحت إنساناً إيمانه ضعيف يستعلي بهذا المديح إن مدحت إنساناً إيمانه قوي يزداد تواضعاً بهذا المديح، من يجمع لك بين الحديثين ؟.

((لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ))

[رواه مسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه]

الحديث معناه لحق حالك بكم ذنب.

((لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ تَعالى فَيَغْفِرُ لَهُمْ))

أنت بحاجة إلى عالم، يوضح لك أبعاد الحديث.

(وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا)

(سورة السجدة الآية: ١٣)

القراءة البسيطة للآية معنى ذلك أن الله لا يريد أن يهدي الناس.

(وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)

(سورة السجدة)

أنت بحاجة ماسة وأنا بحاجة معك، إلى عالم متحقق ورع، ومن لم يأخذ العلم عن الرجال فهو ينتقل من محال إلى محال، أكثر من مليون شبهة بالدين، وشيء فيه تناقض.

كل إنسان بحاجة إلى مرجع إسلامي:

اليوم جاءني سؤال، أنه أنت قلت المرأة كالرجل، مساوية له في التشريف والتكليف، والمسؤولية، ولها ما له، وعليها ما عليه، ويقول الله عز وجل:

(وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى)

(سورة آل عمران الآية: ٣٦)

الآية بمعنى، وهذه بمعنى، المرأة كالرجل تماماً في التكليف، مكلفة أن تؤمن بأركان الإيمان، مكلفة أن تطبق أركان الإسلام، مكلفة أن تؤدي طاعة الواحد الديان ، مشرفة عند الله وعند الخلق، ومسؤولة عند الله وعند الخلق، تماماً، لكن بنية المرأة، هذا موضوع ثانٍ الآن، بنية المرأة، طريقة تفكيرها، بنيتها النفسية، والاجتماعية، والجسمية شيء، وخصائص الرجل بفكره، ونفسه، وعلاقاته الاجتماعية، وجسمه شيء آخر، فهما متكاملان، وليسا متشابهين.

صدقوا هناك آلاف الشبهات، والمداخلات، والتناقضات، من يكشف لك هذه الأمور ؟ العالم المتحقق الورع، إذاً أنت بحاجة إلى مرجع إسلامي، بحاجة إلى إنسان زميل لك في المسجد تراه مستقيماً، تراه يغض بصره، يضبط لسانه، ينبغي أن تغار منه، أن تقلده، أن تحبه، لذلك:

((عليكم بالجماعة، وإياكم والفرقة، فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد، فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية))

[أخرجه أحمد في مسنده والترمذي والحاكم عن عمر]

((وَالْجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ وَالْفُرْقَةُ عَذَابٌ))

[أحمد والترمذي عن عمر]

((يد الله مع على الجماعة من شذ شذ في النار))

[رواه الحكيم وابن جرير عن ابن عمر]

من عاش وحده أفتى بنفسه:

صدقوا أيها الأخوة، من دون جماعة يقرأ القرآن يقول لك الخمر ليس حراماً، ما هذا الكلام ؟! هات لي آية تحرم الخمر، في:

(فَاجْتَنِبُوهُ)

(سورة المائدة الآية: ٩٠)

هذا توجيه إرشادي، افتح الآية الثانية، يقول لك الربا ليست محرمة، تحريم الربا بالنسب العالية فقط، الدليل:

(لاَ تَأْكُلُواْ الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً)

(سورة آل عمران الآية: ١٣٠)

النهي ليس على الأضعاف القليلة على الأضعاف المضاعفة، أي بالنهاية إذا ما لك مرجع ديني، لا يوجد إنسان يقدم لك المعنى الدقيق للآية، المعنى الدقيق للحديث، يكشف لك بعض المفارقات، يزيل من ذهنك بعض المفارقات، تقع بإشكال كبير، والإنسان إذا عاش وحده يفتي بنفسه. حدثني أخ، قال لي: أنا أعمل في مكان، في إنسانة الله يهديها، متبرجة إلى أقصى درجة، ترتدي

أحدث الأزياء، قالت له أنا أمسك ورقة روزنامة أجد فيها كلمة الله ماذا أفعل بها أحرقها، قال لها: بدها فرامة، قالت له: يبقى الحرف موجود، ما هذا الورع ! لكن تبقى الألف، واللام، والهاء، تفرقوا، لا يجوز، أليس من الأفضل حرقها أستاذ ؟ هي لم ترَ نفسها ماذا ترتدي إطلاقاً، لكن انتبهت إلى الموضوع ! هناك مفارقات بالمجتمع حادة جداً.

كل إنسان بحاجة إلى مؤمنين يرتاح لهم و ينصحونه:

أيها الأخوة، أنت بحاجة إلى مؤمنين تعيش معهم، بحاجة إلى أناس صادقين أناس ورعين، أناس أمناء، أناس أعفة، إنسان ما يغشك، ما يحتال عليك، ما يكذب عليك أنت بحاجة إلى أخ مؤمن في الله ترتاح له، يعينك، ينصحك، يتفقدك، يكون واقفاً معك.

((عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة))

[أخرجه أحمد في مسنده والترمذي والحاكم عن عمر]

مرة أذكر أنه عملت برنامجاً رياضياً مع بعض الأخوة، بعدها تفرقوا لأسباب أنا قلت لا يهم لوحدي أمشي كل يوم، ما مشيت ولا يوم، لوحده الإنسان لا يمشي، يحتاج جماعة، حتى بالرياضة، إذا ما في جماعة ما في حماس للمتابعة.

انظر الآن صيام يوم من دون رمضان صعب جداً، برمضان ما في مشكلة الناس كلهم صائمون، الفجر صليه لوحدك بالبيت، قل هو الله أحد، فقط ! تأتي إلى الجامع تجد صفحة، تقرأ بتجويد، في خشوع، أنت متوضئ، مشيت ربع ساعة بالطريق صحوت تنشطت، دخلت لمكان كله مقدس، بالبيت الولد استيقظ، الأم صرخت عليه، أنت في البيت، الجامع أكمل للصلاة.

((عليكم بالجماعة، وإياكم والفرقة، فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد، فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية))

[أخرجه أحمد في مسنده والترمذي والحاكم عن عمر]

الله عز وجل يدفع الإنسان دائماً إلى أن يكون مع الجماعة الملتزمة المؤمنة:

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ)

أمر إلهي، النبي موجه، يريدون وجهه

(وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا)

أنت قوي بأخيك، الدليل:

(مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ)

(سورة الفتح الآية: ٢٩)

لماذا كانوا أشداء ؟ لأنهم معه، لماذا كان قوياً ؟ لأنه معهم، رحماء بينهم.

(رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ)

(سورة الفتح الآية: ٢٩)

آية رائعة جداً، لو تتبعت القرآن الكريم، والسنة الشريفة المطهرة، لوجدت أن الله يدفعنا إلى أن نكون مع الجماعة، الجماعة الملتزمة، الجامعة المؤمنة، الجماعة الطاهرة كلمة دقيقة، لا يوجد أحد معصوم، أنا أتعامل مع الناس كلهم، ممكن يرتكب خطأ، بالموعد بكلمة، برقم، كله ممكن، لكن مؤمن كذاب لا يوجد، مؤمن خائن لا يوجد.

((يطبع المؤمن على الخلال كلها إلا الكذب والخيانة))

[رواه أحمد عن أبي أمامة]

مستحيل وألف ألف مستحيل أن يكذب المؤمن، أنت مع إنسان لا يكذب أبداً.

((كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار ويأكل القوي منا الضعيف فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقة وأمانته وعفافه فدعانا إلى الله عز وجل لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دون الله من الحجارة والأوثان وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء))

[عن أم سلمة ابنة أبي أمية]

بطولة كل إنسان أن يكتشف المقياس الإلهي في كل أموره:

أيها الأخوة ولا أبالغ لا يمكن أن تكون مؤمناً إلا وأن تكون أخلاقياً، مستحيل لا يمكن أن تكون مؤمناً إلا وأن تكون متعلماً.

((كفى بالمرء علما أن يخشى الله))

[أخرجه البيهقي، عن مسروق مرسلاً]

أقسم لكم بالله الأخ الأمي المستقيم هو عند الله عالم، والأخ المثقف الغير منضبط هو عند الله جاهل.

لو فرضنا إنسان يحتل مركزاً دينياً رفيعاً جداً (أعلى مركز)، واستقبل صحفية وملأ عينه من

محاسنها، وعنده حاجب لا يقرأ ولا يكتب، لكنه غضّ بصره عنها، من الأقرب إلى الله ؟ الحاجب، بطولتك أن تكتشف المقياس الإلهي.

أعرابي قال للنبي الكريم: عظني ولا تطل، تلا عليه قوله تعالى:

(فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)

(سورة الزلزلة)

قال: كفيت، لا عنده مكتبة، ثلاثة عشر ألف كتاب، ولا له مؤلفات، ولا عنده كمبيوتر، ولا عنده موقع بالانترنيت، ما عنده شيء أبداً، لكن قال له: كُفيت اكتشف المقاييس الإلهية.

كل مؤمن خطاء وخير الخطائين التوابون:

ليس الولي الذي يمشي على وجه الماء، ولا الذي يطير في الهواء، ولكن الولي كل الولي الذي تجده عند الحلال والحرام.

ابحث عن أناس طاهرين، ابحثوا عن جماعة طاهرين، جماعة صادقين ، جماعة أمناء، عن إنسان مخلص، عن إنسان يحب الله، عن إنسان لا يبيع دينه ولا بكل الدنيا.

والله الذي لا إله إلا هو لن تكون مؤمناً حتى يستوي عندك التبر والتراب.

شخص بتركيا نسي عنده سائح خمسمئة ألف يورو، بمحفظة، هذا التركي بحث طويلاً عن هذا السائح، ثم أبلغ الشرطة، فالشرطة أعلنت، والمبلغ أخذه صاحبه، فجاء كي يتشكره هذا الألماني، قدم له خمسمئة يورو قال له: لا آخذ قرشاً هذا واجبي، أنا ما فعلت شيئاً، صار في ضجة عالمية ما هذا الإنسان ؟ ما فعل شيئاً، فعل دينه فقط، فعل الحد الأدنى من الأمانة.

المؤمن شخصية فذة، والله بالشام نفسها نسي شخص بالسيارة ٢٠ مليون ليرة صاحب السيارة مؤمن، بحث عنه أربعة أيام، يحوم محل ما أخذه، وضع أخباراً، حتى وجده وأعطاه إياها ٢٠ مليون، أما صاحب المبلغ أخلاقي أخذه إلى سوق السيارات واشترى له سيارة، بمليونين.

هذا المؤمن، والله تعيش مع المؤمنين بجنة، في صدق، في أمانة ، في محبة، في تواضع، في تعاون، في تناصر، لكن المجتمع الآخر هذا مجتمع الذئاب، الذئب لا ينام بعينين ينام بعين واحدة، يخاف أن يغدروه، ينام بعين ويفتح عين، تشعر نفسك بمجتمع التفلت معركة، الشراء معركة، البيع معركة.

شخص معه مال لا بأس به اشترى دولارات طلعت مزورة كلها، فقد معظم ثروته بهذا الخطأ. في ألغام، في مطبات كبيرة جداً، مع المؤمنين، أنا لا أدعي أن المؤمن معصوم أبداً، في أخطاء،

لكن ما في خيانة، ما في كذب، ما في احتيال، ما في مؤامرة، ما في وجهين أبداً، في خطأ، في تقصر، التقصير موجود عند كل الناس، كل مؤمن خطاء وخير الخطائين التوابون.

من عاش وحيداً عاش بعيداً عن جو الإسلام:

أنا ألاحظ ملاحظة كبيرة تجد إنساناً عنده أفكار مضحكة، يعيش لوحده لأنه ما أحد صحح له، ما أحد نبهه، ما سأل السبب، ما استوضح، فكر لوحده.

فكرة لكن طريفة، المملكة في عندها مشكلة بالحج كبيرة، مشكلة المرور استخدموا لجنة من أمريكا لوضع نظام للمرور في مكة والمدينة، وعرفات، ومزدلفة ومنى، أحياناً تجد خمسة كيلو عشر ساعات، فجاء الوفد جلس شهراً، درس الطرقات، درس الكثافة، عمل تقريراً، أخذ مبلغاً فلكياً، اقترح على المملكة يكون الحج على خمس دورات.

بعيد عن جو الإسلام، أنت حينما تكون مع المؤمنين جوك جو إيماني، الأمور واضحة، الآيات واضحة، المحرمات واضحة، المباحات واضحة، أما ساعة يقول لك الربا محرم إذا كان بنسب عالية، يقول لك معي دليل، ما الدليل ؟

(لاَ تَأْكُلُواْ الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً)

يا أيها الأخوة، نحن بحاجة لكم، وأنتم بحاجة إلى مرجع، الجماعة رحمة واسأل، ودقق، وحقق، وعش مع إخوانك، بعد ذلك الأخوة يحمسونك، تجد هناك روحاً جماعية، أنا أقول لكم بالرياضة مثلاً صعب أن تقوم بالرياضة وحدك، إلا حالات نادرة جداً، لكن مع مجموعة تمارسها كل يوم. أحياناً يجلسون جلسة يقرؤون القرآن، من الصعب أن تجلس لوحدك، إذا في دور كل أسبوع عند شخص، و كل شخص يقرأ صفحة قرآن هذه المجموعة تنهض، وإذا كان كل الأخوة بحسب أماكن سكنهم، بحسب حرفهم يعملون لقاء أسبوعياً، ويتدارسون القرآن الكريم، درس الجمعة، درس الأحد فرضاً، كل شخص تكلم شيئاً، استفاد من خبرة الآخرين، سمع قصة مؤثرة جداً سمع حقيقة، قرأ كشفاً علمياً، تجد في تقوية للإيمان، كل أخ يقوي إيمان الثاني.

المؤاخاة من علامة الجماعة:

أنا أقول الجماعة من علامتها التآخي، ما يمنع الشخص بالجامع يختار أخاً له لكن أخ حقيقي، بحسب السن، بحسب السكن، جاره، أو بحسب العمل زميله، أو بحسب القرابة قريبه، ما في مانع، إما بحسب القرابة، أو بحسب العمل، أو بحسب السكن، أو بحسب السن، هذا أخوك حقاً، على الدرس ما جاء، خبره، لما تخبره ينتعش، معنى هذا أن أنا مهم، ما جئت انتبه الناس لعدم مجيئي.

إذا كل أخ آخى أخاً له يتفقده، يسأل عنه، يزوره، لم يأت من أسبوعين معناها في مشكلة يكون مريضاً، طرقت بابه.

والله مرة أخ من إخواننا عادي جداً فقير، مرض، الإخوان بعد الدرس ذهبوا لزيارته، قال لي كسبت مكانة عند أهلي، وجدوا أنه جاء إلى عندي مئة شخص تفقدوا صحتي، قوي مركزي.

((يد الله مع الجماعة))

[رواه الحكيم وابن جرير عن ابن عمر]

((يد الله على الجماعة))

[أخرجه الترمذي عن ابن عباس]

((... ومن شذّ شذ في النار))

[من الدر المنثور عن ابن عمر]

((عليكم بالجماعة، وإياكم والفرقة، فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد، فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية))

[أخرجه أحمد في مسنده والترمذي والحاكم عن عمر]

من مقاصد الشريعة في الجماعة أن تصلي في المسجد:

من مقاصد الشريعة في الجماعة أن تصلي في المسجد.

((من صلى الفجر في جماعة فهو في ذمة الله حتى يمسي، ومن صلى العشاء في جماعة فهو في ذمة الله حتى يصبح))

[أحمد]

تلاحظ برمضان صلاة الفجر سهلة جداً بالجامع، الناس كلهم بالجوامع والعشاء كذلك، والتراويح كذلك، لكن لوحده الإنسان صعب أن يصلي عشرين ركعة لوحده يقول كفى ركعتان، الله ما كلف الإنسان فوق طاقته، يأخذ أعذاراً كثيرة، يقرأ أقصر سورة لوحده، بالجامع هناك قراءة مطولة، قراءة جميلة، جو جماعي، جو طاهر، جو عفيف.

التنافس يحتاج إلى جماعة:

يا أيها الأخوة، أردت من هذا الدرس أن يكون الحديث عن فضل الجماعة وأحاديث كثيرة، وآيات كثيرة.

بعد ذلك سمعتم بالأرض شخصاً عمل سباقاً لوحده، أنا عملت سباق جري، مع من ؟ لوحدي، كيف لوحدك ؟ تتوازن مع واحد، لما الله قال:

(سَابِقُوا)

(سورة الحديد الآية: ٢١)

ما معنى سابقوا ؟ أن تكون مع الجماعة، سابقوا إلى جنة عرضها السماوات والأرض، ما معنى التنافس ؟

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ)

(سورة المطففين)

التنافس يحتاج إلى جماعة.

أيها الأخوة، لكن لو أن أخاً لك أخطأ لا تقاطعه فوراً انصحه، كن عوناً له على الشيطان، ولا تكن عوناً للشيطان عليه، أنا بهذا الكلام لا يعني كلامي أن الأخوة معصومون إطلاقاً، لكن أقول لك كلاماً دقيقاً، الأخ المؤمن لا يكذب، ولا يخون، ولا يحتال، ولا يتكبر، لا يوجد عنده باطن وظاهر، باطنه كظاهره، سره كعلانيته، خلوته كجلوته، واضح جداً، هذه صفات رائعة.

أنت مع أخ مؤمن صلحت عنده مركبتك يأخذ أجرة ويربح عليك، لكن لا يضع لك قطعة قديمة، ويقول لك جديدة، هذه لا يفعلها، في أشياء كثيرة جداً.

ممكن تستخدم شيئاً بغير محله، تقول للمريض تريد اثني عشر تحليلاً، يستطيع أن يناقش المريض؟ لا يستطيع، أنت تريد تحليلاً واحداً، فالإيمان يضبط.

والحمد لله رب العالمين

الفهرس